فوريو
F O R I O
أنس زاديلي

إهداء إلى نفسي

أنا أنس زايدلي... مؤلف هذه الرواية وإسمي هو ما سميتُ به بطل روايتي، مجرد طالب في مرحلة من مراحل التعلم، لست شخصًا أتيتُ من الجبال أو البراكين.. لستُ من أولئك الذين يعانون من الأمراض النفسية ليؤلفوا روايات وكتبًا رائعة. إنني شخص عادي بما تحمله الكلمة. إن كنت ترغب في القراءة، فاقرأ، أما إذا لم تعجبك، فلك أن تذهب. أنا هنا، وأنت بين خيارين، خيارين فقط. أنت من سيختار، ولن يأتي أحد ليختار لك. كن حراً، أيها العبد الذي تهتم لأقوال الآخرين.

0

في هذا العالم، حيث يُحكم على الإنسان منذ لحظة ولادته، تتخلل الحياة صورًا من القدر المقدر والمشؤوم. يولد جل الناس محمَّلين برموز تحكم مصيرهم، فكما يتحدد موقع كل قطعة في رقعة الشطرنج، يُولد الفرد مشحونًا بمصير ثابت، لا مفر منه.

يبدأ الصراع منذ أول لحظة للحياة. الكثير يُصبحون مجرد بيادق على رقعة دولتهم، يولدون بما يشبه الخطين اللذين يشكلان ظهرهم. إنها مجرد خطوط، لكنها تحمل معنى ملموسًا لا معنويًا، فهي تحكمهم وتحدد مواقعهم في الحياة... وهناك الفرس، الذي يحمل علامة واحدة على جسده، ليست سوى رمز لخيارٍ مقيد في هذا العالم... الفيلة، الذي يراه البعض رمزًا للحكمة، يحمل خطًا نحيفًا يمتد طيلة ظهره معبرا عن الذكاء الخارق الذي يتمتعون به. أما القلاع، فهي تميز الذين يُولدون بثلاثة خطوط قصيرة وعريضة، علامات على الثبات والصلابة؛ فالكثير منهم إما حرفيون أو فلاحون. إنهم ذوو بنية ضخمة وملامح تبدلت مع مرور الزمن.

وأخيرا الملوك، أولئك الذين يولدون ضمن عائلات نبيلة، بوشمٍ خاص وردة سوداء، التي لا ترمز فقط إلى العظمة، بل إلى خطر الوقوع في الهاوية، إذا لم يتحلوا بالشجاعة لتبرير أفعالهم وأسباب قراراتهم.

ستذكرني، قائلاً أني نسيت الوزير، فهو القطعة الأكثر قيمة في رقعة الشطرنج. نعم، يا صديقي، إنه الوشم الأكثر ندرة في تاريخ "أماداستينا"، حسب ما يُشاع، يولدون بشعر ناصع البياض وعينين

تكاد تخلو من اللون، مع وشم برتقالي يتغير لونه فيزداد احمرارًا مع شروق الشمس ويبدأ بالاصفرار عند غروبها، كأنما يعكس مسار اليوم وتغيراته في المصير. هذا الوشم يصور طائرًا ذا سبعة ذيول وأجنحة لا تعرف معنى العبودية، فهو طائر يرمز إلى الحرية المطلقة والتحرر من القيود التي قد تفرضها الحياة. تحت هذا الوشم، يوجد رمل أسود، الذي مع مرور الدهر يتشكل إلى طائر آخر، يشير إلى الأمل في النهوض من بين الصعاب، وحتى من الموت نفسه، يقال أيضا أن الطائر يختار شخصا ليستوطنه...

هذه الرموز ليست مجرد علامات على الجسم، بل هي تعبيرات عن واقع الحياة في " أماداستينا "، حيث لا يكون للفرد سوى ما تمنحه له تلك الرموز منذ الولادة. والقصص التي يتداولها الناس حول هذه الرموز تُذكّرنا بأن الحياة ليست إلا رقعة شطرنج، تُلعب وفق قوانين قد لا تكون دومًا في صالحنا، قوانين فرضها شخص لا ندري أصله ولا فصله، ولكننا ما نلبث أن نكتشف أن التحدي الحقيقي يكمن في كيف نتعامل مع تلك الرموز التي وُلدنا بها، وكيف نبحث عن طريقنا في عالم مليء بالتحديات والمصائر المحفوفة بالمخاطر.

الفصل الأول

1

أنس

رنَّ المنبّه، تلك النغمات المتكررة التي تشبه طعنات صغيرة في أذنيك، يتبعها اهتزاز الهاتف، صوت يُثير فيك النفور، لكنه يُذكِّرك بضرورة الالتزام. نعم، قد تُهمل الكثير من الأشياء، قد تُفوّت واجباتك، تُهمل هاتفك، أصدقاءك، وربما حتى أحلامك، لكن الوقت؟ لا. لا يُمكنك العبث مع الوقت. إنها الساعة الخامسة صباحًا.

تشعر بجسدك يتحرّك ببطء خارج السرير اللين الذي يبدو وكأنه يحاول إبقاءك فيه. تُدرك أنك اعتدت هذا الروتين، غرفة رمادية، أضواؤها المستطيلة تُطوِّق السقف كأنها تحرسك. تنظر حولك، كل شيء في مكانه، هدوء رمادي يعكس ذاتك المترددة.

تمشي على الزرابي البيضاء الناعمة. تحت قدميك ملمسها يُطمئنك لكنها تُذكّرك أيضًا أنك هنا وحدك، في عالمك الصغير. فتراه أمامك، لكنك تتجاهله متجها نحو الحاسوب، تُشغّله، بينما يدُك الأخرى تُحرِّك نافذة الغرفة وبابها. الهواء البارد يتسلل، كأنه يُوقظك من خدر النوم. لا تُحب الفوضى. رتبت السرير سريعًا، ثم الغرفة، كأنك تُعيد ترتيب شتات أفكارك قبل أن تُقابل صباحك.

تمضي إلى المطبخ. تبحث في الثلاجة. بيض مقلي، بصل، طماطم، مزيج بسيط لكنه يرضي حاجتك. تُعدّ طعامك كأنها طقوس يومية، طقوس تشعر فيها أنك تستعيد شيئًا من السيطرة على حياتك.

تخرج من المنزل بعد ذلك، الهواء البارد يلامس وجهك كصفعة لطيفة توقظك من سباتك. توقفت للحظة لتتنفس بعمق، وكأنك تحاول أن تُعيد شحن ذاتك بشيء يفتقده داخلك، شيء لا تعرف كنهه لكنه يلحّ عليك. تمضي إلى الركض، خطواتك الأولى ثقيلة كأن الأرض تُمسك بك، لكن سرعان ما تُصبح أكثر خفة.

الشوارع فارغة تقريبًا، وكأنها عالم خُلق لك وحدك. لا سيارات تمر، ولا ضجيج يُعكّر صفو الصباح. رائحة الإسفلت البارد تحل محل تلك الروائح المزعجة التي تألفها نهارًا. إنارة الشارع تُصبح دليلك الوحيد؛ كل مصباح يُضيء دائرة واسعة، نورها يتدرج في الطريق من وهجٍ قوي يتلاشى تدريجيًا حتى يذوب في الظلام. ثم يأتي مصباح آخر، يعيد الكرة كأنك تركض في ممرٍّ لا نهائي من موجات النور والظلام.

في كل خطوة، تشعر أن الزمن قد توقف، وأنك الوحيد الذي يتحرك في عالمٍ ثابت. أنت البطل الوحيد في مسرحية لا جمهور لها، حيث كل شيء يُعيد تشكيل ذاته ليتماشى مع خطواتك. نصف ساعة تمضي، وأنت تركض بين لحظات من الضوء وظلال من العتمة. خطواتك تترك خلفها أفكارًا معلّقة ومخاوف بلا إجابة، كأنك تهرب منها، أو ربما تأمل أن تُذيبها في عتمة الطريق.

تعود إلى شقتك. العمارة المكوّنة من عشرة طوابق تبدو كأنها وحشٌ صامت ينتظرك دائمًا. تضغط زر المصعد، ثم زر الطابق الثامن. تراقب الأرقام تتغير ببطء، واحد، اثنان، ثلاثة... حتى الثامن. تُفتح الأبواب، وأنت تعبر الممر الذي تعرفه جيدًا. كل باب يحمل

قصصًا لا تعرفها، لكنها لا تهمّك. أنت تبحث فقط عن الباب رقم 87. تُخرج المفتاح، وتدفعه في القفل، الباب يُفتح ببطء كأنك تدخل إلى عالم آخر. خطوت إلى الداخل، ومن دون تردد، ذهبت إلى المرحاض. تنظر إلى المرآة. وجهك أمامك، لكنك لا تعرفه، وجه مليئ بالشخبطة السوداء فتقول:

- "أنا أنس".

تُكرر الاسم بصوت خافت، كأنك تُحاول إقناع نفسك. لكن، من هو أنس؟ تسأل نفسك هذا السؤال وأنت تُحدق في عينيك.

تشعر بشيء غريب، كأنك لست سوى شبح يعيش في جسد مستعار. كتاب قديم مُغلق نُسي في زاوية مظلمة من الزمن. كلما مرّ يوم، تشعر أن ذاكرة هذا الجسد تُمحى شيئًا فشيئًا، كأنها أوراق تتآكل مع الوقت.

أحيانًا، تشعر أنك تعيش بين الماضي والمستقبل، تُلاحق شيئًا ضائعًا، شيئًا تعلم أنه كان موجودًا، لكنه الآن غامض، كأنك تحاول تذكّر حلم قديم، فكرة غريبة تطرق رأسك. "ربما لم أكن بشريًا في حياتي السابقة. ربما كنت شيئًا آخر. طائرًا، ربما".

تلك الفكرة تلتف حولك، تُثقل أنفاسك. فتتذكر "أنك مصاب بمرض نفسي يجعلك تظن أنك البطل في هذا العالم".

لكن، أليس هذا ما يفعله الجميع؟ أليس كل شخص يرى نفسه محور الكون، الشخصية الرئيسية في رواية يكتبها القدر؟ رواية لها مقدمة، عرض، وخاتمة. المقدمة، تلك اللحظات الأولى التي تُشبه بابًا يُفتح على عالم جديد، تجذب أنظار الناس وتُثير فضولهم. تبدأ الرواية دائمًا بتلك الشرارة التي تجعل الآخرين يلتفتون، يتساءلون: "ما الذي سيحدث بعد ذلك؟"

أما العرض، فهو المساحة التي يُسكب فيها جوهر الحكاية. إنه المشهد الذي يتداخل فيه الألم مع الأمل، النجاح مع الفشل، والأحلام مع الكوابيس. عرضٌ مليء بتفاصيل صغيرة تُبهر العيون وتُشبع الفضول، وكأنها محاولة لإبقاء الجميع على حافة الكرسي، منتظرين المزيد، متعطشين للإجابة. العرض هو الجزء الذي تُكمل فيه الحكاية ما بدأته، حيث تجد الحياة معناها، أو على الأقل تُحاول.

ثم تأتي الخاتمة، ذلك الفصل الأخير الذي يختزل كل شيء. هي خلاصة الرحلة، اللحظة التي يُغلق فيها الستار. لكن الخاتمة ليست دائمًا ما ننتظره أو نتوقعه. أحيانًا تكون مجرد انعكاس لما أُحب في البداية، كأن الكاتب – القدر – يُقرر أن يُرضي الجميع، فيجعل النهاية سعيدة. لكن أحيانًا أخرى، الخاتمة تُصبح مفاجأة صادمة، كأنها خيانة للأحداث التي سبقتها، حين يُقرر الكاتب أن يكسر القواعد، فينسى تسلسل الأحداث أو ربما يتعمد ذلك، فيقتل الشخصية الرئيسية. هكذا، تتحول النهاية إلى مشهد مأساوي يعلق في الذاكرة، نهاية حزينة قد تُترك بلا إجابة. فأنا...

2

أدعى أنس، ولا أطيق حتى التفكير في اسم عائلتي. إنه الاسم الذي أحاول جاهداً نسيانه، مجرد ترديده يستحضر في نفسي كل ما أمقته. في منتصف العشرينات من عمري، أعمل كأستاذ رياضيات في ثانوية مولاي يوسف في الرباط. قد يعتقد الكثيرون أن حياتي مثالية؛ وظيفة مستقرة، شقة مريحة، وبعض الأنشطة التي أملأ بها وقتي. لكن، ما لا يعرفه أحد هو أن هناك داخل أعماقي شعوراً بالكراهية والاغتراب لا تفسير له. كل شيء حولي يبدو بلا معنى، باهتاً، ثابتًا وكأن الزمن لا يتحرك، لا جديد ولا مفاجآت. الروتين اليومي يلتهمني كوحش لا يرحم؛ الفصول الدراسية، الطلاب الذين يجلسون أمامي، يحاولون ادعاء الفهم في حين أن الرياضيات تتسرب منهم مثل الماء من بين الأصابع. كلما شرحت، شعرت أنني أخاطب الجدران لا البشر.

كنت أحاول جاهدًا الهروب من ذلك الملل الذي يتسلل إلى حياتي يومًا بعد يوم. بحثت عن أي شيء يمكن أن يملأ ذلك الفراغ المقيت الذي يسكنني، جربت الرياضة بكل تفاصيلها. ركضت، تعبت، ولكني لم أجد ما يشبع تلك الحاجة العميقة للهروب. كأن شيئًا ما في داخلي كان ينتظر أكثر، ينتظر شيئًا يثير ذلك الركود الذي أصبح يلتهمني ببطء. وفي النهاية، كان الشطرنج هو الذي أسرني. تلك اللحظات... لحظات يتوقف فيها الزمن، وأنت تجلس أمام رقعة صغيرة مليئة بالقطع. كل حركة تدرسها بعناية، وكأنها تحدد مصيرك بأكمله. في تلك اللحظات، لم يكن الشطرنج مجرد لعبة. لا، لقد كان معركة. معركة عقلية خالصة، مواجهة بين فكرتين، بين قرارين، وبين ذاتي وذاتي.

ولم يكن الشطرنج كافياً. وجدت في الدوجو الياباني مهرباً آخر؛ تلك اللحظات التي تترجم فيها الألم إلى حركة، والتعب إلى تركيز. كل تمرين، كل حركة، كانت تتطلب مني أن أنسى العالم وأغرق في نفسي. كان هذا التدريب الجسدي والنفسي يعطيني شعوراً بالهدوء، كما لو أنني أعود للحياة مرة أخرى. كلاهما، الشطرنج والدوجو، أصبحا سبيلين وحيدين للبقاء على قيد الحياة في هذا العالم الممل... أو هكذا ظننت

لكن، وكما يسخر القدر من أحلامنا الصغيرة، كل ما كنت أظنه ثابتًا انهار في لحظة. أربع سنوات من الجهد، العرق، والألم... تلاشت وكأنها لم تكن. كنت فقط أريد عبور الشارع، مجرد خطوة أخرى في حياتي الباهتة، ولكن في تلك اللحظة، انقلب كل شيء. كأنني، لوهلة، كنت أتوهم أن لدي سيطرة على حياتي، أو على الأقل على مساري. ولكن لا، يا أنس، لم يكن الأمر كذلك. كل ما بنيته، كل ما حاولت أن أتمسك به، انهار في طرفة عين. "حتى لو ظننت أنك متحكم في حياتك، تبقى عبداً مقيداً حتى آخر رمش من الحياة. حياتك، عملك، هواياتك، وحتى مماتك... كل شيء مكتوب، أيها الأحمق." ليست مجرد لحظة عابرة، بل لحظة سلبت مني كل شيء. أضحك على نفسي الآن، ظننت أن حياتي بلا قيمة، مجرد نقطة صغيرة في بحر العالم... لكن الحقيقة كانت أبشع بكثير. العالم، هذا العالم الخادع، كان دائمًا يعد لي شيئًا أكبر من أن أتحمله. يا لســـــــخرية القـــــدر... ويا لكِ، يا حياتي، كم كنتِ قاسية .

ما إن فتحت عيني في المستشفى، شعرت بشيء غريب؛ فقدت بصري لوهلة، لكن سرعان ما عاد، إلا أنه عاد بطريقة أخرى. لم أعد أرى الأمور كما كنت أراها من قبل. رأيت نفسي من فوق، جسدي هناك يتحرك، يلف رأسه يمينًا ويسارًا، لكنني لم أكن المتحكم فيه. شعرت وكأنني كاميرا تحلق فوق المكان، كأنني كاميرا درون تلتقط كل شيء من الأعلى. ثم، بشكل مفاجئ، اجتاحني جوع. ولكنه لم يكن

الجوع الطبيعي، لم يكن جوعًا للطعام. لا، كان شيئًا أعمق، شعور غريب بأنني بحاجة إلى دخول جسد آخر. كانت تلك الرغبة قوية، شديدة، لا أستطيع ردعها. حاولت تجاهلها، لكنها سيطرت عليّ، وفي لحظة غابت عني السيطرة. وجدت نفسي فجأة داخل جسد ممرضة كانت تعتني بي، لا شعوريا دخلت عالمها، إستطعت فهم عقلها وكأنني أكل لحما أتلذذ به، جل ذكرياتها منذ الطفولة إلى الأن. لكن الأمر لم يكن كما توقعت؛ لم أستطع التكيف معها، شعرت كأنني طُرحت بعيدًا، كما لو كنت كرة قدم تتقاذفها الأقدام. في تلك اللحظة، قلت لنفسي:

- "ما هذا الشعور؟ لماذا يحدث لي هذا؟"

رغبتي بدأت تقل تدريجيًا، لكنني استمررت، لم أستطع التوقف عن تجربة دخول أجساد الآخرين. حتى ذلك الشعور... تلك الغريزة، بدأت تفقد قوتها مع مرور الوقت. كنت مرهقًا، لكنني لم أستطع النوم. كنت جائعًا، لكن لم يكن الجوع شيئًا يمكن إشباعه بالطعام. استمرت تلك الحالة، واستمررت في التفكير: "لماذا لا أستغل هذه القوة، هذه القدرة الغريبة لتعلم أشياء جديدة؟" كان هذا الصوت يتردد في عقلي. كان لدي شغف للمعرفة، رغبة في استكشاف المجهول، واكتشاف ما هو أبعد. وهكذا، اتجهت إلى حمادة في بلدة صغيرة تدعى "كلميمة". تساءلت: هل هناك آخرون مثلي؟ هل سأجد من يشاركني هذه القوة، هذه القدرة؟ كان هذا ما دفعني للتحرك.

في ثلاث دقائق فقط، كنت قد وصلت. قطعت المسافة من الرباط إلى "وارزازات" بسرعة لا تصدق. كنت ألتهم المسافات كما لو كنت أطير، بسرعة جعلتني أشعر بالذهول. إذا كانت المسافة بين "وارزازات" و"الرباط" 512 كيلومترًا، وبثلاثة دقائق قطعتها، فإن سرعتي كانت حوالي 10.240 كيلومترًا في الساعة... لم أصدق ذلك. حتى عقلي، أصبح أكثر دقة، حساباتي كانت كأنني أتحول إلى

آلة حاسبة بشرية. ما إن وصلت، حتى لفتت انتباهي صخرة منحوتة، عليها طائر ذو سبعة ذيول، وأسفله طائر صغير غير مكتمل. اقتربت منها ببطء، شعرت بشيء غريب يناديني، شعور لا يمكن تفسيره. كانت غريزتي تتصاعد، تتطور بشكل غير مسبوق. لم أستطع التنفس، شعرت بأنني أختنق.

ثم سمعت صوتًا في داخلي، لم يكن صوتًا مسموعًا، لكنه كان واضحًا :

- " تعال... تعال... لن أؤذيك. "

الكلمات تسللت إلى عقلي، ولم أستطع فعل شيء حيالها. فجأة، وجدت نفسي داخل الصخرة، أو بالأحرى داخل الطائر المشوه المنحوت. غريزتي هدأت تدريجيًا. حاولت تحريك جناحي، وكان الأمر صعبًا، وكأنني عالق في رمال متحركة. حاولت مرات ومرات حتى استطعت أخيرًا الخروج. وما إن أشرقت الشمس، حتى تحررت بالكامل. رؤيتي أصبحت أفضل بكثير، استطعت رؤية النمل الصغير وأنا في الأعلى. شعرت بقوة غريبة تتدفق في جسدي. ابتعدت عن الصخرة، نظرت إليها بعيني الخارقة، فأدركت أن الطائر الصغير كان يكبر ببطء شديد.

ذهبت لأرى نفسي. اقتربت من إنعكاس ماء في بركة وحل صغيرة، وما رأيته كان مذهلًا. كنت طائرًا، طائرًا كبيرًا بطول متر وربع، ريش شديد الاحمرار، وسبعة ذيول طويلة. جناحي كانا يتجاوزان المتر والنصف. شعرت بشعور غريب يملؤني، شعور بالحرية المطلقة. كان إحساسًا يغمرني في كل خلية من جسدي. "أنا حر... أستطيع التحليق، أستطيع تجاوز كل شيء. أستطيع قتل العبودية." الحرية تدفقت في داخلي مثل نهر هائج، شعرت وكأنني أستطيع التغلب على الموت نفسه. ومع مرور الوقت، لاحظت أنني أصبح أصفرا مع

غروب الشمس، وبرتقاليًا في وسط النهار. كنت مخلوقًا عجيبًا، شيئًا لم أره في حياتي، أو على الأقل هذا ما ظننته.

لكن! خيل إليّ أنني سأبقى هكذا إلى الأبد، ظننت أنني أخيرًا وجدت خلاصي، وجدت حريتي المطلقة. ولكنني كنت مخطئًا... كالعادة. في إحدى الليالي، بينما كنت غارقًا في نوم عميق كطائر حر، استيقظت فجأة، وإذا بي أجد نفسي إنسانًا من جديد. لم أعد ذلك الطائر القوي الذي يعلو فوق كل شيء. لا... كنت إنسانًا، مخلوقًا هشًا مرة أخرى. شعري أبيض ناصع يصل إلى كتفي، وعيناي خاويتان من أي لون، كأن الحياة قد نزعت منهما كل أثر. شعرت بالعجز يتسلل إلى كل جزء من جسدي. بكيت... لا، لم أبكِ دموعًا فقط... شعرت وكأنني أبكي دمًا، وكأن كل خلية في جسدي تبكي معي. بكيت كطفل وُلد في عالم قاسٍ لا يرحم. كانت مشاعري تتصارع في داخلي، كالوحوش التي تمزق بعضها بعضًا. كنت أحب حياتي كطائر، عشقت تلك الحرية المطلقة، شعرت وكأنني أملك العالم. لكن، ماذا بوسعي أن أفعل الآن؟ لا شيء. يا لسخرية القدر... يا لسخرية الحياة... هذه الدوامة التي تأخذني بعيدًا كلما ظننت أنني أستطيع التحكم بمصيري. لا مفر، لا مهرب... الحياة كانت وما زالت تلعب بي كدمية، ولا حيلة لي في ذلك. حينما لفظت "فأنا..." ثم تبعتها بـ"أدعى أنس"، أدركت كم كانت الكلمتان منفصلتين عن بعضهما، كأن بينهما فجوة من الغموض. ما كنت أود قوله لم يكن مجرد اسم؛ بل كان بوابة إلى ذاتي الحقيقية، تلك التي تختبئ خلف الحروف، تتصارع مع الأسئلة التي لا جواب لها. فما وددت قوله حينها:

- "فأنا... أنا أنظر إلى حياتي وأتساءل: هل قدري يكتب خاتمتي الآن؟ هل أنا ذلك البطل الذي قد تُحرق نهايته قبل أن يدرك مغزى قصته؟

أم أنني مجرد سطر جانبي في رواية أكبر، لا تُعيرني الأعين اهتمامًا إلا للحظات؟ "

كانت هذه هي اللحظة التي غاب فيها عني مرضي النفسي، وتلاشى معها يقيني بأني بطل الرواية. بدا موتي حينها مجرد أداة لتحريك الأحداث لا أكثر، لا بطولة فيه ولا خلود.

3

كالسون فالدريك

أفتح عيني. الساعة تشير إلى التاسعة صباحًا، الشمس تخترق الستائر الثقيلة، فأشعر بالحرارة تتسلل إلى جلدي كيدٍ حارقة توقظني من سبات غير مريح. الغرفة مليئة برائحة السجائر والبقايا الحمضية للخمر من الليلة الماضية، والجدران التي تكسوها تشققات تكاد تشبه خرائط متاهة منسية. أمد يدي إلى الطاولة بجانب السرير، أبحث عن علبة السجائر. أول سيجارة في الصباح دائمًا لها طعم خاص؛ أشعلها بلهفة، وأتأمل وهج النار وهي تأكل التبغ ببطء. أتنفس بعمق، أشعر بالدخان يحرق رئتي، وأعيد نفثه في الغرفة، أتركه يعبئ المكان وكأنه يعلن أنني ما زلت هنا.

المطبخ لا يختلف عن الغرفة؛ سقفه عالٍ على هيئة مثلث، تشقّه عوارض خشبية عتيقة، وجدرانه تحمل آثار دخان ودهانات قديمة تآكلت بفعل الزمن. أفتح خزانة خشبية مترنحة، ألتقط قنينة الخمر التي لم يبقَ فيها إلا بضع قطرات. أرفعها بشفاه عطشى، أشربها دفعة واحدة. الحرارة المنبعثة منها تعيد لي نشاطًا مصطنعًا. أضحك بصوت خافت، يملؤني شعور غريب بالتفوق.

أخرج إلى الشارع .الحي هادئ كما لو كان محاصرًا في زمن آخر، المنازل محاطة بأسوار خشبية، وبعضها يحمل فوق أسقفه المثلثة زهورًا جافة نبتت بشكل عشوائي. هناك أزقة ضيقة مرصوفة بالحجارة القديمة، تتخللها برك صغيرة من مياه الأمطار التي لم تجف منذ أيام. أرى الولد النحيل عند الزاوية. يحمل كيسًا مليئًا

بالخضروات وأرغفة الخبز الملفوفة بأوراق بنية. كيسه يبدو أكبر منه، ويداه ترتجفان من الوزن. أقترب، أسحب الكيس من يديه وألقي به على الأرض، متناثرًا كأنني أنثر أوراق شجرة يابسة. أضحك بصوت عالٍ، وأقول له:

-"ما بالك ضعيفًا هكذا؟"

ثم أركله بخفة فقط لأشعر بالتفوق. أكمل طريقي نحو المقهى. في الطريق، تمر جارتي .ترتدي عباءة رثة، تسير بسرعة كما لو كانت تهرب من ظلي. ألقي عليها تعليقًا ساخرًا بصوت عالٍ عن ملابسها. الشارع خالٍ إلا من قلة تمر بجانب البساتين التي تمتد على طول الطريق، أشجار البرتقال والتين تبدو كأنها مراقب صامت لوجودنا.

المقهى هو المكان الوحيد الذي يشبه نقطة التقاء بين العصور مجرد غرفة واسعة بأرضية من البلاط الباهت، ومصابيح زيتية تتدلى من السقف. الزبائن يجلسون على كراسٍ خشبية، بعضهم يقرأ صحفًا قديمة، وبعضهم ينفث دخان الشيشة. أطلب قهوة سوداء وسيجارة جديدة. النادل شاب صغير، ملامحه مشدودة، يبدو وكأنه يعمل أكثر مما يحتمل. أبدأ الحديث معه: "كم تأخذ لتصب كوبًا؟ هل يدك مكسورة؟" أراقب توتره يتزايد، استمتع برؤية علامات الإحراج على وجهه. أحب هذا الإحساس؛ يجعلني أشعر أنني أتحكم بالعالم.

عندما يحل المساء، أسلك طريقًا يؤدي إلى الحي القديم .هناك، المنازل متراصة بألوان باهتة وأبواب خشبية ضخمة تحمل زخارف عتيقة. مجموعة من الشباب يجلسون عند زاوية الحي، حول طاولة قديمة تبدو وكأنها اقتطعت من شجرة بلوط عمرها مئات السنين. أجد ضالتي بينهم: وجه غريب، شاب يبدو جديدًا هنا. أقترب منه،

كلمات بسيطة في البداية، ثم أبدأ في الضغط عليه بأسلوبي، كأنني صياد يلعب بفريسته. ألاحظ ارتباكه، وأبتسم.

في الليل، أعود إلى غرفتي. الجدران العارية تبدو كأنها تقترب مني، السقف الخشبي يئن مع كل هبة ريح. العلبة فارغة، والزجاجة أيضًا. أستلقي على السرير، أفكر في يومي. "أنا الأقوى، لا أحد يقف أمامي." هذا العالم صنع لي، وأنا أصنع قواعده. أغمض عيني، لكن طيف العالم الذي أتحرك فيه لا يختفي. ربما... هو الذي يتحرك بي.

4

أنا "كالسون فالدريك"، الطفل الذي وُلد مميزًا، مختلفًا عن الجميع. اسمي الذي يحمل في طياته شعور الكآبة. من أين استلهموه؟ لا أدري، ولا يهمني. لكنه لم يأسر قلبي، إنه كان شعارًا للفشل في عصر من العصور. في كنيسة البابا "ساندييارو"، في قرية "ألوينا"، مقاطعة "تالفرايا"، دولة "أماداستينا"، أتيت إلى هذا العالم. لم يدركوا في البداية أنني كنــت شيئًا نادرًا، مختلفًا عن بقية الأطفال. شعري الذي كــان ناصع البياض كأنه حليب، وعيناي اللتان كانــتا رماديتان؛ نظراتي كانــت تخترق القلوب. كنــت شخصًا لا يقارن، وُلدت بلا وشم الرقعة، تلك العلامة التي كانت تميّز الناس في هذا العالم. لا وشم يعني الحرية، لكن ما أدراهم؟

لقد كنــت استثنائيًا، وكنــت أعلم ذلك. سخرت من الجميع، وأظهرت للجميع أنني فوقهم. هربت من المدرسة مرارًا، فعلت ما يحلو لي، واحتقرت من كانوا يلتزمون بالقوانين. أنا؟، أنا كنــت حرًا. قمت بأفعال مشينة، اضطهدت من لم أكن أعرفهم، ضربت من لم يعجبني مظهرهم. حتى أنني تجاوزت كل الحدود الأخلاقية؛ دخنت السجائر، شربت الخمر، واستغليت الفتيات. نعم، كنــت حرًا بحق، كنــت فوق القوانين، فوق البشر. كلما نظرت في المرآة، كنــت أرى الشعر الأبيض الذي يميّزني عن البقية، ذلك الشعر الذي جعلني أشعر بأنني أتحكم في العالم.

ولكن... بدأت الأمور تتغير. بعد أن بلغت الثالثة والعشرين، حدث ما لم يكن في الحسبان. شعري... شعري الأبيض، تلك العلامة الوحيدة التي كنت أعتز بها... بدأ بالاسوداد. كان الأمر كابوسًا. لا، هذا لا يمكن أن يكون حقيقيًا! كيف لشعري أن يتحول الأن !؟ كنــت أكرر:

"لا، لا، لا!" كان هذا خيانة. خيانة لكل ما كنــت أؤمن به. ظهري، الذي لم يحمل وشم الرقعة، بدأ يظهر عليه ما يشبه الشرطتين. ماذا يحدث لي؟ هل سأتحول إلى شخص عادي؟ لا أحتمل الفكرة.

لجأت إلى إخفاء شعري تحت قلنسوة، ولكنني لم أستطع الهروب من الحقيقة. كنــت أفقد كل ما جعلني مميزًا. شعوري بالفخر بدأ يتلاشى، وتحول إلى كابوس. كانــت أيامي كلها مظلمة، وكنــت أسير في دروب الغربة والضياع.

حتى جاءت تلك اللحظة التي قلبت حياتي رأسًا على عقب... كنت في سوق "أميدا" الذي يتواجد في يوم كل أسبوع.. كالعادة، أسرق خبزة وتفاحة. اعتدت الهروب من البائعين مثل القطة السريعة. ولكن هذه المرة، كانوا أذكى. استعانوا بأطفال سريعين للإمساك باللصوص. جريت بأقصى سرعة، لكن سرعان ما أمسك بي طفل ذو بشرة سوداء. حاولت أن أتخلص منه، أن أضربه، لكنه كان قويًا مثل الفهد الذي لا يرحم فريسته. أخذني إلى البائع، وكنت أعلم أنني لا أملك المال، ولا وسيلة للهرب من العقاب. كنت أستعد للضرب، لكنه لم يكن الضرب الذي تلقيته. كان هناك نبيل من "الفيلة"، بحكمته وذكائه، حكم علي بالنفي في الغابة لسبعة أيام. كانت الغابة موحشة، وكنت أعلم أنني ضعيف، هش كالورق.

لم أكن قادرًا على الصمود، وبعد ساعات قليلة، وجدت نفسي عاجزًا. حينها ظهر ما أذعرني.. إنه ذئب بعينيه المرعبتين، وأنيابه الطويلين، وأتذكر حينها حيث كنت أعذب جرواَ كان يشبهه وأقول لنفسي دون ندم " هيهات.. هيهات إنني أكاد أفقد وعيي من الضحك الحياة دوامة حقا... " ، لم يكن هناك مهرب. الموت كان ينتظرني. ولكن بدلًا من الاستسلام...

- " هههـ.. يا إلهي إنني ميت لا محاله فما رأيك بالقفز من التل يا جروي العزيز... "

وتحديت نفسي. قفزت من جبل كان طوله قرابة الأربعين قدما ، وكنت مستعداً للموت، قائلًا:

- " ما بالك أيها العالم؟ ما أنت إلا لعبة في يدي، لن تستطيـ... "

لم أقدر على تكمة كلامي، وفي تلك اللحظة، انفكت القلنسوة، وظهر شعري... أسود بالكامل....الحقيقة المرعبة تجلت أمامي. شعري كان يمثل الحرية التي أبحث عنها، الحرية التي كنت أرى نفسي بها فوق الجميع. ولكن الآن؟ الآن أدركت أنني نادم. نادم على كل شيء. "أنا في متاهة نفسي، نادم بحق." أنا أبكي ومتأسف لكل من أذيته...

في تلك اللحظة، انتهت حياتي. ساقطا من جبل، فتفرّ الغربان كأنما سمعت صوت رعدٍ،، ولكـن....

- " ما هذا الشعور؟ "

- " واش قال شي حاجة... وا السي أنس واش كاتسمعني "

أفتح عيني ببطء، أرى مكانًا جديدا. كنت على سرير ناعم، في غرفة تبدو كمنزل سيدة ثرية. على يميني، كانت هناك إمرأة ترتدي لباساً أبيض، وقبعة بيضاء، تحمل خشبة مسطحة بلون رمادي. وعلى يساري، هناك زجاج وراءه طريق مليئة بأشياء معدنية، أنظر إلى نفسي بعد أن ركزت في ذلك الزجاج الذي يعكسني أيضا.. شاب في منتصف العشرينات، بشعر أزرق يميل إلى الأرجواني، عينين زرقاوين داكنتين تخلو منهما الروح... فإذ بها جانبي بدأت تتحرك وكأنها

تتألم، ثم هدأت و بدأت تقول كلاما لم أفقه معناه، ثم تلتها كلمة إعتمدتها كإسمي الجديد إنه " أنس"

5

أنـــــــــــس

بكائي كالطفل لم يكن عبثًا، بل كان شهادة على ظلم عانق روحي بعنفٍ لا يطاق. ومع ذلك، ما باليد حيلة، فأنا لست سوى بيدق تحركه قوى مجهولة في رقعة مصير غامضة. كادت الشمس تميل نحو الغروب حينها، مرسلة أشعتها الذهبية المتناثرة بين الأغصان المتشابكة للأشجار التي تحيط بي. كان الجرف أمامي كهاوية تناديني، والغابة خلفي كوحش كاسر يتربص بالفريسة. كان المشهد مشحونًا برهبة تسري في العروق.

وبينما كنت أحاول استيعاب ما حولي، جذب انتباهي نملٌ غريب لم أر له مثيلًا، كل حركة منه بدت كأنها لغز يهمس به الكون. أما الطيور، فقد كانت ترتب أماكنها للنوم، وصدى هديلها المنخفض لا يزال يتردد في أذني كأنغامٍ منسية. عيني تجولان بين الأغصان، وأرجلي تواد زرع الأرض، فجأة، رأيت الطائر البرتقالي الذي كان صورة من نفسي القديمة. ولكنه الآن، بتصرفاته الغريبة، بدا ككائن لا يحمل وعيًا ولا عقلًا.

حلق الطائر بحركة غريبة، مشيرا إلى حبل قديم متآكل، يرقد كذكرى مطموسة بين الأعشاب. خطوت نحوه ببطء، بينما الطائر ينتقل إلى شجرة مجاورة، إيماءاته مبهمة، كأنه يحاول إخباري بشيء أعجز عن إدراكه. رفرف بجناحيه ثانية، ثم عاد ليقف بثبات، واضعًا جناحيه على قدميه الصغيرة.

- " ماذا تفعل؟ "

كنت على وشك تجاهله، لكن فجأةً! تملكتني المعرفة في عمق عقلي... نعم، فهمت ما كان يقصده. كان يشير إلى الحبل والشجرة ليعني الانتحار... ماذا؟! إنتحار؟! ألهث بطريقة مفجعة...! الرعب تسلل إلى داخلي، ذلك الخوف الذي عرفت مذاقه عندما كنت في العاشرة من عمري. كيف يعاودني الآن؟ أتذكر تلك العبارة: "لو انتحرت، فاعلم أنك وصلت أقصى مراحل العبودية".

- "لا، لا، لا أريد تذكرك"!

بدأت أستوعب ما كان يرمز إليه برفرفة جناحيه. إنه الخيار بين أقصى درجات العبودية، الانتحار، وأسمى درجات الحرية، الطيران كطائر أحمر قانٍ. أما حين وقف على رجليه، محيطًا جناحيه بهما، فقد قصد أن أتعامل مع الأمور بروية، دون إسراف في التفكير، وأن أستند إلى أشخاص أثق بهم. وإن لم أجدهم، فسأستند إلى قريني، ذلك الوحش الكامن في داخلي.

ثم اقترب الطائر مني، وقف على رأسي بثقل جسده، أفقدني توازني، فهويت أرضًا. أدركت حينها أن الطائر هو قريني... وفجأة، أسمع صوتًا غريبًا:

- " أجاريباكيلو درام يا سوني "

ما هذا؟ هل يردد شعوذة؟ في تلك اللحظة تحركت وجنتاي للأعلى قليلًا.

- " لا يعقل، أبتسمت الآن؟ "

أنا سخيف حقًا. أبتسم من كلام غير مفهوم، وكالجماد حينما تدربت ليلا، صباحا. ثم بدأ الطائر يدور حولي، ليدخل جسدي من ظهري في لحظات. شعري تحرك للأعلى كأنما هبت رياح قوية، وبدأ يتغير لونه، من الأحمر إلى البرتقالي، ثم إلى الأصفر، وعاد ناصع البياض. الرياح

جاءت من قدمي، وبدأت أشعر برغبة في البكاء مرة أخرى، ولكن هذه المرة ليس حزنًا، بل فرحًا... إنه نفس الشعور الذي انتابني عندما كنت طائرًا؛ حرية مطلقة تتحدى الموت نفسه.

ثم سمعت صوتًا آخر، مراهقًا يصرخ:

- "أين أنت أيها الفينيق؟ أين أنت؟ إنك حقًا الفينيق ذو السبعة ذيول"!

عرفت أنه كان يبحث عن طائري، لكن ما معنى الفينيق؟ كيف لي أن أفهم هذه الشعوذة؟ لا، لا يعقل ما أفكر فيه... أيظن هذا الطائر أنني أهل للثقة فيعطيني حكمته ويشاركني عقله

فجأة، ظهر أمامي فتى في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره، بشعر بني وقزحية لونها كلون القهوة. رآني، وأظهر اشمئزازًا. توقعت أن يسخر مني لرؤيتي أبكي، لكنه بدلاً من ذلك قال:

- "هل أنت كالسون؟"

استغربت قليلاً، ثم بدأ يرجمني بالحجارة وهو يصرخ:

- "ماذا فعلت بأختي؟ تتحرش بها، أيها الخنزير"!

لم أفهم مقصده، لكنني قلت له بلغته دون وعي:

- "أنا؟ اسمي أنس، ولست كالسون. لقد بُعثت في هذا الجسد دون أن أعرف السبب. وإن كان صاحب هذا الجسد عدوا لك... فقد أصبح ميتًا"

- "أتظن أنني سأصدقك؟ ولكن ليس اليوم. أنا أبحث عن طائر الفينيق ذو السبعة ذيول، أتعرف مكانه؟ لقد كان هنا منذ قليل"

- "اه.. لقد دخل جسدي.. قد تظن أنني أكذب لكنني أقول الحقيـ.. "

اقترب الفتى مني بسرعة وخلع قميصي، لينظر إلى ظهري ويرتجف خوفًا، ثم قال:

- " كيف يمكن للفينيق أن يختارك؟ أنت زنديق، لص، متحرش بالنساء، وتحتقر الضعفاء. كيف له أن يأخذك خليفة له؟"

- "هل يمكنك أن تصف لي ما تراه؟"

تنهد الفتى وقال:

- " قد تكون محقًا، فإن تصرفاتك لا توحي بأنك كالسون... إضافة إلى ذلك، كيف للفينيق ذو السبعة ذيول أن يسكنك؟"

- "ههه... يسكنني أنا؟! أنت تمزح، صحيح؟ أنا من سكنه. أنا سيد نفسي وقراراتي".

لاحظت أنني شعرت بالكبرياء والحرية عندما قلت ذلك... شعور الطيران فوق الجبال. نظرت إلى الفتى ورأيته يرتجف، يكاد ينخلع قلبه. همس قائلا قبل هروبه:

- " لقد سكنك حقًا... مع أنك وغد، يا كالسون، إلا أنني أشفق عليك".

أثار فضولي للحظة، فأدرت رأسي نحو ظهري، فرأيت رمزًا مألوفًا، وشم كأنه نقش منذ الولادة. كان هذا الرمز ذاته محفورًا على الصخرة في "كلميمة"... رمز الطائر الخرافي ذو الأجنحة الطويلة وسبعة الذيول. لا أحد رأى هذا الطائر من قبل، ولكن أساطيره محفورة في الأذهان، تعيش معه تلك الأرض وتُعيد خلق طائرٍ آخر من ترابه. أحرك قدماي بتثاقل نحو نهر قريب، فرويت عطشي بشراهة كما لم أفعل منذ زمن. كنت معتادًا أن أشرب المياه عن طريق منقاري، لكن الآن، كان الأمر مختلفًا. مع هذا التغيير في الجسد، جاء شعور جديد بالغرابة، وكأن شيئًا ما لا يزال ناقصًا.

ارتديت ملابسي بعدما ارتخت أكتافي قليلاً، ولكن فجأة داهمتني الغريزة نفسها ؛ الشعور ذاته يضرب عميقًا في داخلي... كيف لي، كيف يمكنني دخول شخص بينما أنا بالفعل داخل هذا الجسد؟ تساؤلات كثيرة. حتى شعرت بشيء يتحرك ببطء من ظهري، كأنه يحاول الخروج من الطين. مرت الساعات بصعوبة، وكأنها لانهائية من العذاب الذي اجتاح كل خلية في جسدي. كان الألم لا يُحتمل، لكنه لا يقارن بالعذاب الذي عشته حين كنت في هيئة "أنس."

وبعد ما بدا وكأنه أبدية، هدأت آلامي قليلًا، وخرج الطائر نفسه من ظهري مرة أخرى. لكنه هذه المرة كان بلون أصفر، ممزوجًا ببريق الشمس التي بدأت تغرب. عيناه المتقدتان كانتا مثل نار، تخترقان روحي. كانتا مرعبتين، لكنني أحببتهما، كانت نظراته تمثل ما أطمح إليه؛ عينان مليئتان بالشرارة التي تشتعل مع الحياة. ولكن الآن، عينيّ بعيدتان كل البعد عن ذلك النور المتوهج. عيني خاويتان، لا لون ولا حياة فيهما.

حدقت فيه طويلاً وقلت له:

- "ما رأيك أن أعطيك إســـ"...

قبل أن أتمكن من إكمال الجملة، فجأة، انفجرت داخل رأسي موجة من المعرفة الجديدة، وكأن ذكريات محذوفة تم استعادتها بعنف. أرعبتني تلك الذكريات، وكانت كافية لتجعلني أدرك ما يجب فعله. فهمت أن عليّ مناداته بـ"الفينيق"، فقد كان طائرًا أسطوريًا بسبعة ذيول. ومع هذه الإدراك، عاد الجد إلى ذاكرتي... الجد اللعين. لقد كرهته وكرهت كل من تسري دماؤه في عروقه. تنهدت بغضب، وقلت للطائر بصوت مشبع بالاستياء:

- " إذاً تريدني أن أناديك بالفينيق، أيها المشوه؟ حسنًا، لا بأس، سأفعل".

أخيرًا، شعرت بالإرهاق يتسلل إليّ، وكانت تلك أول رغبة حقيقية بالنوم شعرت بها منذ أن كنت في العاشرة من عمري. أغمضت جفني قليلاً، لكن الطائر بدأ يداعبني. حاولت إبعاده عني، لكن فجأة سمعت صوتًا مألوفًا، ليس صوتي الحالي، بل صوت "أنس"، صوتي الأصلي. فكرت للحظة: "هل من الممكن أن يستوطن جسدي الأصلي شخص آخر؟ هل يمكن أن يكون هناك شخص يشبهني من هذا العالم أو الأرض؟" هدأت أفكاري قليلاً حتى سمعت الصوت يتردد مرة أخرى في رأسي:

- " اللعنة... لماذا لا يفهمونني؟ لقد مرت ستة أشهر... هؤلاء الناس في هذا العالم حمقى بحق. ستة أشهر ولم يفهموا كلمة واحدة، وأنا الذي تعلمت لغتهم بسرعة! يا لكم من مشوهين، أيها الأغبياء"...

ثم عاد الصوت مرة أخرى:

- " "ما لو؟" "وا السي أنس"، "كي وليتي ؟" وأنا الذي تعلمت هذه الكلمات، وأنتم لا تعرفون معنى "دابريسكالي"؟ يا لكم من أعجميين تثيرون الشفقة... كل حياتكم تتمحور حول هذه الغرفة التي تشبه غرفة السيدة "ميراي"... كم أشتاق لتلك الأيام التي كنت أسرق منها أغلى ما تملك".

أدركت الآن ما يحدث... بدأت الأمور تتضح. ذكرياتي تبدلت بذكريات شخص آخر، لكن إن كان هذا صحيحًا، فأين ذهبت ذكريات مالك هذا الجسد ؟ كنت في حيرة من أمري، ولم يتبقَ لي سوى حل واحد... أن يحدث تبادل بيني وبين ذلك الشخص الآخر. أنا "أنس"، والشخص الآخر "كالسون."

6

كالسون فالدريك

- " الحمد للّه... واش كاتعقل على سميتك؟ "

تقولها إمرأة بجانبي، لكنني لم أفهم. فتحت فمي باندهاش، أحاول أن أستوعب كلماتها المجهولة. رفعت رأسي وقلت لها باستهزاء:

- " هل أنتي حمقاء؟"

ارتعشت من كلماتي وهربت من الغرفة مسرعة، وهي تردد بصوت متهدج:

- " أنس... أول واحد يطرا ليه بحال هاكا فالعالم".

كلماتها كانت لغزًا بالنسبة لي. تنهدت بعمق، ورحت أتأمل وجهي في المرآة. شعرت بشيء جديد، شيء مختلف. وجهي الجديد... واسمي الجديد "أنس". لم أكن قد سمعت بهذا الاسم من قبل، لكنني أعجبت به.

مرت الأيام ببطء. كنت محبوسًا في هذه الغرفة، وكأنها سجن، لكن الغريب أنني كنت هادئًا. قبل موتي، لم أكن أتحمل الغرف المغلقة، كنت أحتاج إلى الحرية المطلقة. لكن الآن، كأن شيئًا سلب مني، ربما روحي أو إرادتي أو أيضا حريتي.

فجأة، يُدق الباب. يدخل رجل كهل، ذو لحية صغيرة وشعر بدأ بالشيب. نظر إلي وقال شيئًا لم أفهمه:

- " خاسنا نسمعو أش كايقول".

نظرت إليه بحدة وقلت لهم:

- " أنا كالسون، ولست أنس"!

ثم أشرت إلى العجوز بغضب وقلت:

- " أنت أيها الكهل، ماأنت إلا شخص أضل طريقه فأتى هنا! اللعنة عليك حقًا"!

رمقني الرجل بدهشة، لم يتوقع هذا الرد. كنت متأكدًا أن هؤلاء الناس حمقى. البابا في الكنيسة كان أكثر ذكاء منك. فبدأ الرجل يتحدث بلغة غريبة مرة أخرى:

- " شوف أولدي، ما تضحكش علينا. راه انت كبير وأساذ دالرياضيات واخد الدكتورة. هدر معانا مزيان".

ماذا يقول هذا الرجل؟ ألا يفهمونني؟ شعرت بالإحباط. أشرت لهم ليعطوني قلما وورقة، لكنهم كانوا بطيئين في الفهم. حتى أتت فتاة وقارها بِنم على المعرفة، وفي يدها قلم وورقة. أوه... جمالها كان يثير شيئًا في قلبي.

بدأت أرسم لهم ما لا أستطيع قوله. الرسم كان وسيلتي للتعبير، خاصة مع خبرتي في سرقة لوحات النبلاء. كنت أرسم كل شيء، من مطاردتي للذئب، إلى سقوطي من الجبل، وحتى ما حدث بعد ذلك. رسمت ووضعت الأرقام بترتيب منطقي، لكنني كنت متأكدًا أن هؤلاء الحمقى لن يفهموا شيئًا.

لكنها... الحسناء، كانت مختلفة. ركزت على الرسم بطريقة غريبة، وكأنها غارقة في أعماق معانيه. حاولت أن أختبرها، حركت يدي أمام عينيها، لكنها لم تنتبه.

وأخيرًا، بعد أن نظرت في الرسوم مليًا، قالت:

- " على حساب داكشي اللي فهمت من القصة اللي رسمتي... كنت كاتجري وكايتبعك ذيب، أو طحتي ومتتي. ومن بعد جيتي لهنا. فهمني كيفاش وقع هاد الشي".

قالتها بسخرية، وكنت أشعر أنني موضوع سخرية. الحب الذي كان بداخلي تجاهها قد تلاشى. تركتني وغادرت، لكن بعد نصف ساعة عادت. ومعها سلة مليئة بالأوراق والألوان. أرادتني أن أرسم لها، لكن هذه المرة كان طلبها مختلفًا.

خلعت قبعتها، وظهر شعرها الحريري الرمادي. شعرها ذكرني بفاكهة نادرة كنت أسرقها من النبلاء. قالت لي:

- " خاسك ترسم لي كيف كنتي قبل ما تجي لهنا، وكيفاش كاتهدر هاكا، فهمني؟"

فهمت جزءا من طلبها، ولكنني لم أكن مستعدًا لكشف حقيقتي بالكامل. رسمت ما أردته أن تراه، وأضفت لمساتي الخاصة. مرت أربعة أيام حتى انتهت الأوراق، وكانت تراقبني بعناية طوال الوقت.

عندما أكملت الرسم، بدأت تقلب الأوراق، وتفحص كل تفصيل. فجأة رفعت حاجبيها بدهشة. ثم أشارت إلى نفسها وقالت:

- " نـــــــــــــــــــــــــدى".

قلت لها بنفس الطريقة:

- " كالســـــــــون فالدريـــــك".

هذه المرأة، لم تبدُ مستغربة. كانت قد فهمت شيئًا ما. مرت الشهور وبدأت أتعلم لغتهم، واستمرت لقاءاتي مع ندى. كانت هي الوحيدة التي شعرت بأنها تفهمني.

في أحد الأيام، جاءني رجل وكأنه طبيب فبدأ يلقي الشعودة علي لأقول :

- " إن هؤلاء القوم لغريبون بحق. يفهموا كلمة واحدة حتى!، "ما لو؟" "وا السي أنس"، "كي وليتي ؟" وأنا الذي تعلمت هذه الكلمات، وأنتم لا تعرفون معنى "دابريسكالي"؟ يا لكم من أعجميين تثيرون الشفقة... كل حياتكم تتمحور حول هذه الغرفة التي تشبه غرفة السيدة "ميراي"... كم أشتاق لتلك الأيام التي كنت أسرق منها أغلى ما تملك".

فإذ بي أسمع صوتا أعرفه حق المعرفة :

- " هل يعقل أن تكون كالسون؟"

اندهشت، هل هو يتحدث إلي بلغتي؟ تابع وقال:

- " أنت كالسون، أليس كذلك؟ لقد سمعتك تقول شيئًا عن السيدة ميراي".

- " نعم، أنا كالسون، ماذا تقصد؟ هل استوطنت جسدي وأنا سكنت جسدك؟"

رد بضحكة:

- " بالضبط، كان شعرك ناصع البياض وظهرك يملأه وشم كبير ، أليس كذلك؟"

أجبته بغضب:

- " نعم، لكنه بدأ بالإسوداد، وما كان عندي وشم".

قال:

- "لكن... أنا أملك وشمًا برتقالي اللون... على شكل طائر... يدعى الفينيق أو شيء كهذا، وأسفله ما يشبه التـ"...

قبل أن يُكمل، قطعت حديثه بصرخة مذهولة:

- " ماذا قلت!؟ الفينيق!؟ كيف للفينيق أن يستوطن جسدك؟ ماذا قدمت له بحق الجحيم؟"

عيناي اتسعتا من الذعر، وقلبي بدأ ينبضٍ بسرعة جنونية. لكن رده، ردّه كان لا يقل رعبًا، إذ انفجر ضاحكًا بهستيريا غريبة، صدى ضحكته ملأ فؤادي كأنها أصداء تأتي من كائن غير بشري:

- " ههـ... ههـ... لا أدري ما بكم أيها القوم! هذا المشوّه استوطنني أنا؟! ههـ.. أنا سيد نفسي! أنا حر في كل ما أفعله... يا ابن العجمة، كيف تظن أن قرينًا يمكنه التحكم في ما أملكه؟ هاهاها... أنتم مثيرون للشفقة حقا"!

ضحكته اخترقت روحي، وشعرت بأن الأرض تميد تحتي. ألهث محاولًا تجميع أفكاري، لكن عقلي كان عالقًا في دوامة من الرعب. بالكاد تمكنت من نطق الكلمات:

- " لقد... لقد سكنك الفينيق ذو السبعة ذيول يا أنس".

الفصل الثاني

1

أنـــــــــس

تعرفت على كالسون قليلا، وأيضا عرفت أين أنا، دولة تدعى "أماداستينا" لكن.. يا للألم... كل يوم يمضي وكأنني أعيش عذابي مرتين، منذ بُعثت في هذا الجسد المرهق، منذ أن اخترق الفينيق ظهري، ذلك الكائن الأسطوري الذي لا يفترض أن يكون جزءاً من واقعي. أذكر اللحظة التي أحسست بها بدخوله، كان الأمر مفاجئًا، لم أستطع مقاومته. أحاول جاهداً كرهه... لكن ما الذي يمكن فعله أمام تلك اللطافة الساحرة التي ترافق حضوره؟ رغم الألم الذي يتبع نواتي، إلا أنني أجد نفسي أحيانًا مغرماً به، كأنه، لا، إنه رفيق يتقن كيف يحضر معه كل شيء أريده.

منذ لحظة دخوله إلى جسدي، لم أعد أملك السيطرة على أحلامي. بل، هل هي أحلام حقًا؟ أم أنها مجرد ذكريات تعود لتلاحقني؟ تلك الأحلام القديمة التي دفنتها في ركن من عقلي، أحاول أن أدفنها ثانيةً، لكنها ترفض. إنها ليست مجرد صور عابرة، إنها حياة، تفاصيل أعيشها كل ليلة، كما لو أن الماضي يطالبني بحساب لم أكن مستعدًا له.

أرى نفسي... صغيرًا، في عمر العشر سنوات، وها هو جدي اللعين، يظهر مجددًا أمام عينيّ. أراه يعاتب أمي بعنفٍ بارد، وكأنه سيد

العبد الذي يأمر وينهى. إنها... تستجيب له كما كانت تفعل دائمًا. تراه يضربها، ولكنها لم تكن أبدًا تقاوم. استجابت لكل شيء، وهذا ما زرع فيّ كراهية عميقة، كراهية لم أستطع التخلص منها حتى اليوم. كيف يمكنني ألا أكرهها؟ كيف يمكنني ألا أمقت ذلك الذل الذي خيم على كل لحظة من طفولتي؟

في تلك اللحظة، كرهت أمي. نعم، كرهتها لدرجةٍ تفكرني بقتلها. كنت أرى في نفسي تجسيدًا للحرية. إسمي الذي كنت أدعو به نفسي لما كنت صغيرا إنه " أنس جْيودًا " إنها الحرية باليابانية التي نسيتها مع مرور السنوات، أنا روحٌ لا تقبل القيد أو الخضوع. وها هي، أمي التي من المفترض أن تحميني، كانت نموذجًا لكل ما أكره. عبوديتها أمام جدي كانت تدمرني. كرهتها بشدة، تجنبتها، ابتعدت عنها، ولكن هذا لم يكن عنادًا طفوليًا عابرًا. لا، يا رفيقي، لقد كان كرهًا يتسلل إلى أعماق روحي، يترسخ مع كل يوم يمر.

أمي حاولت أن تصلح الأمور في بعض الأحيان. وكأنها تحاول أن تكفر عن ذنوبها تجاهي. لكنها لم تكن تدرك أنها بفعلها هذا كانت تزيد الطين بلة. كانت تسعى وراء إرضاء جدي إلى حدٍ يفوق كل أخلاق. إلى أي درجة يمكن أن يصل شخص ليرضي طمع إنسان آخر؟ كيف يمكنها أن تتخلى عن كل قيمها، عن إنسانيتها، فقط لتنال رضاه؟

لقد تخلت عن أخلاقها، عن كل ما كنت أراه في الإنسان. لقد كانت، في الحقيقة، امرأة تعيسة. أكرهها بحق، أكرهها من كل قلبي. هل سبق لك أن رأيت فتاة ترتكب أفعالاً لا شرعية مع والدها؟ وها هي، كانت متزوجة، وزواجها كان مبني على الحب. ومع ذلك، لم يكن هناك شيء من ذلك الحب في حياتها.

أما أبي... أبي كان الوحيد الذي أحبني حقًا. كنت أراه غارقًا في مأساته، ومرات كثيرة طلبت منه أن يطلقها، أن يخلص نفسه من هذا العار. لكنه أبى. لقد اختار البقاء معها، وكأن حياته كانت مقيدة بسلاسل العبودية. فأراه أمامي ينتحر... رعب تسلل لداخلي، وحزن ممزوج بسعادة... شعور حب وكراهة متجانس لا أعلم كيف ؟، فأتذكر تلك اللحظة في جنازة أبي، جدي جاءني وقال لي بوجهه المتجهم، "إذا انتحرت، فاعلم أنك وصلت أقصى مراحل العبودية". أتذكر كلماته بوضوح، لكن ما كان يثير غضبي حينها هو السؤال الذي ظل يتردد في ذهني: "ماذا عن ابنتك العبدة؟ لماذا لا تعطيها نفس النصيحة!؟"

ثم أستيقظ من الحلم، وأجده هناك بجانبي. نعم، ابتسمت. كان وحشي الكامن في داخلي، حاضرًا كما كان دائمًا. شعرت بشيء من الراحة، وكأنه صديقي الوحيد في هذا العالم الموحش.

قلت له بابتسامة ملؤها الرضا إبتسامة لم أرها في حياتي فرحة وكأنها كأس يُملأ مشاعر طيبة إنني حقا كنت سعيدا في تلك اللحظة :

- " " فوريو "... هكذا سأدعوك الآن. قبل ساعات، كنت أحتقرك لأنك تذكرني بكل ما أردت نسيانه، لكن الآن... الآن أرى فيك الرفيق الذي لم أكن أبحث عنه، لكنني وجدته على أي حال، فاعلم أنني أحـــــــبـــــــك... " فوريو "."

قمت من مكاني وأنا أشعر بجفاف في حلقي، وكأن العالم بأسره يحاول أن يسحب مني آخر قطرة من حياتي. أردت أن أروي عطشي، فتوجهت نحو الماء، لكن شيئًا ما لفت انتباهي. نظرت إلى ملابسي، حتى ملابس رثة يروى عليها أثر المغامرات، لأرى البقع الداكنة المتناثرة عليها. إنها... دماء. نعم، الدماء التي التصقت بشعري

وأغرقت مظهري. تذكرت أن شعري كان مغموراً بالدم، لكن حين دخل "فوريو" إلى جسدي، أحدث عاصفة صغيرة حملت الدم معها بعيداً، هل حل شيء لكالسون قبل إنتقال ذكرياتنا؟

نظرت في الماء، كان يعكس صورتي بشكل مشوش، لكنني لاحظت شيئًا غريبًا... شعري الذي تغيرت حوافه إلى لون برتقالي كالنار لوهلة، وكأن اللهب نفسه قد لمسني. قبل أن أستطيع فهم ما أرى، أحسست بـ"فوريو" مرة أخرى يخترق ظهري. كان حضوره قويًا، يكاد يُفجر حواسي. فجأة، تطورت حاسة نظري، فرأيت كل شيء بوضوح. عينيّ في الماء اللتين تعكسان وجهي، ووجهي الذي يعكس عينيّ، حتى أصبح كل شيء يتداخل في دائرة متكررة لا نهاية لها. ثم، بسرعة البرق، خرج "فوريو" من جسدي مرة أخرى، كأنه لم يكن موجوداً إلا للحظة.

2

عدت إلى واقعي، وتذكرت عادتي القديمة، التي تحولت إلى غريزة. الرياضة، نعم، لا أستطيع العيش بدونها. بدأت بالجري، هرولت، ثم قمت ببعض القرفصاء والحركات الجسدية الأخرى، لأستعيد نفسي. لكن فجأة، قاطعني صوت "كالسون"، ذلك الظل ثانية، لكن المختلف هذه المرة هو إنتقالي لمكان مظلم والصوت ورائي، هيأتي القديمة، كانت في سرير مستشفى، وأنا كنت قرب الاشجار، الأشجار أصبحت أكثر إنارة، حينما أن جهة كالسون – لص جسدي – كانت وكأنها مظلمة، معتمة، فيقول وأنا أراه :

- " هوي... أنس، هل لديك معارف في هذا المكان؟"

رفعت حاجبي وقلت بتهكم:

- "معارف؟ أنا؟ من هذا الوضيع الذي أوهمك أنني بحاجة إلى معارف؟"

ضحكت بسخرية، شعور الغرور كان يتغلغل في داخلي. كيف يمكنني، أنا، أن أحتاج إلى أحد؟ كنت أرى نفسي فوق الجميع، وكأنني محور هذا العالم.

ثم، شعرت بنفس الشعور الذي يتملكني في كل مرة أتحدث فيها مع أحد. كان شعور التكبر يتزايد، وكأنني أسمو فوقهم جميعًا. في البداية، ظننت أن "فوريو" هو السبب، لكن الحقيقة كانت أنني، أنا، كنت السبب. كان ذلك الكبرياء، ذلك الشعور بالتفوق، يشتعل بداخلي كلما فتحت فمي. نظرت إلى "كالسون" وكأنه مجرد حشرة، لا قيمة لها.

رد "كالسون" بنبرة جبانة، كان واضحًا أنه يخشى من رد فعلي:

- "أرجوك، لا تغضب... إذن أنت وحيد هنا، لا تعرف أحدًا، أليس كذلك؟"

ابتسمت بسخرية، وكأنني أتحكم في مصيره بيدي. ثم قلت بلهجة أكثر قسوة:

- "أتظن أنني بحاجة لأحد الأن؟ هل تعتقد أنني مثل هؤلاء الذين يتوسلون لعلاقات ومعارف؟! "فوريو" يكفيني ولست أبتغي أحدا أخر... أنت أكثر حماقة مما توقعت، يا "كالسون"."

أحسست به يختنق قليلاً من ردي، لكنه استجمع شجاعته ليكمل، وكأن لديه طلبات لا يستطيع تأجيلها:

- "لدي بعض المطالب، أنس. أريدك أولاً أن تعلمني هذه اللغة. وثانيًا... أريد نصيحتك، كيف أعترف بحبي لـ'ندى'؟"

هنا، لم أتمالك نفسي. ضحكت ضحكة طويلة، مليئة بالسخرية والاحتقار. نظرت إليه كما لو كان مجرد مزحة سخيفة:

- "هل تعتقد أنني، أنا، سأساعدك في هذا؟ يا لك من أحمق. تعلّم اللغة؟ اعتراف بالحب؟ من تظن نفسك؟ أتيت إلى الشخص الخطأ، أيها الوضيع. أنت حقًا تثير شفقتي".

توقفت لحظة، ثم أضفت بلهجة أكثر استفزازًا:

- "لكنني، مع ذلك، فضولي بشأن هذه 'ندى'. أخبرني، يا ابن العجمة، ما هو شكلها؟ هل هي بهذا القبح الذي أتخيله؟"

كالسون كان يحاول أن يخفي ضحكة مكتومة، لكنه قال بارتباك:

- "إنك مثير للاهتمام، أنس. إنها كالوردة حقا. اسمها 'ندى'."

نظرت إليه بازدراء، وقلت بنبرة تهكمية:

- "ندى، هاه؟ ماذا لو أخبرتك أنني صادفت شخصًا هنا يتهمك بأنك ارتكبت فعلاً شنيعًا مع أخته؟"

توقفت للحظة، مستمتعًا برؤيته يتوتر، ثم تابعت:

- "نعم، يقول أنك قمت بفعل غير شرعي. لقد بدأ يرجمني... كيف تجرؤ؟ هل تظن أنني سأسمح لهذا بالمرور؟ إما أن تشرح الآن، أو سأترك 'فوريو' يمزقك إربًا".

الذعر كان واضحًا في عينيه، لكنه استجمع نفسه بصعوبة وقال بصوت يرتجف:

- "لقد كنت طائشًا في صغري، شعرت بحرية لا حدود لها. لكن مع مرور السنوات، وخاصة عندما بلغت الثالثة والعشرين، بدأت أرى أنني كنت كافرًا، ظالمًا... كنت أحتقر الآخرين".

نظرت إليه باشمئزاز، وكأنني أنظر إلى قذارة عالقة في حذائي. قلت له بنبرة باردة وقاسية، تحرقه أكثر من أي عقاب جسدي:

- "أنت تظن أن ندمك سيكفر عن كل ما فعلت؟ هل تعتقد أن هؤلاء الذين ظلمتهم سيسامحونك؟ يا لك من كائن حقير. أنت لست سوى بيدق، تحركه قوى أكبر منك، وأنت حتى لا تدرك ذلك. تتخيل نفسك محور الكون، لكنك في الحقيقة لا شيء. مجرد دمية تتحرك وفقًا لأهواء الآخرين".

تقدمت نحوه بخطوات بطيئة، حتى وضعت رأسي أمام رأسه، لا يفرق بيننا طول إبهام، عيناي تلتقط كل ذرة من خوفه. ثم قلت بنبرة أكثر حدة:

- "أنت... أنت تتحدث عن ندمك وكأنه خلاصك. لكن الحقيقة هي أن ندمك لن ينفعك. لقد أسأت، ظلمت، ودمرت. لا شيء في العالم يستطيع أن يعيد الأمور إلى نصابها. أنت عبد... عبودية تتحكم فيك، سواء أدركت ذلك أم لا. لو كنت في مسرحية كبيرة، مجرد دور ثانوي لا يلتفت إليه أحد، فستعود إلى منزلك فخوراً لأنك شاركت، لكن في الحقيقة، لن يتذكرك أحد. ولن ينظر إليك أحد في عينيك. لأنك، في النهاية، مجرد بيدق يحركه المجهول".

توقف "كالسون"، وعيناه تملؤهما الدموع. كانت كلماتي تلاحقه كظل ثقيل، وكأنها تجره إلى قاع مظلم لا نهاية له. بكى بمرارة، وارتجفت شفتيه وهو يقول بصوت يخنقه الندم... تفوه بكلمة كانت ما أبحث عنه في هيئتي " أنس " لكنني وجدتها :

- "إذن... ماذا أفـــــــعـــــــــل؟"

جملته هذه... تشير من بعيد على سؤال " ماذا ؟ " لكن السؤال الحقيقي هو " أين ؟ " أين أجد ذلك الذي أستند عليه، وهذا ماعلمني إياه " فوريو " إنه قريني الذي يكمن داخلي...

3

في تلك اللحظة التي عدت فيها إلى الواقع، أدركت أن الجوع يعصف بي بشكل لا يُطاق، وكأن أحشائي تنكمش طلباً للطعام. لكن الألم لم يكن جسديًا فقط. شعرت بحزن غامض، وكأن شيئًا يسري في داخلي ليس من نفسي. استجمعت شجاعتي وسألت "فوريو"، الذي يشارك جسدي، عن سبب قلقه. وكأنه كان ينتظر سؤالي، فجأة استجاب بطريقة غير متوقعة، قذف في ذهني صورة أخرى، ليست مجرد صورة، بل كانت مشهدًا حيًا، وكأنني أعيش ذكرياتي مرة أخرى.

في ذلك المشهد، كنت أرى نفسي في المواجهة التي جرت مع "كالسون". استعدت التفاصيل بدقة، كل كلمة، كل حركة، كل نظرة، حتى التغيرات الدقيقة في وجهي وشعري. وما أثار فزعي هو رؤية أطراف شعري التي تحولت إلى اللون الأحمر القاني، كأن الغضب الذي عشته أثناء المواجهة مع "كالسون" اشتعل من داخلي وحرق أجزاء من نفسي. شعرت بالغضب يعود إلي، لكن هذه المرة، لم يكن موجهاً إلى "كالسون"، بل إلى نفسي. كيف سمحت لنفسي بأن أكون بهذه القسوة؟

في تلك اللحظة، شعرت بعقلي ينقسم إلى نصفين. نصف يحثني على أن أعتذر لـ"كالسون"، أن أصلح ما أفسدته بغروري وتكبري. أما النصف الآخر، فقد كان يريد أن أزيد الطين بلة، أن أستمر في مسار الغضب والعنف، حتى لو كان ذلك يعني تدمير علاقتي به إلى الأبد. ولكن هناك شيء أعمق كان يجول في ذهني... أطراف شعري التي تغير لونها لم تكن مجرد تفاعل مع الموقف. إنها كانت تحذيراً.

تحذيرًا من أن هناك قوانين تحكم هذا العالم الذي أعيش فيه الآن، قوانين لا أفهمها بالكامل بعد.

إذا كانت هذه القوانين موجودة، فهذا يعني وجود نظام. وكل نظام له قواعد، وكل مخالفة لهذه القواعد لها عقوبات. وها أنا الآن، في مفترق طرق. إما أن أتعلم كيف أتحكم في المشاعر المتضاربة بداخلي، أو أن أسمح لهذا الغرور بالسيطرة عليّ، مما سيؤدي إلى نتائج لا أستطيع حتى تخيلها.

أظن أنني وجدت فرضية قد تكون صحيحة... لكني في نفس الوقت كنت مدركًا تمامًا أن هناك جزءًا من هذه العلاقة لم أفهمها بعد. "فوريو" لم يكن مجرد كيان داخلي يعيش معي. كان يحمل سرًا أكبر، سرًا لا يتعلق فقط بجسدي أو بأحلامي، بل بحياتي بأكملها.

ما إن بدأت أتحدث مع كالسون لأسأله عن بعض الطعام، حتى فوجئت بردة فعله. كان يتحدث بحماس غريب، وكأنه لم يكن غاضبًا مني قبل دقائق، وكأننا لم نتشاجر أبدًا. هذا الشخص حقًا يثير الحيرة، لقد كان تصرفه وكأنه من عالم آخر، عالم لا ينتمي لهذا المكان.

بصوت مليء بالحماس الذي لم أفهم مصدره، قال لي:

- "أنس! لقد رأيتك في الغابة! وكأنني أطير من الأعلى! لقد كنت هناك حقًا، وكان معك الفينيق. إنه مذهل حقا"!

في تلك اللحظة، أردت صرفه عني بكبرياء ثانية لكنني تذكرت ما رأيته، فحاولت السيطرة على مشاعري المتخبطة. لقد كان من الصعب عليّ ألا أظهر الاضطراب الذي شعرت به. أخذت نفسًا عميقًا وحاولت التحدث بحذر:

- "نعم، نعم، لكن الآن يا كالسون، أريد فقط أن أسألك عن بعض الطعام؟"

لكنه لم يتركني أكمل جملتي. قاطعني بنبرة متعجرفة، وكأنه يتعمد إغاظتي:

- "ومن أنت لتسألني، أيها الوضيع؟... ههه، أمزح فقط! في الحقيقة، لا أدري. عليك أن تدبّر أمرك بنفسك".

يا له من شخص مستفز! كانت كلماته تثير غضبي، لكنني حاولت جاهدًا كتمان هذا الشعور. أطلقت تنهيدة ثقيلة، وكأنني أحاول التخلص من الغضب الذي اشتعل داخلي. في تلك اللحظة، رأيت سنجابًا يتحرك بالقرب مني، فخطرت لي فكرة سريعة. قررت أن أرسل "فوريو" نحوه. وبينما كنت أفكر بذلك، رأيت كيف تحرك "فوريو" بسرعة خرافية، وكأنني أشاهد مشهدًا من فيلم فانتازيا. فرد جناحيه بقوة، والتقت عيناه بنظرة حادة تشتعل جمراً، قبل أن ينقض على السنجاب بسرعة تفوق التصور.

يا إلهي! لم أكن أعتقد أن فوريو بهذا القدر من القوة. لقد تملكني شعور مزيج بين الذهول والرهبة.

بينما كنت ما زلت في حالة ذهول من سرعة فوريو، تذكرت فجأة الحوار الذي كان بيني وبين كالسون. نظرت نحوه وقلت له بلهجة مفعمة بالدهشة:

- "ماذا؟ تستطيع رؤيتي؟ كيف فعلت ذلك؟ هل يمكنني فعلها أيضًا؟"

لكنه رد عليّ بسخرية مستفزة:

- "أخيرًا أدركت وجودي، أليس كذلك؟ أظن أنك تستطيع فعلها أيضًا، لكن فقط عليك أن تضع يديك على فخذيك وتجثو على ركبتيك".

حدقت فيه بدهشة واستغراب، محاولًا فهم ما كان يقوله:

- "هوي... ماذا تقول؟ أضع يدي على فخذي وأجلس على ركبتي؟ هذا غير معقول! ما هذا الهراء؟"

ابتسم لي مجددًا، وكأنه يستمتع بإرباكي:

- "لا أدري، لقد رأيت ندى تفعل ذلك عندما زارتني مرة، وبدأت تتحدث بكلمات غريبة لا تشبه لغتكم. فغدوت أفعل مثلها كلما زارتني، وأيضا ألم تقل أنك ستعلمني لغتكم؟"

استدركت الموقف سريعًا وقلت له:

- "ندى؟ هل كانت عيناها صغيرتين وشعرها أسود حريري؟"

رد عليّ قائلاً بنبرة جادة لأول مرة:

- "نعم، عيناها ليستا واسعتين، وشعرها رمادي حريري".

نظرت في السنجاب بتفكر وقلت له:

- "إذن هي إما يابانية أو صينية. على كل حال، سأعلّمك لغتنا لاحقاً".

كنت على وشك إكمال كلامي، لكن كالسون قاطعني فجأة باللهجة المغربية، وكأنه شخص آخر تمامًا:

- " هل هكذا تتكلمون؟ فجأة، انفجرت المعلومات في عقلي ولا أدري ما الذي يجري. لكن هناك شيء سيء، صور متحركة وكأنها أحلام

أبصرها... أرى طفلاً صغيرًا ذو شعر أبيض، وعلى جسده وشم الوزير، رمز الفينيق. أمه كانت تحمله، وشعرها البرتقالي كاللهب".

شعرت بالصدمة من تفاصيل وصفه. كان الأمر غير متوقع تمامًا. نظرت إليه مليئًا بالتساؤلات وقلت له:

- " هوي... ألا تعتقد أن هذا الطفل ربما يكون أنت عندما كنت صغيراً؟ وأيضًا، أليس شعر أمه البرتقالي رمزًا لفوريو؟ كيف لفوريو أن يعطيك هذه المعلومات؟ بالمناسبة، لقد اكتشفت معلومات لا أظنك تعرفها عن الفينيق، وربما علينا أن نتشارك المعلومات، لقد بدأت شخصيتك تعجبني".

كنت على وشك أن أنهي جملتي بطريقة أكثر سخرية، لكنني تمكنت من التحكم في مشاعري في اللحظة الأخيرة، محاولًا الحفاظ على هدوئي، فشخصيته لم تنل إعجابي أو شيئا من هذا القبيل.

قال لي كالسون بتنهيدة ثقيلة، وكأنه أخرج كل ما كان يحمله من هموم دفينة:

- "دعنا من هذا الآن... افعل ما طلبته منك، إجثُ على ركبتيك ثم ضع يديك فوق فخذيك."

تحدث بنبرة جادة وكأنه يطبق بنفسه ما كان يقوله، ثم أردف:

- "فينيكسو وا شينو كوتو أو كيوهي سورو".

لقد صُدمت حقًا، مع أنني نسيت الكثير من اللغة اليابانية، إلا أن هذه الجملة ما زالت محفورة بعمق في ذاكرتي، "الفينيق متحد مماته." إنها جزء من تقاليد ذلك الجد اللعين وابنته. لطالما كانا يرددان هذه العبارة في وضعية "سيزا" . ولقد أخبرت كالسون أن تلك ندى تبدو يابانية أو صينية، لسببين رئيسيين: الأول هو أن تلك

الوضعية نادرة ولا ترى عند المغاربة، والثاني هو عينيها الضيقتين، التي تذكّرني بملامح شعوب الشرق الأقصى.

لكنني فجأة شعرت بشيء آخر يتسلل إلى عقلي. أيمكن أن تكون...؟! اتسعت عيناي، وقلبي بدأ ينبض بسرعة جنونية. لم أستطع كبح الفزع الذي تملكني، فقلت لكالسون بارتباك واضح:

- "تلك الطقوس بشكل عام ليست متوفرة عند المغاربة... ثم... عينها الضيقة... هل يعقل أنها إنتقلت للمغرب مؤخراً؟"

لكني لم أتمالك نفسي فجأة، مشاعري انفجرت كالبركان، وصوتي خرج أكثر غرورا وكبرياء مما كنت أتوقع:

- "هوي! أيها القذر... اذهب واسأل تلك العاهرة عن كنيتها، وإلا سأقتلع رأسك بيدي"!

تفاجأ كالسون بتغير مزاجي السريع، لكن لم يبدو عليه الخوف:

- "ما بالك؟ لماذا هذا التغيير المفاجئ؟ لكن، في نهاية المطاف، تظل لصّ جسدي... أتعني الاسم العائلي؟"

تنهيدة طويلة خرجت مني، وكأنها تخلصت من معظم ثقل صدري. عدت إلى هدوئي قليلاً وقلت:

- "آسف، كالسون. هناك شيء أكبر يدور في داخلي الآن. لنتحدث عن هذا الموضوع في مكان آخر".

نظر إلي مستفسراً:

- "أي مكان تقصد؟"

قبل أن أجيبه، شعرت بـ "فوريو" يعود إلى جسدي فجأة، كما لو أنه كان ينتظر تلك اللحظة بالضبط. لم أكن بحاجة لطلبه، فقد تسلل

داخلي مجدداً، ورمى في ذهني رؤية جديدة. صورة من حلم آخر. هذه المرة، كانت فتاة صغيرة، لا يتجاوز عمرها السبع أو الثماني سنوات، بشعر قصير رمادي. لم أعرها اهتماماً، لكن ما شدني هو التغير الحاصل في داخلي، دخلت إلى ذلك العالم، عالم المجهول. المعلومات تدفقت في رأسي ثانية، تحمل معها حقيقة جديدة.

أبصر، جسدي القديم. رأيته مجدداً، لكن هذه المرة كان كالسون هو الجالس في السرير، بوضعية "أغورا"، وهي تربيع الساقين كما يفعلون في التأمل. لم أستطع منع نفسي من ابتسامة خائنة ارتسمت على وجهي، ثم نظرت إليه بعمق، وكأنني أكبح انفجار الكبرياء داخلي، وقلت بصوت هادئ محاولًا أن أتحكم في مشاعري :

- " لدي بعض المواضيع التي سنتحدث عنها، لذا جهز نفسك "

ردَّ بعفوية وسخرية:

أنا جاهز... بطريقة قد تصيبك بالغثيان! أمزح بالطبع"...

يا له من شخص! أحاول جاهداً ألا أفكر بسلبية تجاهه، لكن يبدو أنه يتعمد إغاظتي، فقاطعته بلهجة مملة وهادئة، وكأنني أتجاهله عن عمد:

- "حسنًا، حسنًا... فهمت".

ثم توقفت لحظة، وأضفت:

- "أولًا، سأكشف لك شيئًا من ماضي. قد تستغرب، بل ربما تفتح فمك من الدهشة. أنا لست كالبشر الآخرين. ماضيّ مزيج غريبٍ بين الحب والكراهية، كلمتان لا يجتمعان، لكنني عشتهما معاً. لذا استعد، فقد تجد نفسك مضطراً للبكاء... إذا كان لديك قلب على الأقل".

نظر إليّ بنظرة توحي بالتشويق والانتظار، وكأنه يطالبني بإكمال حديثي. رمقني بتلك النظرة الصامتة التي فهمتها وكأنها تقول: "تابع"...

ابتسمت، لكن وراء تلك الابتسامة كان هناك حزن دفين، وقلت ببطء مكملا حديثي :

- "يا كالســـــــون"...

كانت تلك الكلمة ثقيلة في نطقها، وكأنني أحاول أن أختار مفرداتي بعناية. ثم تابعت :....

4

كالسون فالدريك

صنع أنس كرسيًا من الدخان وجلس عليه، لم أتمكن من فهم كيف تحقق هذا المشهد الغريب. لكنه جلس بطريقة تنم عن جديته العميقة. شبك أصابعه ووضعها تحت ذقنه، ثم أسند مرفقيه إلى فخذيه. كانت جلسته صارمة للغاية، كأنها دعوة إلى عالم لا يُفهم أصله ولا مآله. شعرت بشيء من الرعب في حضوره، وكأنني أمام شيء أكبر مما أستطيع استيعابه.

ثم تكلم بصوت هادئ لكنه مشحون بالغموض:

- "أنا ولدت في اليابان وهي دولة في الشرق أعينهم ضيقة وشعرهم رطب كأنه حرير، أبي وأمي وزواجهم كان حبا بمعنى الكلمة، أبي المغربي وأمي البريطانية، إنتقلوا إلى اليابان وذلك قبل تسع وعشرين سنة، فأنا الأن في الثامنة والعشرين... عشنا حقا كطيور للجنة أحرار لا يملكنا أحد، وعلاقة والداي كانت كعلاقة إخوين محملين بطاقة الحب، كان نِعم الزواج حقا... لكنها رواية، رواية تحمل خاتمة، إما إجابية أو سلبية لكن المجهول إختار أسوء قرار، المجهول الذي يحرك جل الناس في هذا إلا أنا، يأخذهم فيضعهم في مكان أخر، كأنما هم بيادق الشطرج...، منذ رأيت ذلك المخلوق رجل كهل في منتصف الستينات، إلى أن قيل لي أنه جدي، إنه والد أمي...، هناك أشياء تفاصيل أخرى لكنني لن أطرقك عليها فلا زلت لا أثق بك"

توقفت عيناه عليَّ فجأة بنظرة جادة، شعرت بأنه لا يزال يراني شخصًا ثانويًا في حياته. كبتُّ مشاعري محاولًا أن أظل هادئًا، لكنني لم أستطع منع نفسي من الرد بنبرة جادة، وكأنني قاضٍ ينطق بحكم قاسي:

- "إن لم يكن ذلك مهماً، فلا حاجة لماضيك."

ابتسم أنس بمرارة وأكمل حديثه:

- "إذاً، لا حاجة لك في ذلك... سأكمل. عندما بلغت الخمس سنوات، بدأت ألاحظ جدي وأمي يقومان بطقوس غريبة. كانا يجثوان على ركبتيهما ويضعان أيديهما على فخذيهما، وهي وضعية معروفة في اليابان. كانا يكرران جملة لم أفهمها آنذاك، لكنها كانت محفورة في عقلي. كنت معجبًا بجارتنا 'تامايو'. كانت بشعرها الأسود الحريري، مع أنها يابانية، لكنها لم تكن تشبه أولئك الخجولين الذين قد لا يردون عليك عندما تسألهم. كانت فتاة مختلفة تماماً، رغم عيونها الضيقة التي تشير إلى يابانيتها، إلا أنها لم تكن تشبههم في أي شيء".

كنت أطأطأ رأسي كلما تحدث أنس لكنني رفعت رأسي لوهلة وأصدم!، يا لوجهه... وجه حزين لم يسبق أن رأيته، إنه ليس وجه من يفقد والديه أو فتاته، إنه وجه أكثر ظلمة، وجه حالك كالظلام، ككأس تصبه بالشجن والغم إلى أن يفيض، حقا مابال ماضيك هذا يا أنس؟... كانِ يريد أن يكمل كلامه لكنه قام من الكرسي، فيتحرك قليلا ليختفي مَجلِسه، فإذ به يتمشى كأستاذ يشرح الدرس يتمشى مسافة بخطوات بطيئة فتنطلق هالة، هالة تسقي ورودا فتذبلها، إن هذا العالم يجسد مانتخيله، يجسده كأنه حقيقي، إنه عالم منذ دخلته، عرفت إسمه، إنه عالم المجهول... فأراه يطوف على نفسه

بعد تمشيه لخطوات بطيئة، فتلتقي عينانا لأشتت إنتباهي كأنما لم أكن أراه، فيقول بطريقة، طريقة كأنها مزيج بين الكبرياء والحزن:

- " لقد كانت، كانت كمنظر الشروق في الأفق، إن تلك الجميلة لا تستحق أن تُقال من وضيع مثلي، كيف؟ كيف أستطيع وصفها؟ أصفها ؟ ههـ... ههـ.. أنا، أتظن يا "جيودا" أنك مناسب لتلك الملاك؟ إنك مثير للشفقة كلما بدأت تصف حقيقة تلك الفتاة... "

إن أنس دخل في حالة من الأنفصام، لا يعرف ما إن كان شخصا سيئا أو لا... فأراه يقوم بذلك الوجه، فيقف ويميل ظهره للوراء ويرفع رأسه، يشير إلى ويرمقني ينظرة لا مبالاة، تتناسب مع شخصيته المتكبرة حقا، قزحيته في أدنى عينيه، اللتان تحولتا للّون الناري لوهلة، وتظهر كبرياء وحزن، فيخرج الوحش الذي بداخله، الفينيق ذو السبعة ذيول يتجسد على شكلي القديم بلون أحمر قاني، مخلوق كبير يسع عالم المجهول، يطلق بخار، لا أدري مصدره بخار برتقالي وكأنه نار، فأعرف في تلك اللحظة أن أنس هو من إستوطن الفينيق، ليقول أنس بعد ذلك :

- " إخرس، لا تنبس ببنت شفة... سأكمل حديثي عن تلك الجميلة فقط، لا تقاطعني أيها الوضيـ.. "

فقاطعت حديثه بابتسامة، محاولًا تغيير الجو الكئيب:

- "هوي... أتظن أنني سأدعك تغرق في الاكتئاب هكذا دون أن أفعل شيئًا؟ ألم تقول أنك وجدت قرينك الذي تستند عليه؟ إذا أتريده أن يبقى ساكنا كالجماد، فتجعله كالكلب يصطاد لك فقط، مع أنني فضولي بشأن من أسرت قلبك، إلا أنني لا أريد أن أستمع لشخص لصّ جسدي يقول كلاما فيتألم بهذه الطريقة."

فأضفت وأنا أقول بصوت عالي محاولا نصحه :

- " إنضج يا أنس فأنت ذو ثمان وعشرون سنة يا رجل، فكلما نضج الشخص إرتقى لمدارج الوعي "

رأيت أنس وكأن وجهه قد تحوّلٍ إلى لوحة فنية غريبة، رسمت عليها تفاصيل شاب. كان شعره أبيضًا ناصعًا، يتوهج تحت الضوء الخافت المحيط بنا، وكأنه يعكس برودة العالم الذي نعيشٍ فيه. وجهه كان متناسقًا بشكل غريب، أنفه صغير وفمه يكبره قليلاً، وكأن التناقض بين ملامحه يعكس شيئًا أعمق في نفسه. كانت أذناه، رغم صغرهما، فهما تستمعان إلى أصوات غير مسموعة لنا، وكأنهما التقطتا كل همسة، كل صوت في هذا الكون الغريب.

سرقت نظراته للحظات، فشعرت بتيار غريب يجتاحني. ثم حدث شيء غير متوقع. رأيت دمعة تسقط من عينه الرمادية، لكنها لم تكن دمعة عادية؛ كانت دمعة دموية. لونها أحمر قانٍ، وكأنها تجسد الألم المكبوت داخله. عينه التي تحولت للحظة إلى حمراء، كشعلة نار تشتعل من عمق روحه. كانت تلك الدمعة تروي شيئًا، شيئًا لم يقله بصوت، لكنها تحدثت عن جروح قديمة وذكريات محفورة في كيانه.

أردت مساعدته بعد أن أحسستٍ بالخوف والاندهاش في آنٍ واحد. كيف يمكن لشخص أن يبكي دمًا؟ لكن تذكرت أنني لست في عالم عادي. هذا هو عالم المجهول، حيث كل شيء خيال يتجسد، وحيث لا شيء مستحيل.

بينما كان يبكي، قال بصوت مخنوق، بين الشهيق والنشيج:

- "إنك... تختار... الكلمات... الصحيحة... أيها...، أيها... الوضيع".

كان صوته يختلط بين الألم والسخرية، بين الحزن والاعتراف أضمن بأن كلماتي لامست شيئًا عميقًا فيه. حاولت أن أخفف من الجو الثقيل، فابتسمت بسخرية خفيفة وقلت:

- "هه... هه... لقد غدوت بكاءًا يا أنس. وأيضًا، لقد مللت من هذه الجلسة المظلمة، لنكمل حديثنا غدًا".

فمسح أنس دموعه، وابتسم بتكلف، محاولًا إظهار الغرور:

- "إنك مضحك أيها الوضيع، وأيضًا، كيف عرفت أن لدي من أستند عليه؟"

- "لقد ملأني الفينيق، أو فوريو كما تسميه، بمعرفة ما كنت تفكر فيه حينها".

- "إذن يبقى في الكواليس".

- "الكواليس؟ هل هي نوع من الطعام؟"

- "إنك غبي حقًا... ههـــ"..

- "نعم، من الجلي أن أكون غبيًا، فقد كنت أهرب من المدرسة".

فرمقني أنس بنظرة اشمئزاز:

- "كما هو متوقع من حثالة كان يعذب الضعفاء. إذن، إلى اللقاء".

قالها بابتسامة ساخرة، فأجبته:

- "أجل، إلى اللقاء".

أثناء حديثه، أدركت أنني أتمنى حقًا أن أصبح صديقًا له. وبينما كنت أفكر في ذلك، اقترب مني فجأة وضربني في ظهري بيده المسطحة، وكأنه قرأ أفكاري:

- "إنك صديقي الأول بعد فوريو الذي أخبرني بأفكارك".

تعجبت حقًا، فقلت مزحة مملة كالعادة:

- " إنه فوريو القوي"...

رد فعله كان مزيجًا من الاشمئزاز والتعبير عن ضجره. وفجأة، عدت إلى الواقع، مشوشًا. شعرت وكأن الزمن يتوقف كلما دخلت إلى عالم المجهول، إنه حقًا مكان غريب...

5

ما إن عدت إلى واقعي، حاولت الوقوف لأحرك جسدي، لكن شعرت وكأنه مشلول بالكامل. جسد أنس مشلول؟ لكن، لحظة، لماذا أنا في سرير منذ البداية؟ أيعقل أن يكون أنس قد مات أيضًا قبل أن تتغير أجسادنا؟ ممم... شعرت بالحيرة، هل علي أن أسأله الآن أم أنتظر للغد؟

بينما كنت غارقًا في أفكاري، فجأة اقتحمت ندى الغرفة بسرعة وكأنها تداهم منزل نبيل. باب الغرفة اصطدم بالجدار بقوة، صوتها ملأ المكان بالحماس وهي تقول بلهجتها المغربية:

- "لقد أصبحت طبيبة رسمية! لم أعد ممرضة بعد الآن"!

كلماتها كانت مشبعة بالفخر، وأستطيع أن أرى بريق الفرح في عينيها. عندها فقط أدركت حقيقة المكان الذي أنا فيه. تحسست الحائط المجاور، ونظرت حولي. المستشفى. إذًا، هذا مكانٌ مستشفى. أخذت نفسًا عميقًا وأجبتها بلهجتها:

- "إذًا، هذا المكان مستشفى؟ منطقي قليلًا، وأنت طبيبة الآن"...

توقفت فجأة عن الحديث حين رأيت تعابير وجهها تتغير بسرعة. ارتسمت على وجهها علامة دهشة كبيرة، وكأنها لم تصدق ما سمعت. نظرت إليّ بعينيها الواسعتين وسألت بلهفة:

- "كيف؟ كيف تستطيع التحدث بلغتنا؟ أيعقل أن تكون ذاكرتك عادت؟"

رفعت نظري إليها، محاولًا التمسك بشيء من الهدوء رغم ارتباكي. نظراتها كانت مليئة بالدهشة والغضب في آنٍ واحد. كان هناك بريق دموع في عينيها، مما أدهشني أكثر. "ندى... لماذا تبكين؟" فكرت في نفسي.

هل هذه الدموع بسبب فرحها أم حزن؟ هل هو قلق؟ أو ربما... ألم تقع في حبي؟ ضحكت داخليًا على تلك الفكرة السخيفة، فأنا لا أعتقد أنني الشخص الذي يثير مشاعر الحب في الآخرين.

لكن قبل أن أتمكن من الاسترسال في أفكاري، فاجأتني بتغيير حاد في سلوكها. نظراتها أصبحت حادة وكأنها تريد قتلي. تلك النظرة، تشبه كثيرًا نظرة أنس عندما كان غاضبًا. تقوست شفتيها في حزن مدقع، وهي تتقدم نحوي بخطوات بطيئة... لكن فجأة عادت أدراجها، وخرجت من الباب بخطوات سريعة ما إن أردت أن أناديها حتى ذهبت...

6

القدر

عالم المجهول الذي يعج بالأسرار التي تفوق التصور، ذلك العالم الذي يوقف الزمن بمجرد دخول أنس وكالسون إليه، حيث يتلاشى تزامن اللحظات بين أماداستينا والمغرب. لكن المفاجأة الأكبر كانت عندما تواصل أنس وكالسون دون أن يدخلا عالم المجهول، فكان لذلك تأثير غريب، إذ تباطأ الزمن في المغرب ليصبح كأنه الزمن في أماداستينا...

ومع خروج أنس من عالم المجهول، ظهر فوريو من جسده، ليجدوا السنجاب في مكانه، كأن الساعات التي قضوها في عالم المجهول لم تكن سوى لحظة خاطفة.

كان هذا التأكيد النهائي لأنس بأن ذلك العالم يحبس الزمن فعلاً. وبعدها قررا أن يبحثا عن أحطاب لإشعال النار. لكن فوريو أشعل شجرة ناراً، فكادت أن تسقط على أنس، لكن في لحظة خاطفة، حرك فوريو جناحيه بقوة ليخلق عاصفة هائلة، ترفع معها الشجرة بلهبها وكل شيء من حولها.

إبتسم أنس وقال :

- " أنت تبهرني كلما أريتني قوتك، لكنك بالغت قليلا "

فابتسم فوريو في الهواء وبدأ يطير محلقاً، مراقباً المكان من الأعلى، فيما نظر أنس إليه بعينين مليئتين بالغيرة. كانت تلك الغيرة تمزق

داخله، الغيرةِ التي لا تعرف الفرق بين الصديق ولا الحبيب. ولكن، كما هو دائماً، تمكّن أنس من كبح مشاعره بسرعة.

عاد فوريو فجأة إلى الأرض، مطأطأ رأسه وكأنه يدعو أنس ليركب فوقه. لكن فكرة أكثر إثارة خطرت ببال "أنس" في تلك اللحظة. أشار "لفوريو" ليدخل جسده، فبدأ يركز حواسه بأقصى طاقته ويضغط على عضلاته بقوة. في تلك اللحظة، كانت شمس الشروق تغمر المكان بضياء ذهبي دافئ، ما زاد من جمال المشهد وروحانيته.

وفجأة، بدأ شعر أنس يتحول إلى اللون الأحمر القاني، ثم ازداد غمقاً حتى أصبح كلون الدم، يشبه سواد الليل الممزوج بالنار. ظهرت على ظهره جناحان ضخمان، ومعهما سبعة ذيول حمراء مغطاة بالريش. وأيضا بدأ يتكون منقار أحمر في فم أنس، بدا التحول مذهلاً، إنه حقا يعكس مصير اليوم وتحوله...

بتلويحة واحدة من جناحيه، ارتفع أنس في السماء مسافة مائتي متر في لحظة أوه... يا إلهي !، وكأن قوته لم تعرف حدوداً. كاميرا الدرون تتبعه من الخلف، فتلتقط الجبال والسهول، وديان وأنهار... مناظر تفتحت مع شروق الشمس، تسجل كل حركة يقوم بها كما لو كانت كلبًا يتبع صاحبه بحماس. فتقترب الدرون تانية فتصورٍ لحظة طيران أنس في مواجهة شروق الشمس، لكن جبلاً ضخماً قطع المشهد وأفسد اللقطة المثالية.

لكن هذا لم يكن كل شيء. فجأة، بدأت الأجنحة العملاقة تتقلص وكأنها تحترق، والشعر الأحمر القاني عاد إلى لونه الأبيض بسرعة لا تصدق. أدرك فوريو الموقف في اللحظة الأخيرة، وخرج من جسد أنس ليحمله مجدداً. لكن عندما اقتربوا من الأرض بمسافة ستة أمتار فقط، بدأ فوريو يحرك جسده وكأنه يتعمد إسقاط أنس.

سقط أنس فجأة، فشعر بالخيانة للحظة، وتساءل في ذهنه:"هل يمكن أن يخونني "فوريو"؟" لكنه كان يعلم في داخله أن هذا لا يمكن أن يحدث. الدرون كانت ما زالت تلتقط المشاهد، لتسجل لحظة سقوط أنس الحتمي، محصوراً بين السماء والغابة. صوت ضغطة، ضغطة كاميرا تصور مشهدا خرافيا، شروق الشمس الذي يحجبه جبل، لكن إضائة الشروق لا تزال تُعطي معناها، ويطير الفينيق مرفرفا جنايحه، وأسفله الغابة والأشجار، لكن ما يقبع بينهما كان أنس الذي لم يستوعب الأمر، فأخذ يرفع يديه معبرا عن شجو لم يسبق له مثيل...

لكن الأسوأ لم يكن السقوط نفسه، بل ما تلاه. إذ سقط أنس في عربة عسكرية خشبية، تحطم سقف العربة بالكامل تحت جسده. وكان هذا الحدث كارثة أكبر مما توقع، لأن صاحب العربة لم يكن شخصًا عاديًا، بل كان الداهية، الرجل ذو الذكاء الخارق الذي لا يرحم، "الفيل كورفيستد"

الفصل الثالث

1

نـــــــدى

- " إنها حقا، عبدة لأختها، لكن كيف لها أن تتخلا عن أخلاقها لجمع بعض القروش فقط... أتَدّعِين أنك ستجمعين أربعين مليون دولار لعلاج أختك، أعرف أنك مضطرة لكن أنت أصبحت عبدة للمال، ذلك المال الذي سيحرر سجن أختك من المرض، إذن أليست حالة تبادل... تضحين بحرية لتحرير عبودية... حقا، أنتم البشر كائنات مثيرة للشفقة حقاَ... إن كنت لا تستحيين فافعلي ما شئت يا عبدة المال... لكن لو إقتربت من " جيودا " سترين الجحيم بأم عينيك... "

ما هذا الكابوس... أنا أدعى "هيناتا فينيكسو"، ولكن منذ أن وطأت قدماي أرض المغرب، قررت أن أترك الماضي وراء ظهري. اخترت لنفسي اسماً جديداً، "ندى". ندى، ببساطة. لا أحد هنا يعرفني سوى بهذا الاسم. كان اختياري، وهذا يمنحني شعوراً غريباً بالتحرر. عندما تختار لنفسك اسمك، تشعر وكأنك تكتب قصة جديدة، تحرك يديك الممسكة بقلم الحبر، لتحكي حكاية نفسك، بنفسك...

لكن، على النقيض من هذه الحرية المتخيلة، هناك ألم لا يمكن أن ينسى، وجزء من الماضي لا يمكن الهروب منه... أختي، أختي التي تكبرني بعام واحد فقط، مصابة بمرض "هنتنغتون". لقد اكتشفنا هذا المرض العصبي الذي التهم شبابها منذ أن كانت في السابعة من عمرها. كل شيء تغير بعد ذلك اليوم. كانت حيوية، مليئة

بالأحلام، قبل أن يسلبها المرض كل شيء. والآن، هي طريحة الفراش، صامتة، معلقة بين الحياة والموت، والواقع أكثر قسوة مما يمكن تخيله.

لقد فعلت كل ما بوسعي لجمع المال لعلاجها، حتى أصبح ذلك هاجسي الوحيد. عملت في وظائف لا تحصى، تكبدت المشاق، وواجهت العزلة. في هذا العالم القاسي، لا أحد يبالي بأخت وأختها، أو أم وابنها، أو أخ وأخيه. إنه عالم مليء باللامبالاة، يغرقنا في ظلم لا نهاية له. كل يوم أواجه هذا الظلم في عيون الناس الذين يعبرونني بلا اكتراث، في الأنظمة التي تغلق أبوابها أمامنا، وفي نظرات الشفقة التي لا نحتاجها.

لقد كنت أراقبها يوماً بعد يوم وهي تتلاشى أمام عيني. حياتها التي كانت يوماً نابضة بالحياة، أصبحت الآن مجرد ذكريات. مرض هنتنغتون ليس فقط مرضًا جسديًا، بل هو كابوس يلتهم الروح. وبينما هي ممددة هناك، عاجزة عن الكلام، عاجزة عن الحركة، أشعر بضعف هائل يتغلغل في قلبي. لقد خسرتها، رغم أنها ما زالت على قيد الحياة.

لكنني لن أستسلم. اسمي ندى، واخترته لأنني أريد أن أكون مثل الندى الذي يتجدد كل صباح، رغم كل شيء.

مرت ثمان سنوات حتى أتاني رجل ذو ملابس سوداء، يرتدي نظارات سوداء و شعر حالك... فقال لي :

- " ما رأيك بقتل أحد... ؟ "

رمقته بنظرة خوف وإستغراب، لكن حينما هممت بالقيام من كرسي المقهى، قال بصوت هادئ وواثق :

- " لا تنظري إلي بهذه النظرات، فأنا أريد مساعدة أختك... "

تجمدت مكاني من الصدمة وقلت دون أن أتحكم بنفسي:

- " سأقتل هذا العالم من أجل أختي فقط ، لذا أخبرني ما علي فعله"

أخرج من جيب معطفه بطاقة، فأعطاها لي، وهو يقول :

- " كما هو متوقع من المغرمة بأختها... إذا لنتقابل في... "

إنها تحتوي على رقمه ومكان المقابلة، ما أثار استغرابي هو غياب الزمان، أردت أن أسأله لكنه ذهب أدراج الرياح... إنتظرت يومين فإتصلت بذلك الرقم... ليرد بنبرة حادة ويقول :

- " لماذا لم تأتِ في الوقت المناسب ! "

قلت بحيرة:

- "لم تضع موعداً محدداً للمقابلة... وأردت تنبيهك، لكنك ذهبت سريعاً".

- " أسف، وأيضا لم نعد مهتمين بك لأنك تأخرت في الموعد... "

- " كيف ؟ لكنك لم تعطيني إياه "

- " إذا نحن سنعالج المرض فقط... ولن نعالج الأعراض الجانبية "

مع معرفتي أنها حركة مقصودة إلا أنني قلت بلهفة :

- " شكرا جزيلا لك.. إنكم أعنتموني حقا، ولكن متى يوم المقابلة ؟ "

- " عيد الأضحى "

قالها بجدية، وقطع الخط فورا... أردت النوم لكنني لم أعد أستطيع، فبعد أربعة أيام سأغدو قاتلة... ماذا قاتلة ؟ أيعني أنني سأخذ حياة أحد بسهولة ؟ وأيضا ماذا لو إكتشفوني، كيف ستسعد أختي الكبرى

بهذا ؟ لكنني هدأت بعد أن رأيت صورتها معي، فأنام مطمئنة وأقول في نفسي " سأراك بكل تأكيد مرة أخرى يا أختي " فأرى حلم لشخص يتكلم بطريقة مألوفة : " لا تظنين أنك ستستطيعين قتله، إنه لن يموت، لأنه إن مات سأقتلك وأختك... أيتها العاهرة... إنك حقا عبدة ، هههـ... هههـ... " فأرى إنعكاس للماء في بحيرة صغيرة إنه طائر أحمر اللون ويشبه الفينيق، وهو أسطورة في عائلتنا ورمز للخلود أيضا، فأستيقظ من النوم وأرى صورة أختي الكبرى وأطمئن...

- " يا له من كابوس، ألم أسمع ذلك الصوت في مكان ما، إنه مألوف قليلا "

مرت الأيام كما أملأ الكأس بالماء... وأتى ذلك اليوم، اليوم الذي سأقتل أحدهم، تقابلت مع ذلك الرجل مرة أخرى... فقال لي تفاصيل المهمة :

- "الشخص يدعى أنس، ولا يعرف أحد إسم عائلته... إنه أستاذ رياضيات في ثانوية مولاي يوسف... حائز على الدكتورة وأيضا هو ذكي جدا... مع أن هذه المعلومة لا تهم إلا أنه وجب معرفتها... ستصدمينه بالسيارة، وأيضا أخذنا مهلتنا في التفكير، وقررنا أنه يجب علينا إفقاده ذاكرته لا موته "

تنهدت وكأنني لم أكن مستعدة لقتله فقلت :

- "إذن أنا سأذهب للسجن لو قبض علي..."

أجابني بطريقة جادة وقال :

- "سنتكفل بكل شيء فنحن لسنا محتالين، لكن لو قبض عليك فسنعالج أختك علاجا تام"

- "أه... لديكم علاقات كهذه إذن..."

قاطعني بنظرة تنم على الجدية والغضب :

- "أنتِ مجرد بيدق، لذلك لا تغتري بنفسك، لا حاجة لإفتراضك هذا"

- "أسفة، لن أتفوه بشيء مرة أخرى"

أعطوني سيارة زرقاء، تمامًا كسيارات المدنيين، في محاولة واضحة لعدم لفت الأنظار. كانوا يعرفون تمامًا ما يفعلونه... "أنا سأصدمه بسرعة أربعين كيلومترًا في الساعة،" قلت لنفسي بصوت خافت، وكأنني أحاول إقناع عقلي بفعل المستحيل، "أظن أنها كافية لتفقد المرء ذاكرته..." كانت تلك اللحظة التي اتخذت فيها قرارًا، لحظة مصيرية لا رجوع فيها .لقد أُعطيت المخططات، أماكن اعتاد "أنس" زيارتها... لقد أصبح كل شيء واضحًا، لقد فقد ذاكرته، والآن هو يرقد في نفس الجناح الطبي الذي أعمل فيه. لكنني أعرف الحقيقة، هذا كله من تدبيرهم. لقد رسموا الخطة بعناية.

ليس هذا فقط... بل بدأوا يهددونني، يبتزونني بأختي. قالوا إن لم أضع له الأدوية التي تمنعه من استعادة ذاكرته، سيقتلونها. كانت نظراتهم باردة كالجليد، ومليئة بالتهديد الصامت. شعرت بالعجز، لا حول لي ولا قوة. تمامًا كما قالوا : "أنت مجرد بيدق." كانت كلماته تتردد في ذهني، تذكرني باستمرار أنني في لعبة ندمت على أختياري لدخولها.

ورغم كل شيء... رغم ما فعلته لـ "أنس"، هناك شيء ما في شخصيته كان يجذبني. كنت أعجب به. شخصيته كانت قوية، غامضة، وصامدة رغم كل ما مر به. لكن اليوم الذي كسرني كان اليوم الذي جعلني أدرك أن الأمور ليست كما توقعت. أنس، الذي كان يتحدث بلغة غريبة طوال الوقت، فجأة بدأ يتحدث باللهجة

المغربية. كيف يمكن لهذا أن يحدث؟ شعرت وكأن قلبي قد تجمد في تلك اللحظة، كنت أراقبه بصمت، أرى كيف يستعيد شيئًا من نفسه. تساءلت إن كان هذا يعني أن ذاكرته ستعود. شعرت بالخوف، لم أستطع مواجهته، هربت حينها... إنه المقابل، لقد نسيت أختي للحظة محاولة التفكير في ذاتي لوهلة واكتشفت، اكتشفت أنني كنت عبدة لأختها... بعد كل ما فعلته تأتي اللحظة التي تطلب مني ثمن ما أخذته...

2

اشتريت قارورة كحول وذهبت إلى البحر، كأنني أبحث عن عزاء في أمواج البحر الهادئة. جلست على كرسي عام هناك، في محاولة للهرب من واقعي، لكن لم يكن هناك مهرب من الأفكار التي تحاصرني. جلست أحاول استيعاب ما حدث، وأنا أحتسي من الزجاجة ببطء، كل رشفة تحاول إطفاء النار التي في داخلي.

فجأة، أتاني شخص لم ألحظه من قبل. كان يبان عليه أنه في الثلاثينيات، يرتدي قلنسوة تغطي شعره، ومع ذلك، كانت هناك خصلة زرقاء داكنة تتدلى من القلنسوة. لحية خفيفة بنفس اللون، ظهرينا متلاصقان، يفرق بينها خشبة الكرسي، لم أستطع رؤية وجهه بالكامل، فقط ظله. كانت هناك هالة من الغموض تحيط به. لم يتحدث أولًا، فقط جلس بصمت لفترة طويلة، وكأن حضوره كان كافيًا لإثارة القلق في داخلي، ثم نطق بجملة واحدة، جملة غيرت كل شيء في حياتي:

- "أنتِ تعرفين عني القليل، وأنا أعرف عنكِ ما لا تعرفينه عن نفسك".

فأضاف وقال قبل أن أتحدث :

- " أليس كذلك يا أخت ' تامايو ' "

كانت كلماته كخنجر اخترق قلبي. شعرت بموجة من المشاعر تجتاحني—فضول، وحتى نوع من الخوف الغريب. كيف يمكن لشخص غريب أن يعرفني بهذه الطريقة؟ كيف له أن يعرف ما بداخلي من أسرار وأحزان؟

نظرت إلى البحر، وبدأت تتشكل الدموع في عينيّ. لم أكن أعرف إن كانت دموع الخيانة أو الحزن، يا لكمية الغموضِ الذي أحاط بهذا الرجل!، كانت مشاعري مختلطة، لكن ما كان مؤكداً هو أن حياتي لن تعود كما كانت، فردد ماقال كما لو أنه يريدني أن أعرف صوته :

- "أنتِ تعرفين عني القليل، وأنا أعرف عنك ما لا تعرفينه عن نفسك"

تلك اللحظة كانت كافية لتجعلني أدرك أنني غارقة في عالم غريب، أن الأحداث التي أحاطت بي أكبر مما يمكن لعقلي أن يستوعبه. صوته، رغم عدم تمييزي له بوضوح، كان يحمل طابعًا مألوفًا، وكأنه يمتد بجذوره إلى ذكريات عميقة في نفسي، ذكريات لم أجرؤ على لمسها من قبل.

- " من أنت ؟ وهل تقابلنا من قبل ؟ "

تلك اللحظة الفاصلة بين سؤالي وضحكته التي تلتها كانت كأنها تقطع أنفاسي. انفجر ضاحكًا، ضحكته كانت مشبعة بالسخرية، مجنونة لدرجة أنني شعرت أن صدري يتفتت تحت وطأة هذا الجنون. كان صوته مزيجاً من السخرية والعذاب، لدرجة أنني شعرت بأنني على وشك أن أضيع في دوامة من المشاعر المتضاربة.

- "هه... كيف يمكنِ لكالسون أن يُعجب بهذه الثملة؟ وأيضاً... لو فكرتِ أن تفعلي شيئاً مع جسد أنس... "

جسدي تجمد. ذكره لأنس أشعل في قلبي ذعرًا غريبًا، وكأنه حرك جزءًا دفينًا من ذاكرتي، جزءًا كنت أهرب منه طوال حياتي. تنهد، وكأن الضحك استنزف منه شيئًا، وعيناه المليئة بالجديّة تثبتت على وجهي، وكأن ما سيقوله هو حكم نهائي فأكمل كلامه :

- "سأقتلك"!

تلك الكلمة التي أطلقها لم تثر بداخلي الخوف كما كان يتوقع. بدا لي الموت حينها كشيء ثانوي. فقدان الشخصيات، الوجوه، وحتى الأسماء في حياتي جعلني على يقين أن الموت لا يُخشى، بل هو نقطة نهاية. لم أهتز، لم يرتجف جسدي، قلت له بهدوء يشبه الجليد:

- "لستُ خائفة من الموت، لكنك لم تجب على سؤالي".

كانت كلماتي، رغم هدوئها، تبدو كطعنة له، شيء من الغموض ارتسم على وجهه. ابتسم بطريقة تشعرني بأنه يخفي خلف ابتسامته الكثير من الحقائق، ثم قال بنبرة باردة، كأنه يخبرني بحقيقة قاسية:

- "لا أدري لماذا أنت أخت من أسرت قلب أنس... اسمي ليس مهماً. أنا هنا لأساعد أختك، ليس شفقةً منها، بل لأن أنس هو شخص مهم في هذا العالم، وأختك هي من أحبها".

شعرت بأرض الواقع تتلاشى من تحت قدمي، كل شيء أصبح غامضاً وغير مفهوم. حب؟ أنس؟ أختي؟ كيف تتداخل هذه الأسماء والقصص معاً؟ كنت عاجزة عن الكلام للحظة، ثم استجمعت شتات نفسي، وقلت له بصوت مثقل بالدهشة:

- "ماذا تعني؟ هل تعرف أنس؟ وما هذا الكلام عن كالسون وإعجابه بي؟ لا أفهم شيئاً. ما علاقة أنس وأختي بكل هذا؟"

بدت كلماتي وكأنها أثارت شيئًا في داخله. زم شفتيه بطريقة أظهرت أنه يشعر بالغضب أو الاشمئزاز، وكأن كل حرف كنت أقوله كان بمثابة استفزاز له. ثم قال بلهجة مشبعة بالتعالي، وكأن حديثي كان أقل مما يستحق الاهتمام:

- "كما هو متوقع منك... الشخص الذي أكرهه أكثر من أي أحد. أنتِ، تلك الوضيعة. سأعطيك مبلغ علاج أختك، لكنني لا أخطط لتوزيع المال على الفقراء دون مقابل. ابتعدي عن كالسون... لا، بل تقاعدي من كونك طبيبة"!

الكلمات تلك كانت كفيلة بأن تشعل النار بداخلي. شعرت بالغضب يتصاعد من داخلي كأمواج عنيفة تحاول كسر السدود التي أقمتها طوال حياتي. لكنني قاومت هذا الانفجار، وأخذت نفساً عميقًا، ثم قلت له بنبرة ثابتة، مفعمة بالتحدي:

- "من أنت لتحكم علي؟ ومن أين لك بالمال أصلاً؟"

كنت أتحدث معه دون الإلتفات له لكني شعرت به. كان الغضب مخفياً بعناية، لكنني استطعت رؤيته يتسلل إلى كلامه. وعندما تحدث مرة أخرى، كانت كلماته أشبه بطعنات مسمومة، كل جملة كانت تضربني في العمق:

- "يا لكِ من وقحة! يا بنت العجمة... تصدقين ذوي البدلات السوداء وتشكين في كلامي؟ يا لكِ من قذرة! ألم يخونوكِ بعد أن فعلتِ كل شيء لأجلهم؟ حتى أنك قمتِ بحادث عمداً لتنفيذ مطالبهم... !"

في تلك اللحظة، شعرت بأن الهواء من حولي أصبح ثقيلًا. توقفت أنفاسي. نعم، كان يعرف... يعرف كل شيء. تلك الذكرى التي كنت أهرب منها، تبتعد عن مواجهتها، بدأت تتسرب إلى عقلي كالسم. تلك الذكرى التي كنت أخفيها عن الجميع، حتى عن نفسي. أكمل كلامه بصوت مفعم بالاحتقار، وكأنه يستمتع بتمزيقي ببطء:

- " ...عبدة.. نعم، أنتِ عبدة. مع أن البشر جميعهم عبيد، لكني توقعت منكِ أكثر. توقعتُ الحرية. وُلدتِ أختاً لـ'تامايو'، وظننتُ أنني

بإبعادك عن أنس و'تامايو' حين كنتم صغاراً، أبعدتك عن العلاقات لستحققين حريتك. لكنكِ، مع الأسف، أصبحتِ عبدة. ليس لدي أمل فيك الآن، يا من ولدت لـ 'تامايو' أختا "

كنت أشعر بأن روحي تتمزق تحت وطأة كلماته. كنت عاجزة عن الفهم، عن استيعاب كل هذه المعلومات التي ألقاها علي. الحديث عن أختي، وعن أنس، وعن حياتي المفقودة كان كافيًا لإغراقي في بحر من الفوضى. تابع حديثه ببرود، وكأن كل كلمة تخرج من فمه كانت وسيلة لزرع المزيد من الألم في داخلي :

- " سأقول لكِ شيئاً: حين يخرج كالسون من المستشفى، سيصبح القطعة الأخيرة لتكتمل خطتنا. وسنذهب إلى"...

تزاحمت في رأسي الأسئلة دفعة واحدة، وصوتي كان أقرب إلى الصراخ:

- " كيف؟ ماذا؟ أين؟ متى؟"

لكنه لم يتوقف. قاطعني بنبرة حازمة، وكأن صراخي لم يكن يستحق الاهتمام، وكأنه يسخر من عجزي عن الفهم:

- " على مهلكِ، أيتها الوضيعة. سأنقذ أختك. هاكِ هذه البطاقة... 6839".

أعطاني بطاقة بنكية وقال لي رقمها السري بلهجة هادئة. كنت مشدوهة، لم أتحرك، فقط نظرت إلى البطاقة في يده. ثم فجأة، هبّت رياح قوية، رياح أشبه بعاصفة. كان الهواء يضربني من الأرضية، حتى أنني شعرت بأن الأرض نفسها تهتز تحت قدمي. زجاجة الكحول التي كنت أمسك بها طارت في الهواء كما لو كانت ورقة، وتلك الرياح لم تكن طبيعية. استدرت لأجده... اختفى. لم يُجب على أسئلتي، واختفى كما ظهر، كالشبح. نظرت إلى البطاقة

التي كانت في يدي، وقلبي ينبض بعنف. شعرت أنني على وشك الانهيار. كيف أقبل؟ كيف يمكنني أن أثق بهذا الرجل الغامض؟ كنت بالفعل مهددة من قبلهم، وكان الخوف يسكن في كل جزء مني. كان كل ما أستطيع فعله هو العودة إلى منزلي، لكن حتى ذلك القرار لم يكن ملكي.

لكنه كان هناك، يقف أمام المنزل كما لو أنه يعرف كل خطوة أخطوها. يقف بقلنسوته التي تحجب عيناه، ثم قال لي بصوت هادئ، كما لو كان يتحدث عن شيء تافه:

- "ألستِ خائفة؟ الآن منتصف الليل".

نظرت إليه بعينين غاضبتين، رغم أن قلبي كان ينبض بجنون. أجبت بصوت تحدٍّ، رغم أنني شعرت بأن كلماتي قد لا تكون كافية:

- "المفترض أن أخاف منك أنت أولاً"...

ابتسم بتلك الابتسامة الباردة التي جعلتني أكره كل شيء يتعلق به. ضحك ضحكة خافتة، ثم قال بلهجة ساخرة:

- "تخافين مني؟ هذا ليس المطلوب، أريدك أن ترتعبي كلما رأيت وجهي، يا لكِ من قذرة. المهم أن تفهمي ما سأقوله الآن".

بدأ يصعد درجات السلم، كما لو أن كل واحدة منها ترمز على شعور ما، ما إن وصل لمسافة كانت تبعدني بمتر إرتفاعا... بدأ يميل ظهره للوراء، يميله كما لو كان معاقا، حتى لمس ظهره السياج في السلم، لتضربه نسمة هواء أزاحت القلنسوة للحظة، تلك اللحظة كانت كفيلة بأن أرى عيناه، كانتا صفراوتين كالشمس، لا يزال النسيم يحرك قلنسوته، وأرى إبتسامته الخبيثة وهو يقول :

- " لنقتل أولئك المهددين!.. "

كانت جملته تتلاءم مع نظرته، طأطأت رأسي قليل لأبصر الأرض، وأنا أفكر فيه، لا عقلي مشوش بنظرته، لقد كانت عيناه مليئتان بلا مبالاة، تكبر، كبرياء، غضب، وأيضا حزن، شعرت بكل تلك المشاعر تتدفق في عقلي كأنما أخبرني بها دون تحريكه شفتيه، إنه حقا رجل أخذ منه الغموض مأخذه...

3

أنـــــــــس

حينها بدأتُ أرى نفسي، أرى شكلي القديم أمامي لأبدأ في حوارٍ معه دون شعور:

- "إنها ليست مجرد أحلام، بل ذكريات غائرة. ذكريات لا تختلط بأحلامي، بل هي جزء آخر، كأنما يحاولون دمج الاثنين معًا، لكنك، فوريو، الوحيد القادر على التلاعب بأحلامي. كم أنا أحمق..."

- " ألم أقل لك، يا أنس، أنك غبي؟ أحمق، تثق بشخص لا تعرفه سوى منذ يوم واحد"!

- " أأنا مجنون؟ أخاطب نفسي كما لو أنها شخص آخر".

- " نعم، بالطبع، أنت لست أنت. لقد انقسمت إلى نصفين: نصف يثق في فوريو، والنصف الآخر... لا يثق".

- " ههه... هه... أنا أتحدث مع نفسي، لكن لا، إنه ليس حواراً حقيقياً. هذا ليس حوارًا، لأن الحوار يتطلب شخصين على الأقل. ما أفعله الآن، هو شيء آخر، شيء قد يطلق عليه اللاحوار".

- " اللاحوار؟ هه... أنت بارع في ابتكار أسماء غريبة".

- " أليس كذلك؟ أليس هذا اسمًا رائعًا؟ يصلح أن يكون عنوانًا لقصة ما".

- " ومن أين لك الجرأة على الحديث معي؟"

- " لدي كل الحق في الحديث مع نفسي، أنت مجرد نسختي بعد شهرين. هل تتذكر تلك اللحظة، حين صدمتك السيارة الزرقاء؟ تلك السائقة ذات الشعر الرمادي والعينين الضيقتين؟ تشبه 'تامايو'، أليس كذلك؟"

بابتسامة خبيثة قالها... لا، بل أنا الذي قلتها. لأ أتذكر إنه أنا قبل شهرين، إذن هو يعيش تلك اللحظة كما عشتها، لحظة اصطدام السيارة. لكن ما أثار انتباهي أكثر كان لون السيارة... ذلك اللون الأزرق الداكن الذي لم أراه قبل فقداني للذاكرة. كل شيء من منظور أخر، بل جزء من اللغز الذي أحاط بي منذ ذلك الحادث...

ثم كانت هناك تلك الوضيعة... تلك المرأة. وصفه للسائقة يبدو مألوفًا للغاية. إنه يتشابه مع وصف امرأة كالسون، تلك التي كنت أعتقد أنها مجرد شخص عابر في حياتي. والآن؟ الآن أتضح أنها تلعب دورًا أكبر بكثير مما ظننت. يا لها من عاهرة. نعم، تلك الكلمة تتردد في ذهني مرارًا، وكأنني أجبر نفسي على تصديق أنني سأستمتع بإذلالها. أيعقل أن تكون حركة مقصودة ؟.. أيمكن أنها مدبرة من أشخاص أخرين..، وأيضا، لماذا علي أن أصدق ما تقوله نفسي؟...إنها نفسي ومن الطبيعي أن أثق بها، أليس كذلك؟ أو ربما لا.

وفي تلك اللحظة، أدركت أن فوريو كان في الخلفية طوال الوقت. كان في الكواليس، يدير المشهد، يعطي التلميحات، يوزع الشفرات... لكنه لم يغدرني. رغم كل ما حدث، لم يخنني. يا لها من فرحة، فرحة عابرة في بحر من الغموض. ولكن لماذا فعل هذا؟ لماذا أرسل لي هذه الشفرات؟ ما هو هدفه؟ أيريدني أن أكتشف حقيقة تلك "ندى"؟ أم أن هناك شيئ أعمق؟ أسئلة تتزاحم في رأسي، كل واحدة منها تضغط على عقلي حتى يكاد ينفجر من كثرة التفكير.

عقلي... إنه يريد الانفجار، يريد الفرار من هذه المتاهة من الأفكار والتساؤلات. لكن في لحظة ما، شعرت بالهدوء يغمرني. استسلمت. نام عقلي من شدة الإنهاك، سقطت في نوم عميق لم أعد فيه. لم أعد أدرك شيئًا سوى جدران موحشة تحيط بي. جدران مطحلبة، باردة، إنها زنزانة، كل شيء حولي كان غريبًا، موحشًا، " هل أنا في سجن ؟ "، سجن في عالم آخر...

ثم فجأة، توقفت الأفكار. توقفت الحركة. كأن دماغي قد تجمد تمامًا، وفي تلك اللحظة رأيت ما كنت لا أريد رؤيته. إنها... تلك اللعينة التي كانت سبب ولادتي. رأيتها بوضوح تام. عيناها الزرقاوتان كالسماء الصافية، لكنهما تخفيان جحيمًا عميقًا. شعرها الأشقر كأشعة الشمس، لكنه لم يكن دافئًا، بل بارداً كالجليد، برده يخترق الجسد والروح معًا.

وأبي... كانت صورته غير واضحة، مشوهة كما لو أن ذاكرتي تريد أن تحجب عنه شيئًا. لكن رغم غموضه، استطعت أن أرى العلاقة المتوترة بينهما. كانا في شبابهما، وكنت أعلم أنهما أحبا بعضهما، أو هكذا أخبروني. ولكن ما رأيته الآن كان مختلفًا. كانت العلاقة بينهما مليئة بالتوتر، بالكراهية المبطنة التي لم أكن أتوقعها.

يا لهذا الغموض! أردت التفكير في الأمر، أردت فهم ما كان يحدث، لكنني لم أستطع. كان عقلي ثقيلًا، مشوشًا، عاجزًا عن التفكير... وفجأة، استيقظت على صوت شخص غريب. رجل ذو لحية، وجهه قاسٍ، حاد كما لو أنه يخبئ خلفه نية قتل. كانت نبرته قوية، وصوته يحمل حكمًا لا جدال فيه:

- "لقد صدر الحكم، وأنت الآن محكومٌ بالإعدام! فاستعد لملاقاة مصيرك، أيها المتمرد، فما من فرارٍ من عدالة السيف"!

4

لم أكن مندهشًا بالحكم ذاته، بل بما شعرت به عند سماعه... لا شيء. كان ردي باهتًا، لا مشاعر، لا غضب، لا مقاومة. كنت دائمًا أتكبر وأشعر بالفخر، لكن في هذه اللحظة، اختفى كل ذلك. كأن شيئًا بداخلي قد تلاشى. أدركت حينها أن فرضيتي التي أردت تناولها في حديثي مع كالسون كانت صحيحة: "أنا أتكبر فقط عندما يتحدث الآخرون عن الفينيق أو أنا أعرف أنهم يعلمون بوجود الفينيق"

نهضت من إستلقائي لأجده أمامي، ذلك الرجل ذو الملامح الحادة، كأن الزمن صاغ وجهه من الفولاذ، عينيه كانتا جمرتين مشتعليتين، تطلان علي وكأنهما تخترقان عمق روحي، كانت نظراته توحي بالقوة، لكنها أيضًا تخفي شيئًا أعمق، شيئًا غامضًا وكئيبًا... وبينما وقف أمامي بثبات، كلماته خرجت كصاعقة مفاجئة، موت؟ إعدام؟ تسللت تلك الكلمات إلى صدري وكأنها قبضات الزمن تتكاتف لتسلبني أي شعور بالسيطرة. إعدام؟ هل يعني هذا أن أحدًا غيري سيتحكم في مصيري؟ لم أعد أملك زمام الأمور؟

أحسست بخيط من الرعب يتسلل إلى داخلي، ولكنني كنت أعلم أنني لا أستطيع السماح له برؤية ضعفي. تمالكت نفسي بصعوبة، محاولا السيطرة على جسدي الذي اهتز برعشة داخلية. لا، لن أسمح لهذا الوغد أن يرى ترددي، لن أتركه يمسك بزمام مصيري. رفعت رأسي، وأطلقت بصوت مفعم بالتحدي:

- "ألك علم بالفينيق ذو السبعة ذيول؟"

كانت تلك الكلمات مصممة لتضربه في عمق قلبه. فوريو، ذلك الكيان الأسطوري، رمز القوة الذي يعرفه كل سكان هذا العالم. توقعت أن تراه ينكمش أو يظهر عليه الارتباك، توقعت أن يخيفه مجرد ذكر الاسم. كان السؤال بمثابة اختبار لمدى معرفته ومكانته في هذا المكان. إذا كان يعرفه، كنت سأستغل الموقف وأتكبر عليه بلا هوادة.

لكنه لم يظهر أي إشارة للارتباك. بل ابتسم ببرود وثقة مهيبة، ابتسامة رجل متحكم في مجرى الأمور، ثم قال بصوت هادئ، مشبع بالجدية والكارزما:

"ما بلغني ذكره من قبل".

كيف له أن لا يعرف الفينيق؟! للحظة، شعرت وكأن الأرض قد زلزلت تحت قدميّ. هل تجاوزت حدود دولة كالسون؟ هل سكان تلك الأرض فقط هم من يعرفون فوريو؟ شعرت بأملي يتهاوى كرماد في مهب الريح. لكن قبل أن أغرق في تلك اللحظة المدمرة، عاد ليتحدث بنفس الجدية التي أرعبتني في البداية، بنبرة قاطعة كحد السيف:

"لك ثلاثُ أشهرٍ قبل أن يُنفَّذَ فيك الحُكم، وخلالها ستقضي أيامك عبدًا لي، تذوق الذل في كل لحظة".

لقد أصاب الوتر الحساس، عبد... أيمزح معي هذا الحثالة... فقاطعت حديثه بكبرياء :

"عبد؟ ههه! أتمزح معي؟ أيها الوضيع، كيف تجرأت علي التفوه بهذا؟ أجننت أم فقدت رشدك؟ أنا؟ أنا أنس جيودا، أعيش عبدًا لك؟ أي حلمٍ سخيف هذا الذي تراه؟"

ضحكت بمرارة، مشبعة بالكبرياء والقسوة:

"هوي، أيها الحثالة! أخرجني من هنا في الحال، وإلا قطفتُ رأسك. أتظن أنك نِدٌّ لي؟ أنت لا شيء سوى بيدقٍ حقير، بل أقل من البيدق ذاته. إنما أنت دميةٌ تحركها يد المجهول كما يحرك الجميع هنا، أما أنا، فلا أرضى أن أُقاد، ولا أسمح لأحد أن يوجّه خطوي. أفهمت الآن، أيها الوضيع؟ عبداً لي؟ ههه! أيّ هراء هذا؟"

كنت أتحدث بثقة وجنون، بينما أقوم بوضعية "الدوجو" الأولى، تلك الحركة التي طالما حفظتني من السقوط في معاركي السابقة. شعرت بالقوة تنبعث من داخلي، لكن كان هناك عائق واحد—جسد كالسون الضعيف، جسد لا يقارن بجسدي السابق كأنس، حيث كنت رياضيًا حقًا. إنه كالورقة الهشة، مما زاد من غيظي. دفعت بنفسي إلى الأمام بلكمة سريعة، لكن قبل أن تصل إلى وجهه، حاصرتني رماح العبيد من حولي. تحركوا بسرعة، منعوني من الاقتراب منه. كنت أواجههم، ولم أفكر في العبودية لحظة واحدة من قبل. وبينما كنت محاصرًا، غابت أفكاري لوهلة... غابت في صورة تامايو. لماذا أفكر فيها الآن؟ لماذا لا تزال جزءًا من تفكيري؟، تلك البشرية التي رحلت؟ إنني متيم بها، رغم أنها لم تعد هنا.

قبل أن أفقد نفسي في التفكير أكثر، أمسك بي الرجل ذو الوجه الحاد وقال بنبرة مفعمة بالتقييم:

- "يبدو أنك ذو بأسٍ شديد وقوةٍ لا يُستهان بها... هممم، إني أنا الفيل كورفيستد، أراك أهلاً لأن أجعلك عبدًا محاربًا تحت أمري. ستقف في ساحة الوغى، تنازل من أضعهم أمامك، وتقاتلهم بلا جزاءٍ ولا عطاء".

ابتسم ابتسامة خبيثة، تلك الابتسامة التي أفسدت جديته السابقة، وأردف قائلاً:

- "كل هذا لأنك عبد، وإن لم يَرُقْ لك ذلك، فماذا ترى في أمرٍ آخر؟ منازلُ الدعارة! أجل، مع أنك فتى، لكني قد فتحت منزلاً للدعارة خصيصًا للفتيان الوسيمين مثلك. ستأتي الفتيات وتفعل بك ما يحلو لها. هههه... أليست فكرة شيطانية؟ لن تجد لها مثيلًا! وإن كنت تتساءل، فما من فرق كبير بين ذلك وبين البيوت التي يرتادها الرجال القذرون. الأمر سواء، فلن ترى هناك جمالاً يسر العين أو فتاةً تأسر القلب".

بدأ ينظر في سقف الزنزانة المطحلبة... مبتسما ويقول بسخرية :

"ولِمَ أخيرك أساسًا؟ أنت لا تعدو كونك عبدًا ساقه القدر من السماء لي. يا للنعمة التي أحظيت بها! أشكرك أيها الأوروبوروس، لقد باركتني حقًا".

بانت على وجهي نظرة ذعر... كيف لي أن أقوم بهذا؟ أيريد فوريو أن يعلمني شيئًا ما؟ أيريدني أن أصبح أقوى فأشارك في المنافسات؟ لكن لماذا هذا الشخص يعرض عملًا آخر؟، إنه لا يخيرني حقًا... بل يجبرني. مهلا! لماذا أظن أن فوريو يعلم المستقبل أو شيئًا من هذا القبيل؟.. إذا لم يكن يعلم المستقبل، فلماذا رماني هنا؟ تساءلات اجتاحت ذهني، وضغط الواقع جعلني أتنهد بعمق. وفي تلك اللحظة، شعرت أنني عرفت ماذا سأختار.

اقتربت منه بخطوات مثقلة، وبدأت أقول بحزن وندم، كأنني لم أكن الشخص الذي تكبر عليه قبل قليل:

- "أرجوك، أدخلني بيوت الدعارة... لا طاقة لي على القتال، أنا نادم، ندمًا يعصر قلبي. أقسم أنني لن أتكبر عليك بعد الآن. أرجوك، أدخلني بيوت الدعارة... أنا ضعيف، أضعف مما تظن. المس عضلاتي إن شئت، ستدرك أنها لا تزيد عن هشاشة الورق. لولا عائلتي التي غرست في نفسي غرور الكبرياء، لما رفعت نفسي فوقك قط."

بينما كنت أقول هذا بكلمات ممزوجة بالندم، اقترب مني الفيل، فقال بابتسامة ساخرة:

"يبدو أنك ضعيفٌ حقًا... هه، إذن قد اخترت حياة الحثالة لنفسك. حسنًا، لن أكون ظالمًا وأحرمك مما ترنو إليه. عِشْ كما تريد، فالخنوع يناسب أمثالك".

كان يتكلم بتهكم، يتحسس جسدي... بينما الجنود يحيطون بي، يراقبون كل حركة في انتظار أي أوامر. وما إن وصل حيث تقبع سرتي حتى شعرت بجسدي يتوتر، لم أعد أستطيع التمثيل. استدرت بسرعة مذهلة، كأني خضعت لتدريب عسكري منذ سنوات. بغتة، أغدرت بحارس كان يقف خلفي، ونزعت رمحه من بين يديه كما لو كنت أقتلع زهرة من الأرض.

أمسكت بشعر الفيل كورفيستد، وبدون تردد، دفعت رأسه نحو الرمح، بغية تسجيل لحظة لا تُنسى. كانت تلك اللحظة محاطة بالخوف والقلق، لكنها تحولت بالنسبة لي إلى إنجاز عظيم. صوت القطع كان عاليًا، يصم الآذان، كأنه ينطلق من عمق أعماق الجحيم. صرخته تعالت في المكان، وكأن صراخه كان صدى لذل العبودية التي مثّلتها.

سقط رأسه على قدم أحد الجنود، وفي تلك اللحظة، توقفت الحياة من حولي. نظر الجنود إلى بعضهم البعض في ذهول، وكأنهم شهدوا حدثًا خارقًا. شعرت بدقات قلبي تتسارع، والأدرينالين يتدفق في عروقي، بينما أدركت أنني قتلت إنسانًا الآن... لكني لم أكن نادمًا. بينما الدماء تتناثر من رقبته، انفجرت بالضحك بسخرية، وقلت:

- "إذن لماذا لا تذهب إلى تلك البيوت القذرة التي صنعتها بحالتك هذه؟"

هنا، بدأت أعيد حساباتي... لقد تجاوزت نقطة اللاعودة. كان عليّ أن أستمر، ألا أظهر أي علامة على الندم أو الخوف. كان هذا العمل هو بداية جديدة، لم أكن أعرف كيف سأستغل هذه الفرصة، لكني كنت متأكدًا من شيء واحد: لن أسمح لأحد أن يتحكم في مصيري مرة أخرى.

بينما الجنود أرادوا قتلي، شعرت بضغط الموقف يشتد، وقلبي ينبض بسرعة. حاولت تهدئتهم، فرفعت صوتي بما فيه من حماسة وثقة، وكأنني أوجه كلمة إلى الجموع في ساحة معركة:

"أتريدون أن تَحيوا عبيدًا حقًا؟ إن كنت تُضلل غيرك من الناس، فلا تخدع نفسك! أنتم وُلدتم أحرارًا، خرجتم من أرحام أمهاتكم دون قيد أو نير. عيشوا كما عاش الأحرار والنبلاء، ولا تُلقوا بالًا لما يهمس به الآخرون. فأنت حر، خُلقت للحرية. أتدرون ما اسمي العائلي؟ إنه 'جيودا'. وهل تعلمون ما معنى هذه الكنية في بلدي؟ إنها تعني الحرية! الحرية التي تسري في عروقي كما تسري في قدَر من خُلق ليعيش شامخًا".

أطلقت الكلمات كطلقات مدفع، شاعراً بأصدائها تتردد في أعماقهم وأضيف :

- "ها أنا أخاطبكم، يا من قست عليكم الأيام، يا من سلبتكم الأقدار حريتكم. أيا عبداً قد رضختَ تحت سوط سيدك، وأيا من شُدت رقبتك بسلاسل قاسية، أفيقوا! أما علمتم أنكم ولدتم كما ولد أسيادكم؟

أين كرامتكم وقد رضيتُم أن تكونوا كالرقيق بين أيديهم؟ أتحكمكم أيدٍ وُهِبَتْ حريةً كما وُهِبت لكم؟ فرقٌ بينكم وبينهم ليس إلا نورًا طُمِسَ في عيونكم، كأنما غبار الزمن قد حجب عنكم حقيقة ما أنتم

عليه. فأي عقل يقبل أن يُحيط نفسه بأغلال الظلم؟ وأي نفس ترضى أن تُكتب في ألواحهم أرقامًا لا أثر لها ولا وزن؟

ذأما في قلوبكم شجاعة الفارس حين يستل سيفه، أما في أرواحكم قوة الحر حين يثور؟ انهضوا! حرروا أنفسكم من قيود الذل، واشعلوا شعلة النور التي خبت بين الضلوع. فإنكم إن نهضتم، لا يُقهر لكم شأن، ولا تُكسر لكم عزيمة. كُونوا أحرارًا، ولا تقبلوا دون السماء سقفًا!"

فأرفع صوتي لأقصى ما وصلت له حنجرتي :

- "احيوا، وقاتلوا! احيوا، وقاتلوا! قد انكسر قيدكم، وانطلقت أرواحكم من أسرها... الآن أنتم أحرار، فما لكم من سبيل إلا أن تثأروا! هلمّوا لنقطع رقاب من سلبوا حريتنا، ولنصبغ الأرض بدمائهم حتى تصرخ الحرية باسمنا"!

تأملتهم بينما كانوا يرمون رماحهم، وجوههم مختلطة بين الخوف والشك. إلا واحدًا منهم، شعرت بأن ثباته يحمل نوايا غير مريحة، فعرفت أنه لم يقتنع. تجهزت للقتال، فأمسكت بيده بقوة ونزعت الرمح منه.. لكن المفاجأة كانت صادمة، إذ فوجئت بقطع رأسه. عيناي تتسع للدهشة تدريجيا، بينما هزني صدى الفعل الذي قام به القاتل، ظهر أحد الجنود وراء من قُطعت رأسه، إنه من قتله... ثم انحنى ليقوم بوضعية الحراس لملكهم، مما جعلني أشعر بثقل الكلمة التي ألقاها على مسامعي:

- "أيها السيد 'جيودا'، ها أنا أقولها جهرًا: لك مني احترامٌ قد استحققتَه الآن. ولكن دعني أبوح بما يجول في صدري. إني أبغض ذاك الفيل المدعو كورفيستد، ذاك الذي جعلنا عبيدًا في ظلال قوته. ومع ذلك، سؤال يلحّ عليّ ولا أملك كتمانه: أترى، هل تنوي أنت أيضًا أن تضعنا تحت نير عبوديتك؟"

أجبت بإشمئزاز وكبرياء، كل شعور الاستعلاء كان يتجلى في صوتي:

"صمتُكَ أكثر ما يرضيني أيها الحقير؟ تناديني 'السيد جيودا' وكأنني من جعلتك عبدي! من أوهمك أنني أعينتك حارسي؟ أهذا وهمٌ خرج من رأسك العفن؟ استمع إليّ جيداً: لقد أزهقتَ روحًا، قتلتَ رجلًا لم يكن مقتنعًا، وأنا كنت سأقنعه بالكلمة لا بالسيف.

أتراك تظن نفسك سيده بعد أن أجهزت عليه؟ لا، أيها الوضيع، أنت لا تفقه شيئًا عن السيادة. أتدري لماذا أزدريك الآن؟ لأنك نزعْتَ حرية إنسانٍ بضربة سيفك الجائر، لأنك تجرأت على قتل حياة بينما تظن نفسك حاكمًا هنا.

أنت لا تميّز بين القوة والسيادة، بل تخلط بينهما والخنوع. وهذا الخلط، أيها الجاهل، يجعلني أراك مثيرًا للاشمئزاز. إنك عارٌ على نفسك قبل أن تكون عارًا علينا".

وقفت لحظة، وتوجهت بكلامي إليهم جميعًا:

- "وهذا القول ينطبق عليكم جميعًا، بلا استثناء. إنكم لستم أسيادًا على أحد، ولا أحد وُلد ليكون سيدًا عليكم. في قلوبكم شعلة من الحرية، لكنها تُدفن تحت جبال الجبن والكسل، وكأنها طيفٌ من ذكرى بعيدة.

إن كنتم تطمحون للمال، فابحثوا عن الطرق التي تُحرركم. اتّجروا بما تملكون، حيث لا تُضطرون للركوع أمام صاحب سلطةٍ أعلى. وإن عجزتم عن ذلك، فاخرجوا، واسلبوا الغالي والنفيس. هذان العملان وحدهما يضمنان لكم أن تعيشوا دون قيد، كما ولدتكم أمهاتكم أحرارًا.

أفهمتم الآن، أيها الجبناء؟ أفهمتم، أيها الوضيعون؟ أراكم كأشباحٍ باهتة، تتنفس العبودية وكأنها قدرٌ لا مفر منه. كائناتٌ طفيلية لا

تقدر أن تحيا دون سيدٍ يُسيّر أمرها. ومع ذلك، بداخلكم قدرة على التحرر، لكنكم تفتقرون الجرأة لاتخاذ أولى الخطوات.

كفاكم استسلامًا لهذا الذل! فليكن هذا خطابي الأخير إليكم، إن كنتم عازمين على البقاء في خنوعكم المهين، بدلاً من أن تنفضوا عنكم غبار العبودية وتصبحوا أحرارًا بحق".

فقال القاتل بأسف شديد :

"أنا آسف، أشد الأسف، ولن أكرر ذلك أبدًا... لكن هل تأذن لنا، بل أرجوك أن تسمح لي بأن أرافقك في رحلتك؟ أنت الذي قتلت الفيل، ولن يتركوك وشأنك بعد الآن. فما رأيك؟ دعني أكون رفيقك في هذه الرحلة".

تنهدت من الغم والكبرياء، فكانت أنفاسي تتقطع بين مشاعر الهمّ والاحتقار، بينما شعرت بحاجة ملحّة للتحكم في مشاعري المتضاربة. أطلقت صوتي بهدوء، رغم زئير العواصف الداخلية التي تهزني:

- "إن كان هناك من يريد الذهاب معي فليأتي".

تأملت في وجوههم، ورأيت علامات الاستغراب تتجلى على تعابيرهم. بدا وكأنهم يتساءلون عن سبب هذا التغير المفاجئ في نبرة صوتي. لم يكن كالأمر المعتاد. بعد لحظات، اقترب مني مدرعان اثنان بخطوات حذرة فقُلتُ:

- "لا تقولوا ما حدث هنا لأي أحد، فقد أغضب... لأنني سأجدك أينما كنت."

أكملت حديثي، بينما كانت عيني تتابعهم بصرامة:

- "وأيضا، ما أسماءكم أيها المدرعون؟ ولا تنادوني بألقاب تشريفية، فقط 'أنس.'"

فرد الشخص القاتل وهو ينزع خوذته. وعندما ظهرت ملامحه، كان ذا شعرٍ أخضر داكن... يشوه وجهه جرح عميق أخذ إحدى عينيه، بينما الأخرى كانت سوداء. شعره الطويل مُربوطٌ بمشبك ذو شعارٍ يرتسم عليه أفعى تأكلُ ذيلها، مما أضفى عليه مظهرًا غامضًا. من نبرة صوته، كان واضحًا أنه من النوع الذي يقوم بعمله بأتم وجه، فبدا لي محترمًا وملتزمًا :

- "سمتني أمي 'بيرفيل' من 'بريغابلو'.."

- "أنا 'سيفيليا'."

جاءت الكلمات من أحدهم، لكن ما أدهشني هو صوته الأنثوي، الذي بدا قويًا وصارمًا في نفس الوقت. "كيف يُعقل للفتيات أن يقاتلن في هذا العالم القاسي؟ ليس وكأن إمريكا لا تحتوي على جيش للنساء... لكن من الواضح أن هذا العالم لا يزال في عصره القديم... حيث يتواجد العبيد والنبلاء... ويكثر القتل واللا قانون." قُلت في نفسي.

عندما نزعت خوذتها، انبثق شعرها القرمزي، لونه أحمر يميل إلى الإسوداد، يضيف إلى مظهرها جاذبية غامضة. عيناها الحمراوتين القانيتين، كالنيران المتقدة، تحملان قصصًا لم تُروَ بعد، وكأنهما تشعان بحماس للمواجهة. كانت جميلة أيضا... طولها الأقل من طولي بقليل كان يحجب العضو الأكثر تميزا في فرقتنا الجديدة، فقال الأقصر بحماس يذكرني بكالسون...

- " 'مارك' من أماداستينا."

كانت كلماته تحمل نبرة ثقة، كان شعره بنيًا لامعًا أقصر من 'بريفيل'، يتلألأ كأنما تُغمر خصلاته بأشعة الشمس، لكن ما كان يلفت الانتباه حقًا هما عيناه الرائعتان، قزحيتان، كأنهما تأتيان من بئر الخيال. إحدى عينيه كانت ذات لون أرجواني، تضيء كأنما تحمل

سحرًا غامضًا، بينما الأخرى كانت زرقاء، زرقاء كسماء صافية في يومٍ مشمس. ذلك التباين بين لون العينين أضفى على ملامحه غموضًا وإثارة.

بدت ملامحه تعكس القوة والضعف في آن واحد، كان أقصر مني بكثير، مما جعلني أشك في عمره. لكن عندما أخبرني بأنه يبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا، شعرت بالدهشة تتسلل إلى أعماقي، كيف يمكن لشخص يبدو بهذا الصغر أن يكبر 'كالسون'؟ سألته بتعجب:

- "كيف لك أن تصغرني بثلاث سنوات، بينما أنت أقصر مني بكثير؟"

أجابني بعبارة هادئة لكنها تحمل في طياتها عزمًا قويًا:

"إنها حكاية طويلة، لا وقت للحديث الآن. هيا، دعنا نذهب"!

كان صوته يحوي على شيء من الحماس والسرعة، وكأنما يستعجلنا للانطلاق في مغامرتنا... في تلك اللحظة، تأملته بعمق، فكان حقًا يشبه 'كالسون' من حيث الجرأة والإصرار، تلك الروح التي لا تخشى المجهول...

وأيضًا، لم أستطع أن أضع يدي على ما إذا كنت قد سمعت اسم أماداستينا في مكان ما، لكن ذلك الاسم كان يراودني كذكرى بعيدة، تُخبئ في طياتها الكثير من الأسرار... أخذت نفسًا عميقًا، مُدركًا أننا الآن معًا، في طريقنا إلى ما لا يُعرف، وفي قلب هذا العالم الذي يزخر بالتحديات، ربما سنكتشف ما تعنيه الحرية حقًا... قُلتُ في نفسي:

- " الحرية بالنسبة لي ذات مفهومٍ أخر..."

5

كالسون فالدريك

أنس لم يكن الشخص الذي ينسى أو يخلف المواعيد، على الأقل، هذا ما كنت أعتقده. كان في كبريائه شيء من الصلابة، لكن في نواته، في قلبه، كان رجلاً بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ. رجلٌ تحس فيه ملامح الرجولة تتشكل في سلوكاته، في هدوئه، في نظرته للعالم. ولكن الآن؟ شيء ما تغيّر، شيءٌ غريب بدأ يتسرب إلى هذه الصورة المثالية التي رسمتها له في ذهني. الريبة بدأت تأكلني...

كانت الشمس تميل نحو الغروب، تلون السماء بخيوط ذهبية خافتة تراقصت على أفق مدينة غارقة في ضوضاء الحياة اليومية، كل يوم يمضي كان يضيف وزنًا على قلبي، يثقل روحي بتساؤلات لا تنتهي: لماذا لم يتصل؟ ماذا حدث له؟ لماذا أشعر أنني معلق بين الحقيقة والخيال؟ مرّت الأيام ثقيلة، وأنا أعيش في هذه الحالة الغريبة، أتحدث إلى أنس، ولكن دون أن يصل صوتي إليه. كنت أتخيل أنني أحادث أنس فبهذه الطريقة أتصل معه عقلياً، لا بصرياً ، لكن، هناك شيء يقذفني عن إتمام الإتصال، أظن أن هذه القوة الغامضة، نعم لم أكن أفهم استخدامها كما يجب...

وها هو اليوم المئة قد أتى، مئة يوم دون صوت أنس ودون خبر عن ندى. اختفت هي الأخرى، ولا أحد يعرف عنها شيئًا سوى أنها "استقالت"، كلمة بدت لي غريبة، مليئة بالغموض. هل طُردت؟ هل رحلت بإرادتها؟ لا أحد يعرف، ولا أحد يبالي. لكنني كنت أخشى

الأسوأ، ثم جاء ذلك اليوم الذي رأيت فيه العالم الخارجي من جديد، بعد أن عشت تسعة أشهر في جسد أنس. ثلاث أشهر دون اتصال، وثلاثة أشهر دون أخبار عن ندى، رغم حبي لندى. إلا أنس هو الأفضل، كان ولا يزال صديقًا حقًا، الشخص الذي لم أخن ثقتي فيه ولو لمرة...

وصلت إلى باب المستشفى بخطوات رتيبة، قدماي تقوداني تلقائياً، بينما عقلي غارق في أفكاري المتشابكة. العالم من حولي بدا كأنه قد تغيّر، كأنني أنظر إليه من منظور آخر بعد هذه الفترة الطويلة في جسد أنس. الشوارع كانت مليئة بتلك الأشياء الفولاذية التي تنطلق بسرعة، مثل أحصنة برية جُنّ جنونها. أتمشى كما اعتاد أهل وطني أن يروني، يداي في جيبي، ظهري ورأسي منحنيان قليلاً إلى الأمام، بحزام حقيبتي في عنقي لتتأرجح بخفة مع الهواء. مشيتي التي عرفني بها أولو وطني، تلك الخطوات التي تجاهلوها وكأنها لا تحمل لهم معنى، كانت مع ذلك محط أنظار الجميع في أنحاء المغرب كنت أتحرك دون وجهة محددة، تاركًا أقدامي تقودني حيثما شاءت، كما لو أنني عابر بين الأزقة والمدن دون أن أنتمي لأي منها. ولكن في كل خطوة كنت أشعر بنظرات الفضول تلاحقني، تلك التي لا تعرف حقيقتي ولكنها تأبى أن تتجاهل حضوري...

وفجأة، استوقفني مشهد غير عادي. أفعى صفراء بنقاط سوداء، قصيرة الطول ونحيلة الجسد، كانت تلتهم ذيلها ببطء. اقتربت منها، شعرت بأنني أقترب من لغز مجهول. كنت أتمتم محركا شفتاي:

- "هل هذا أمر عادي في المغرب؟"

ممم.. تساءلت بحيرة. لا أظن ذلك. لو كانت هذه الأفعى متواجدة حقًا، لكان أنس قد أخبرني عنها. لا، مهلاً، ربما لو كانت منتشرة

بكثرة لظن أنس أنها جزء من عالمي أيضًا، لذلك لم يتطرق لها قط.

ما إن وصلت حيث كانت الأفعى، حتى رأيتها تعض ذيلها بعنف. كان الأمر سريعًا، فقطعته في لحظة. فإذ بها تفر ورؤيتها لي، لكن ما أثار إنتباهي هي ما تلت التمزيق... وقفت أراقب بينما الدماء بدأت تتسرب منها وتنساب على الأرض الجافة، وكأنها ترويها. الغريب أن الدماء تسربت بينما شكلت على التراب صورة أفعى أخرى، تلتهم ذيلها هي أيضًا... أظن أنها صدفة لا تحدث إلا في المغرب، المشهد كان يشبه لوحة فنية غريبة، فأخرجتني دهشتي عن وعيي وقلت:

- "يا للخسارة، لقد كانت جميلة... كنت أنوي تربيتها. "

ألتفت يميني فأجد كرسيًّا خشبيًّا عريضًا، بدا لونه قاتمًا يبعث بشعور غريب في النفس. كان الكرسي يبدو متينًا، ثابتًا، لكنه يثير في نفسي تساؤلات، قصصٍ قديمة طُبعت على سطحه، فتعطيه تشققات شدت إنتباهي، فإذ بي لمحتُ أثر الدماء على الأرض، دماء الأفعى التي أثارت استغرابي. لكنها هذه المرة... لم تعد غريبة، لم تعد غير مألوفة. كانت تسري على الأرض ببساطة، كسائر الدماء، وكأنها جزء من المكان نفسه، تروي التربة بصمت.

أحسست أنني أريد أن أجلس، أن أستريح، لكن شيئًا ما في داخلي دفعني للاستلقاء عوضًا عن الجلوس، مددت جسدي على الكرسي بطريقة تمنع أي شخص آخر من مشاركتي إياه، وكأنني أحمي مساحتي الخاصة. وبينما كنت أستغرق في هذا الهدوء، رأيت رجلًا يقترب، يضع قلنسوة تُخفي معظم ملامحه، وخلفه شخص آخر أقصر منه قليلًا، يرتدي واحدة مشابهة. جذبني مشهد خصلة شعر زرقاء داكنة تتدلى من أسفل قبعة الأول؛ خصلة شعر تشبه شعر أنس،

وبدت وكأنها تلمع بخفوت تحت ضوء الشمس التي تكاد تغرب. الشخص الذي يقف خلفه أثارني أكثر، عيناه... كانتا تلمعان بنظرة شرقية، يابانية، شيء في نظراته جعلني أشعر أنني قد رأيت هاتين العينين من قبل، في مكان ما، لكنني عجزت عن تذكر متى وأين؟، بينما كنت مستلقيًا، كسر الرجل الصمت بنبرة هادئة، وصوت واثق حمل نوعًا من التحدي، قال بوضوح يسري ببطء في الهواء من حولي...

- " أيمكنك أن تخصص مكان لي في هذا الكرسي ؟ "

كنت أودّ صرفه دون تردد، لكن في داخلي كان ينبض شعور جديد؛ رغبة في أن أبدأ صفحة بيضاء، صفحة لرواية خالية من كل ما يلوث الروح. لا سجائر، لا كحول، ولا فتيات يعبرن فيها. أردت نسيان العادات التي أثقلتني، والابتعاد عن الدروب التي لطالما سرت فيها.

بابتسامة ساخرة حملت في طياتها شيئًا من الغم، ونبرة أظهرت مزيجًا غريبًا من الأنانية وشيئًا من السخرية التي تغلف الضحك الخفيف، قلت له:

- "ما رأيك أن أُعيرك بعضًا من همومي؟ ربما تدرك حينها أنك لا تستحق هذا الكرسي، أليس كذلك؟"

توقعت منه ردًا عابرًا، لكن ما استوقفني حقًا كان حماسه غير المتوقع، وكأنه يتطلع إلى الصداقة رغم كل شيء. ردّه أتى بعبارات مثقلة بالمعرفة والغموض، وكلمات كأنها تسللت لتخترق عقلي وتبعثر يقيني:

- "لا، إنك حقًا ذكي، يا من احترف خداع الآخرين... لا أرى فيك ذرة ندم رغم كل هذا. إذن، قل لي، هل همومك تلك تحمل بصمات ماضٍ أسود؟"

توقف لبرهة، ثم أخذ ينظر حوله بحذر كأنما يخشى مطاردة خفية، وكأن عيناه تراقبان كل من حوله. رفع رأسه ليكمل بصوت متعالٍ وكبرياء لم يخلو من التكبر:

- "أليس كذلك... أيها الوضيع، كاسون".

لقد استنزف عقلي، وكأن موجة قوية ضربت أفكاري، شتتتها وأفقدتني القدرة على التركيز. لكن رغم هذا، لم أسمح له أن يلمسني بسؤاله المباشر. حين نطق كلمة "كالسون"، حاولت التظاهر بالغباء، بتلك الحيلة التي أعتمدها كثيرًا، وأجبت بلهجة مغربية عفوية، مع لمسة من طريقة كلام أهل أماداستينا التي أضفت عليها سخرية مريرة:

- "هوي هوي، ما الذي تريده مني؟ أنا أدعى أنس، ولست كالسون... وأيضًا، أتظنني غريبًا، حتى تسميني كالسون؟ يا لك من رجل"...

لاحظت رغبته في الرد، لكنني لم أمنحه الفرصة وتابعت مقاطعًا بصوت يتصاعد بالحدة:

- "دعني أكمل كلامي... يا لك من رجل تشبه شخصًا أعرفه معرفة لا تخفى عني".

فجأة، ومن دون تحذير، رأيته يقوم بحركة غير متوقعة؛ صعد إلى الكرسي الذي أستلقي عليه، وضع قدميه بين رجلي، وبدأ يميل ظهره إلى الوراء ببطء، واصل الميلان حتى وصل إلى زاوية لم أظن أن بشرًا يمكنه أن يصل إليها. وكأنه كان يستخدم قدميّ كدعامات ليقوم بهذه الحركة. في نفسي رغبة خفية، دفعتني لإزاحة قدمي عن موقعها، ربما لأسقطه أو لأقطع عليه هذه الجرأة. لكن حتى بعد أن أزحت رجلي، لم يتراجع؛ كأنَّ توازنه لم يكن معتمدًا عليّ أصلًا.

رفع رأسه وابتسم تلك الابتسامة التي أزعجتني، ثم أشار نحوي بإصبع ثابتة، فيما قبعته -قبعة تحمل طابع المطر الكئيب انزلقت على الأرض كاشفة عن ملامحه. تلك العينان البرتقاليتان لمحت فيهما شيئًا من فوريو، بل أكثر من ذلك، كان شعره الأزرق الداكن، شعرٌ طويل، يماثل طول شعري حينما كنت في جسدي القديم. وعلى هذا اللون الأزرق، تداخلت خصلات برتقالية متوهجة، بل كأنها نار مشتعلة تتراقص فوق رأسه.

لقد ارتبك عقلي في تلك اللحظة، تساؤلات عديدة دارت في رأسي. أيكون هذا بشرًا؟ كيف يشبه شعر أنس، وعيناه مثل عيني فوريو؟ الأسئلة انهالت عليّ كما ينهال السيل على أرض جافة، تملكتني، وكأنها تتسلل إلى أعماقي وتنهش يقيني.

نظر إليّ بنظرة متعالية، وتحدث بلهجة تحمل كبرياء غريب، كبرياء جعلني أشعر أنه يرى فيّ شيئًا أدنى، قال:

- "أيها القذر، إما أن تعطيني مساحة في هذا الكرسي، وإلا قتلتك".

هل كل هذا الكبرياء والسخرية لأجل هذه السخافة الممقتة؟ أهو جاد في طلبه، يريد مساحة في الكرسي؟ تصرفاته تذكرني بأنس، فقلت له ببرود:

- "لا أدري لماذا تشبه أحدًا أعرفه، لكن هل يمكنك أن تعطيني مكانًا أبيت فيه؟ سأحكي لك قصتي، فهي لا تصدق، لكنني متعب... وأيضًا، هل لديك أي علاقة بـ..-"

لم أكمل جملتي حتى قاطعني بلهجة متعجرفة:

- "أنا، هه، أتريدني أنا أن أريك مكان تبيت فيه؟ هل أبدو لك كوالدتك؟ هوي، أيها القذر، ألن تسألني السؤال الذي توقعت أن تسأله؟"

بدأت تتضح لي الإجابة، لكنني أردت التأكد:

- "ألديك علاقة بأنس؟ أتعرف فوريو؟ أقصد... الفينيق؟"

بينما كان غروب الشمس يُلقي بآخر أشعته، لمحت شيئًا غريبًا في عينيه؛ أصبحتا صفراء، صفراء بوهج لم أفهم كيف ظهر فجأة. أسأل نفسي باستغراب، لكن سرعان ما قاطع أفكاري صوته الجدي:

- "لنذهب إلى مكان آخر، مثل"...

توقف فجأة وتنهد، وارتفع صوت من بعيد، صوت شخص ينادي وينطق كلمات مجهولة، كان الصوت قويًا، كأنّه يتردد في أرجاء هذا "المغرب" بأكمله. ثم، بعد انتهاء النداء، أضاف الرجل وهو يعيد تركيزه عليّ:

- "...المكان المقصود".

بينما وقفت في حيرة، لمحت الشخص الذي خلفه، بدا على ملامحه الدهشة؛ كان واضحًا أنه لا يعرف شيئًا عن هذا المكان أيضًا. لكن ما أثار تساؤلاتي بشكل أعمق، كان سعاله المفاجئ، ذلك السعال الذي لم يكن عاديًا. كان الصوت أشبه بسعال أنثى، متردد وخفيف، فهل يعقل أن يكون هذا الشخص... فتاة؟

6

أنـــــــــس

حالما انتهى مارك من تقديم نفسه، أدرت رأسي ببطء، متفحصًا كل زاوية من الزنزانة بعناية كمن يستنطق الجدران. الحيطان تغلفها طبقة خضراء من الطحالب، جاعلة الهواء مشبعًا برائحة كريهة، فيها بعض من الرطوبة. الباب الحديدي أمامنا بدا متينًا لكن لا فائدة من متانته بعدما جُعل مفتوحا، ونافذة ضيقة منمقة في الجدار بعرض اليد بالكاد تسمح دخول شعاع خافت من الضوء وكمية محدودة من الأكسجين. أدركت أن الحياة هنا محكومة بهذا الشق الضيق الذي يمد السجناء بأبسط مقومات البقاء... على الأرض كانت الدماء متناثرة، حينها لفت نظري رأس الفيل المشوه، عيناه المفتوحتان بتحدٍ لكن بلا حياة، يحدقان في فراغ لم أستطع إدراكه.

مع أني سمحت لكبريائي بأن يجتاحني في تلك اللحظة، متغلغلًا في كياني كما لو كان درعًا منيعًا يحجب عني كل شعور بالندم أو التأنيب، فقد ارتفعت في داخلي موجة من الغطرسة أنستني أنني كنت اليد التي وضعت حدًا لحياة ذلك الرجل. للحظة، شعرت بانتفاضة داخلية، كأن شيئًا كان يهمس في أذني بأنني كنت أتصرف كملك يقضي ويحكم، وها أنا الآن، وسط كل هذه الدماء وذكريات المعركة، مستغرق في شموخي، غافلًا عن ثقل الفعل الذي ارتكبته... لكن، ما إن تلاشى صدى كبريائي، حتى انقشع ضباب تلك اللحظة، وعاد المشهد إلى وضوحه القاسي، فتذكرت وجهه، نظراته الأخيرة، الدم المتناثر حولنا. ومع كل تلك الذكريات، بدأت أفكر: هل

كان قتلي له فعلًا نابعًا من قوة وسيطرة، أم أنه كان مجرد غشاوة ظننتها كرامة، لكنها في الحقيقة كانت غرورًا؟

"علينا الإسراع"، تمتم مارك بنبرة حازمة وهو يشير بيده للباب. استجبنا لإلحاحه، لكنني وقفت لبرهة أتساءل: لقد ذكر الفيل في كلماته الأخيرة شيئًا عن "الأوروبوروس"، هذه الكلمة تحمل سرًا يثقل كاهلي بأسئلة كثيرة. هل كانت مجموعة؟ شخصًا؟ أو ربما قوة لا نعرف عنها سوى القليل؟ شعرت لو أن هذه الكلمة هي خيط نادر في متاهة غامضة... لكني في تلك اللحظة، أدركت كم أن ذهني مشغول ومرهق، فما إن تراودني فكرة حتى تتشابك مع أخرى كحلقات سلسلة لا نهاية لها. همست لنفسي بهدوء، "ربما علينا أن نسأل الوافدين الجدد إن كانوا يعرفون شيئًا عن هذا... لا، لندع هذا الآن، لقد زادت الأسئلة أكثر من طاقتي على التفكير".

خرجنا من الزنزانة، مترنحين بين شعور الحرية الموقتة ورائحة الموت التي لم تغادر المكان. مع كل خطوة، كأن أنفاسي تتقلص، أثقلها الهواء المشبع برائحة الحديد الصدأ والدماء. تقدمنا نحو ممرات مظلمة، حتى تبادر لذهني أننا قد نكون أمام عبيد مجبرين على الوقوف هناك كحراس. لكن قبل أن أطرح سؤالي، قاطعني بيرفيل بصوت جاد:

- "إنهم جنود، يُدفع لهم مقابل عملهم. إنهم ليسوا مثلنا... توخوا الحذر".

لم أكمل التفكير، إذ سحبت سيلفيا سيفها فجأة، وكأنها انفجار غاضب قُدر له أن يُحرر وسط الظلام، وانقضت على الجنود بلا رحمة. لحظات وتبددت الأرواح حولنا، أجساد تقطعت، رؤوس طارت في الهواء، وأيادٍ ارتطمت بالجدران، تاركةً بقعًا دامية وكأن الموت يقتحم كل ركن. كان المشهد مروعًا، ولكن أكثر من الرعب، هو

الصمت الذي ملأني، تلك اللامبالاة التي شُحنت بها، أيعقل أن أكون هادئا بعد كل هذا ؟ لكني أكثر من يعرف زماني المقيت الذي يعرف أكثر من مجرد قطع الرؤوس. أدرت رأسي لأرى مارك بجانبي، نظرة الحماس تملأ عينيه كما لو كان يتابع استعراضًا عظيمًا لا مجزرة دموية. التقت أعيننا، وبصوت غطى عليه صراخ الجنود المتبقين، قال:

- "ألـــت ســـيا مجـــة؟ ن،ـــي أـــيب في ـــ،ازـــها"!

صرخت بصوت عالٍ:

- "ماذا قلت؟ لا أسمعك"!

قال مجددًا بينما تتلاشى الصرخات:

- "قلت أريد منازلتها"!

قليل من الخوف ظل في داخلي، لكنه تلاشى أمام شعور أقوى، ذلك الكبرياء الذي يمسك بتلابيبي كأنه يحميني من كل تردد. بدا لي وكأنه قوة داخلية مبهمة، نوع من الغرور يتجلى كلما ذكر الفينيق، أو حينما أعرف أن أحدهم على معرفة بـ'فوريو'. لكن ما شككت فيه، كان غروري حينما يهينني أحدهم، هل غروري هذا ينبع من ثقل الأسرار التي أحملها أم من كرامتي الجريحة؟ لا أعرف بعد. لم أفهم قواعد هذا الكبرياء الذي يملكني، لكن بداخلي يقين أنني سأعرفها، ولو بعد حين. نظرت إلى بيرفيل لأراه ينظر إلى سيلفيا بنظرة، كأنها تحوي ما يتعدى الإعجاب؛ نظرة تذكرت فيها كيف كنت أنظر إلى 'تامايو'، وتساءلت إن كان قد وقع في حبها.

أكملت سيلفيا مهمتها بنبرة قاطعة قالت :

- "لقد نظفت الطريق... لنتحرك".

يا إلهي! هؤلاء الأشخاص ليسوا بشراً عاديين. كيف يمكنهم أن يظلوا مطمئنين بعد كل ما شهدوه؟ أدركت أنني بين أناس لهم ماضٍ مظلم، وربما أكثر سواداً من ماضيّ، ومع ذلك، لا أدري إن كان أحدهم يحمل ثقل العذاب الذي حملته في طفولتي، دون تفاخر لكني أجد نفسي أكثر قسوة منهم كلما تكبرت...

جرينا عبر الرواق الأحمر بالدماء، نتقدم في صمت ثقيل يخترقه وقع خطواتنا. ثم، مرة أخرى، تقابلنا مع جنود آخرين، وتكررت المشاهد ذاتها، سيلفيا تقتلهم، مارك يعلق بحماسة، وبيرفيل يحدق بها بنظرة إعجاب. ومع كل معركة جديدة، بدا أنني أغوص في عالمهم أكثر فأكثر، كأنني أحيا تجربة تُدون في صفحة غير مرئية في داخلي... بعد ساعتين من التوغل عبر الممرات المتعرجة والمتاهات الضيقة، خرجنا من السجن، ورأينا أمامنا سلالم تؤدي إلى قبو في غرفة مظلمة لها رائحة الخشب المبلل، إنها رائحة مميزة. وقفت ألتقط أنفاسي بصعوبة، وسألتهم بينما ألهث:

- "أين نحن الآن؟ هل كان السجن تحت هذه الغرفة؟"

بيرفيل : - "نعم، لكن علينا الإسراع قليلاً؛ سيرسلون تعزيزات قريبًا".

سيلفيا : - "كيف سيعرفون أننا هنا؟ لقد قتلتهم جميعًا، فلا يوجد من يبلغ عن الهجوم".

بيرفيل : - " ربما، لكن عندما تتعرض عائلة من العائلات الكبرى لهجوم، يتم قرع جرس للتحذير".

سيلفيا : - " لم تفهم سؤالي... كيف سيعرفون أصلًا أنهم يتعرضون لهجوم؟"

تلعثم بيرفيل، وقال بخجل :

- "آه... لا أعلم، حقًا".

هنا تدخل مارك بسخرية:

- "أيها الأحمقان، ألم تسمعا صرخة الفيل كورفيستد؟"

أدركت حينها أن خطتنا ليست متماسكة كما كنت أعتقد، وأن الأمور قد تخرج عن السيطرة في أي لحظة. تمتمت بصوت قاطع:

- "لنسرع، وبعدها سأستمع لقصة هذا العالم".

نظراتهم كشفت عن دهشتهم، وكأنني نطقت بلغة غريبة. تقدم مارك وسألني بفضول:

- "ماذا تقصد؟ من أين أنت، يا أنس؟"

أجبته بهدوء، فالهدوء هو شخصيتي الأصلية، لقد كنت هادئا دائما... برودية ولامبالاة تقتحم شعوري قبل أن ألتقي بفوريو، لكني الأن أصبحت أتكبر ولازلت لا أعرف شروطه :

- "أنا من عالم آخر، ولا أعرف شيئًا عن هذا المكان، فلا تزعجوني بأسئلتكم الآن؛ عندما نخرج، سنتحدث".

فقال بيرفيل بجدية ممقتة، أثارت إشمئزازي:

- "نعم، سيدي أنس، لن نزعجك أبداً".

تملكني الغضب، وصرخت فيه بغرور:

- "أيها الطويل الأخرق! لا تنادني سيدًا، نادني أنس فقط، لقد حذرتك يا من أراد أن يُستعبد"!

أجاب بحزن وأسف :

- "حسنًا، أنس، كما تريد".

وأخيرًا، عندما خرجنا من ظلام القصر، واجهتنا غابة كثيفة تمتد أمامنا بلا نهاية. أشرت إليهم بصمت للانطلاق، وبدأت أجري بأقصى سرعتي، كأنني أركض نحو شيء أجهله. تبعني مارك متحمسا كعادته، يصرخ:

- "أخر من يصل سيجمع الحطب"!

الجميع انطلق بجنون، كل منا يركض بكل قوته، وفي النهاية سبقنا مارك، وتبعته أنا، ثم سيلفيا، وبيرفيل في المركز الأخير. وصلنا إلى الغابة أخيرًا، وقد كان الليل في منتصفه، وصوت البوم يدوي في الأرجاء. أخذت ألتقط أنفاسي، توجهت بذهني إلى كالسون، محاولاً الاتصال به وكأنني أمد خيوطًا خفية نحو شيء مبهم، يضيع في فضاء لا حدود له. لا ردّ. صمت مطبق لا يشبه غياب الإجابة، بل أشبه بفراغ قاتم كأن شيئًا سلب منه الصوت والوجود. وقفت لحظاتٍ مشدوهًا، أتساءل إن كان فوريو هو المفتاح لإتصالنا، وإن كان سرّ الرابطة التي تجمعنا مع هذه الأراضي الغامضة. فوريو الآن بعيد، ربما في مكان ما وراء هذا العالم الذي لا أفق له؛ مكان لا أعلم عنه شيئًا، مكان أشعر بغربته ولكنه، في الآن ذاته، يحمل شعورًا مريرًا بالألفة، وكأنني جزء من ذلك الخفاء المرصود... لكن أيعقل أن يكون كل شيء مثالي...

إذ ببيرفيل يعود مترنحًا كمن خسر طريقه في متاهة من الظلام، في بطنه غُرز رمح حاد، إنه سهم الموت الذي أُرسل ليقتنص حياته دون تردد. الدماء تنساب من حوله بغزارة، كأنها ترفض أن تبقى في جسدٍ لم يعد له حقٌّ في الحياة. عيناه، تلك العينان اللتان لطالما

امتلكتا بريق الحكمة والرؤية الثاقبة، أصبحتا الآن خاليتين تدريجيًا من الحياة، كشمعتين تتلاشيان في وهج الريح الباردة. كان وجهه شاحبًا، لكنه لا يزال يحتفظ ببقايا نظرة تشي بالأسى، وربما بالندم، نظرة من يعرف أنه لا مفر من النهاية، لكنه يرفض الاستسلام الكامل. فقُلت:

- "ماذا حدث!.."

لحظات فقط مرّت، لكنها امتدت في ذهني كأبدية، كأن الزمن ذاته توقف ليستقبل هذا الرحيل الحزين. وجهي ملتصق بمشهد موتٍ غريب، متسارع، موت يقتحم اللحظة دون أن يمنحها فرصة للفهم. من فعل هذا به؟ من استطاع أن يغدر بشخص كأن قسوة العالم كلها اجتمعت عليه، لماذا؟

أمعنت النظر في وجه بيرفيل، وبدا لي في تلك اللحظة كمن يحمل سرًا يخفيه عنها، مفضلاً الصمت والصبر على البوح. ومع اشتداد الألم وازدياد النظرة الخالية في عينيه، هل يعقل أن يموت بيرفيل الآن دون أن ينطق بما كتمه لزمن؟ أن يترك الدنيا وهو لم يعترف بحبه لسيلفيا؟، تلك المرأة التي ملكت قلبه دون أن تدري؟ نظرة الأسى في عينيه لم تكن فقط بفعل الألم، بل أيضًا تلك الرغبة المكبوتة بالاعتراف، تلك الأمنية البسيطة في البوح، في أن يترك أثرًا يتجاوز حدود الموت، أن تكون له فرصة أخيرة ليقول لها كل شيء. وما إن تعثر بأنفاسه المتقطعة، حتى كاد يقع على أفعى صفراء منقّطة بسواد، تلتف على نفسها بأسلوب غريب، كانت تعضّ ذيلها في دائرة أزلية، فإذ بها تقطع ذيلها لتفر بسرعة، فيقول بصعوبة :

- " أبلغ..اه.. رســـ..ـالتي لسيلـ...ـفيا، 'إني... أحبها' "

فقُلت:

- "لماذا مُتّ أيها اللعين"

الفصل الرابع

1

نـــدى

بينما كنت أرمق ملامحه، غارقة في الحيرة والاضطراب، استقر نظري على عينيه الصفراء الغريبة. شيءٌ غير بشري يتلألأ في بؤبؤيه، كما لو أنه يحمل في عينيه نارًا داخلية تشتعل دون أن تنطفئ. غير معقول، رجل بمثل تلك الأعين، يطلق تلك النظرة الساخرة...

لماذا شعرت بحزنه في تلك اللحظة ؟ كيف له أن يشعر بالألم؟ أتراه قادرًا حقًا على ذلك، أم أن ملامحه الميتة تخفي وراءها سرًا أعمق من مجرد الشفقة أو الندم؟ كيف لشخص يمتلك هذا الهدوء المريب، الذي يكاد يخفي صلابة قاسية تتشبث بتفاصيله، أن يعرف طعم الحزن؟ كأن الحزن بالنسبة له قناع يرتديه ويخلعه، وكأنه شيء اختياري، يسيطر عليه ببرود كما يسيطر على ملامحه الجليدية تلك. لكن... هل كان حزينًا حقًا؟ أم أن حزنه مجرد وهم آخر يُضاف إلى سلسلة ألغاز شخصيته المتناقضة؟ لماذا إذن؟

وجدت نفسي غارقة في بحر من التساؤلات المتداخلة، كأنما أصواتًا تتزاحم في رأسي، تهمس وتصرخ في آن. ما هو هذا الشيء الذي يخفيه وراء عينيه الصفراء؟ أيمكن أن يلامس مشاعر البشر، أم أنه

مجرد متلاعب بكل شيء، حتى بمشاعره؟ تذكرت أختي، ذلك الوجه الحنون الذي أنهكه المرض وتكاليف العلاج، الصبر الذي تبديه، وكأنها هي الأخرى تخفي خلفه جبالاً من الألم والصراع. في قلب هذا المشهد المخيف، انبثق سؤال آخر كريه: ماذا عن أولئك الذين يهددون حياتي؟ من هم؟ ولماذا ألاحق بهذه الطريقة؟

فجأة، شعرت بشيء أشبه بغشاء ينسدل على عقلي. كان الخوف يسري في عروقي، يتمدد كما تتسرب البرودة إلى الجسد في ليالي الشتاء الطويلة، حتى خفتت الصور، وبدت ملامح العالم تتلاشى أمامي. ربما كان جسدي يترنح من ثقل الأفكار، أو من قسوة الحقيقة، حتى أظلمت رؤيتي تمامًا، أغمي عليّ...

ما إن استيقظت، حتى وجدت نفسي في نفس المكان، لم يتغير شيء سوى وضعي؛ كنت واقفة قبل أن تغلبني الدوخة، وها أنا الآن جالسة، كأنني لم أكن سوى دمية عادت إلى وضعها بعد سقوطها. كان يجلس هناك، متكئًا على فخذيه، أدركت سخرية عيناه اللتان تخفيهما قلنسوته، كأنّ سقوط فتاة مغشيًا عليها أمامه ليس إلا مشهدًا عابرًا لا يستدعي منه أي شفقة. كيف له أن يكون بهذه القسوة؟ كيف لشخص أن يترك إنسانة مرمية على الأرض دون أن يحاول فعل شيء؟

شعرت بالغضب والارتباك يتداخلان، فأمسكت بهاتفي، لأرى أن الساعة كانت الثالثة صباحًا. تلك اللحظة لم تكن إلا قطعة أخرى في هذا الكابوس المتلاحق. قررت أن أستجمع ما تبقى من كرامتي، وأتجاهله، متوجهة إلى منزلي الذي يقع بعد درجات السلم التي يجلس عليها، كأنها عتبات تنصبّ فوق مشاعري المتأرجحة بين

الضعف والخوف. كنت أعتقد أن الأمور ستنتهي بمجرد عبوري تلك الدرجات، لكن ذلك الأمل تبدد فوراً حين

بينما كنت أتقدم، أحسست بخلو يدي، بحثت عن محفظتي، لكنها لم تكن معي. لوهلة، غمرني شعور بالضياع، وتدافعت الأسئلة في ذهني، قبل أن ألتفت لأراه يحملها بين يديه حدقت فيه مرتعبة: لماذا أخذها؟ ماذا يريد مني بالضبط؟ أيمكن أن يكون كل هذا مجرد تمثيل؟ مشهد عبثي أدخلني فيه بإرادته فقط للعبث بي؟ وقفت مترددة، لكنني لم أتمالك نفسي، لأواجهه بصوت متردد مختلط بالخوف:

- " سأتصل بالشرطة... إنك سارق، أعد لي حاجتي "

فإذا به يمسك بتلك البطاقة البنكية التي أعطاني إياها، يرفعها بين أصابعه كما لو كانت شيئاً قذراً، كأنه يلمسها باضطرار، بأطراف أنامله، وكأن مجرد لمسها يزعجه ويراه إهانة له فيقول:

- "يا لوقاحتكِ! تجرؤين على اتهامي بالسرقة؟ هل فقدتِ عقلك؟! أخذت ما هو لي، لا أكثر ولا أقل. سأستعيد هذه البطاقة لأني لا أملك أدنى ثقة بك. قد تخدعك النقود، فتدفعكِ لإهدارها على نفسكِ، وتتركين أختكِ لتواجه مصيرها، فأنا أعرف جيداً نوعك".

أتراه يظن أنني قد أختلس المال لنفسي؟ لماذا أعارني إياها إذن؟ وإن كان يعرف ما أفعله لأجل أختي، لأجل إنقاذها من المرض، هل سيظن بي السوء حقًا؟ أيمكن أن يكون على علم بما يجري في داخلي، بتلك المعركة التي أخوضها في صمت؟ لم يكن أمامي سوى أن أتساءل: "ماذا سيقول كالسون إن عرف حالي؟" كالسون، ذلك الاسم الذي يتردد في أفكاري، وذاك الشخص الذي طالما شغلني

رغم كل شيء..: لماذا لا زلت متعلقة به؟ أي قوة تلك التي تربطني بشخص بات جزءًا من ماضي، غامضًا تمامًا كحاضر هذا الرجل الذي أمامي؟ وهل الحب هو حقًا ما أحس به، أم هو مجرّد ارتباك عاطفي أملاه عليّ هذا الشتات؟

وفي خضم هذا التيه، عدت إلى اللحظة، استجمعت أفكاري لتقع عيناي على الفراغ. كان قد رحل، تاركًا خلفه صمتًا مطبقًا يملأ الفراغ. هل ظللت غارقة في أفكاري طويلًا، أم أنه اختفى كعادته بسرعة خاطفة، كشبحٍ يتلاشى في الهواء دون أن يترك أثرًا؟ كيف لشخص أن يتقن هذا التلاشي؟ لحظة وجوده كانت صارخة، متخمة بأسئلتها وسخريته، وفي غيابه، بدا وكأن أثره لا يزال يسيطر على المكان. فجأة، تساءلت، وبقشعريرة تسري في جسدي: هل يوجد عاقل على وجه الأرض يمكنه فعل ما يفعله؟ هل يمكن أن يكون بشريًا؟ أم أن في أعماقه أسرارًا ليست للإنسانية عهد بها؟

رأيت محفظتي ملقاة على الأرض، كأنها دليلٌ صغير على وجوده، لكنه كان قد أخذ البطاقة، تركها عن قصد. وبجانبها، كان هناك ورقة صغيرة تحمل كلمات تلامس الرعب في نفسي. أخذت الورقة بيدي، وكلماته كانت مكتوبة بخط غريب، حاد، يقول:

- "ستتكرر لقاءاتنا... فتذكري الشروط إن كنت تريدين المحافظة على حياتك".

إنني أعرف صوته حق المعرفة، فلماذا لا أعرفه؟ تسللت الكلمة إلى أعماقي ببطء كأنها سم زعاف يسري في جسدي دون أن أستطيع طرده. دخلت منزلي، صمت ثقيل يلف المكان الصغير الذي أسكنه. غرفة واحدة ومطبخ وبهو بأثاث ياباني الطراز، كأنني أبعد نفسي عمداً عن كل ما هو مغربي معتاد. نظرت إلى طاولة صغيرة في الزاوية، حيث صورة أختي تبتسم لي بتلك النظرة التي أعرفها جيداً،

مليئة بالألم والصبر... أغمضت عيني وانهرت على السرير، محاولة التمسك ببعض من الأمان.

لكن حتى في أحلامي، لم أستطع الهروب. كان الصوت يتردد مجددًا، بضحكة خافتة كأنها تأتي من عالم آخر، نفس الجملة التي ألقتها الورقة لي، تتكرر، كأنها صدى يتعال:

- "ستتكرر لقاءاتنا... فتذكري الشروط إن كنت تريدين الحفاظ على حياتك، هههه".

2

مرت الأيام كمرور المرار في الممر، وكأن كل لحظة تمر كجرعة من الألم تُضاف إلى كأس حياتي المليء بالخيبات. اعتزلت عمل الطبيبة، العمل الذي لطالما أحببته بعمق، لماذا؟ لأنني مُتحكَم بها. فتاة، لا، امرأة تعيش كعبد لأشخاص لم أرَ وجههم الكامل، ولم أستطع أن أرى في عيونهم شيئًا سوى اللامبالاة. أكره حياتي، وكأن القدر يسخر من أحلامنا التي كنا نعتبرها قدوة، شيئًا أطمح للوصول إليه، بينما يراها القدر مجرد "ماجيك كيوب"، لعبة ملونة بألوان، أراها أسود وأبيض...

لماذا أستمر في القيام بأشياء عظيمة رغم يقيني من عدم تحققها؟ أعيش في بؤس، وكأنني سجينة في زنزانة مظلمة، حيث يأخذني العالم في طريق لا أرى أفقه. أشعر أنني على حافة الجنون، يا لحزني ويا لمأساتي، إنه شعور لا يُوصف. وكأنني أتناول عفناً قذراً من مياه الأنفاق ، كل قضمة منه تجلب لي التقزز وعذابًا لا يحتمل.

تعودت على البكاء، وفي إحدى المرّات، نظرت إلى المرآة ورأيت دماً يتسرب من عيني. ليس تعبيرًا مجازيًا، بل حقيقة موصوفة. قزحيتي الرمادية تزداد بياضًا مع كل دمعة حزن تتسرب من ذلك المكان، الذي لا أستطيع وصفه لأنه لا يحمل اسمًا. أسفل أقصى يسار عيني اليمنى أو أقصى يمين عيني اليسرى، تتساقط الدماء والدموع لتشكل مزيجًا متجانسًا بين الأحمر والشفاف، كما لو كنت أكتب شعرا أدبيا رغم دخولي مدرسة الطب.

قررت الذهاب إلى المطار، أخذت معي كل شيء، أغراضي، آمالي، لكني لم أخذ أحلامي، تلك التي تركتها هنا. أنا ذاهبة إلى اليابان،

ورأسي مطأطأ، أجذب حقائبي على الأرض، بينما أبدأ حوارًا مع نفسي:

- "لماذا سأعود؟ أريد البقاء، أريد أختي "!

- "أختك، إنها ميتة... نعم، لقد دفننا جثتها قبل أسبوع، أتذكرين؟ نعم، نعم، لقد بكيتِ دمًا، أيتها الحمقاء".

كل هذا الحزن بسبب رحيلها، لقد ماتت أختي قبل أسبوع من الآن، فبعد ثلاثة أيام من رحيل الرجل الغامض، اشتد مرضها... ثم اختنقت، لتفارق الحياة. لذلك أنا ذاهبة إلى موطني، لأعود إلى جدي وابنته التي لا تعرف معنى الأخلاق. لكن، هل يمكن أن يدع الكاتب - القدر - القصة هكذا، أم أنك ستعيد أختي إلى الحياة... أو تقتلني أيضًا. لكنك ستصنع رواية لن تنال إعجاب الناس...

أشعر بثقل الحزن يطغى على صدري، وكأن كل نبضة منٍ قلبي تحمل في طياتها ذكريات الأوقات الجميلة التي قضيناها معًا، تلك الأوقات التي أضحت كأحلام بعيدة، والآن، بعد رحيلها، أجد نفسي أسيرَة في ظلام لا ينتهي. كيف يمكن للزمان أن يمر دونها، وكأن كل لحظة تمر هي تذكير بفقدي الذي لا يُحتمل؟

أدركت أنني لست في حاجة إلى العودة إلى الماضي، بل يجب أن أواجهه، أن أتعلم كيف أعيش دونها. لكن كلما حاولتَ الهروب من ذكرى أختي، شعرت بأن الألم يستحيل أكثر، وكأنني أُحبَط في دوامة من الحزن واليأس. ما زلت أسمع ضحكتها، ورؤيتها تلوح لي في كل زاوية من زوايا ذاكرتي. كيف لي أن أعيش في عالم بلا روحها، بلا وجودها؟

أقف أمام بوابة المطار، مترددة. قرار المغادرة إلى اليابان ليس مجرد رحلة جغرافية، بل هو هروب من معاناتي، لكنه في الوقت ذاته يهدد

بفقدان كل ما تبقى لي. كيف سأعيش وأختي تخت الأرض، كيف سأتحمل كل تلك الذكريات التي تنخر في قلبي؟

تتمزق أفكاري، وقلبي يمتلئ بالشكوك، لكنني أعلم أنني بحاجة إلى القوة. فقد كان لأختي حلمٌ في الحياة، حلمٌ لم تُتاح لها الفرصة لتحقيقه. فهل أستطيع أن أحقق هذا الحلم نيابة عنها؟ وهل ستمكنني هذه الرحلة من إيجاد نفسي مجددًا، رغم كل الألم الذي يحاصرني؟

هذا ما يجب أن أعرفه، هذا هو تحديّ. وعندما أخرج من هذا المطار، سأبدأ رحلة جديدة. رحلة للشفاء، وللعيش بذكراها في قلبي... لكن ألست عبدة، أعيش في ظل أختي، ألا يدعى هذا تطفلاً" عدم القدرة على العيش في غياب المرء"، إنني أدركت وجود هذه الفرضية في قاموس العبيد...

فجأة، رن جرس هاتفي، وارتعش قلبي في صدري. رسالة إلكترونية وصلتني من شخص مجهول، دخلت تطبيق "واتساب"، ومع كثرة الرسائل التي وصلَتني، أخطأت عدة مرات في الدخول إلى حساب الشخص، لكنني دخلت في النهاية. تسارعت سرعة دقات قلبي ورؤيتي لها! صورة ورسالة. الرجل الغامض عاود مراسلتي بأسوأ طريقة... يجلس في منزلي الذي هجرته، في وضعية مهيمنة، يد من يديه الطويلتين على يمين الأريكة، وقلنسوته تغطي عينيه كعادته. ضحكة لا تعبر عن فرح، بل ترمز إلى الشر المطلق.

يمسك برأس رجل، هو نفس الأدمي الذي يبتزني، رأسه مقطوع حقًا، والدماء لطخت بهوي ياباني الطراز. ما لفت انتباهي قليلاً هو تلك الأفعى التي تعض ذيلها، أفعى بطول الشبرين، رقيقة كأنها دودة، لونها أصفر منقطة بأسود، وهي في الخلفية. لا أظن أنه وضعها

عمدًا، لأنها كانت قرب غرفتي، لا أدري إن كان سيرى ذلك أم لا. والرسالة تقول :

[Listen bitch!? Don’t you dare leave Morocco.., or I swear I'll make you regret it, just like I did with that scoundrel]

لم أفهم جملته، فنسختها لأترجمها. إنه يقول...:

- "اسمعي يا عاهرة، لا تجرؤي على مغادرة المغرب، وإلا أقسم أنني سأجعلك تندمين، تمامًا كما فعلت مع هذا الوغد."

لماذا؟ لماذا؟ أكثر من أردت نسيانه هو أنت، إذن لماذا تلاحقني؟ إنه يقتل الناس ويهددني؟ سأتصل بالشرطة، أقسم أني سأفعل... ضغطت على الرقم 19، لكن الوضع ليس عاديًا. وكأنه يتحكم في ذلك الذي يُحَكّمني، فجأة انعدمت الإشارة. لماذا الآن؟ أيعرف أين أتواجد؟ فجأة، رأيتها، إنها تلك الأفعى مجددًا. هل لها علاقة به؟ تعض ذيلها بقوة حتى قطعته ثم هربت بنصف جسدها. عدت أدراجي بسرعة، ساعتين بالضبط هي كل ما استغرقته من المطار إلى منزلي.

دخلت، لأجده في نفس وضعيته، يحرك يده بثقل كما لو أنه تركها فوق الأريكة لساعتين من الوقت. الدماء وصلت إلى حذائي، لأراها، إنها نفس الأحمر القرمزي القاني، أحمر إسود مع مرور الوقت. ما إن وصل مستوى معين من تحريكه ليده حتى أراني حركة إصبع الوسطى، علامة استهزاء، وكبرياء:

"ماذا يريد؟"

بالخطأ، تفوهت بما أفكر فيه فقال بصوت تعلوه الضحكات:

"همـ.. أريدكِ أن تبقي معي. لن أقوم بشيء سيء، فأنا لست من هنا، أنا أحترم الناس الذين أريد إحترامهم، وأكره البشر الذين أريد كرههم، وأنا أبغضك هههـ... لأنني أريد ذلك فأنا..."

بينما يقول ذلك يقوم من الأريكة ويلقي بالرأس في يده بعيداً متوجهاً نحو صورة أختي التي تركتها، فأهرب لألحقها، لكنها كُسرت. صوت الكسر وصوته يتجانسان ليقول بكبرياء، وهو يرفع يديه كأنما يدعو، لكنه يبتسم ابتسامة عرفتُها، إنها ابتسامة فرح. لكن لماذا أغلب عقلي يقول أنه حزن، كما لو أن المعرفة تملكتني:

"حـــــــــــــــــــــــر".

تلك الكلمة، رنّ صداها في ذهني. حر؟ ما الذي يعنيه ذلك؟ هل هو حقًا حر، أم أنه مجرد وهمٍ يُخفي خلفه سلاسل لا تُرى؟ يقطع الرؤوس، ويجعل من نفسه رباً فوق الجثث، ثم يزعم أنه يحترم من يريد احترامهم؟ ويكره من يريد كرههم؟ أتسمي هذه حرية، حرية تدعك تنزع أرواح البشر؟ إذن لماذا أنت حزين؟ كيف لشخص مثلك أن يصبح حزينا...

3

مرت شهران على وفاة أختي، وما زلت أسيرة مع الرجل الغامض الذي طلب مني أن أناديه "عصام". أعلم أنه ليس هذا اسمه الحقيقي، ففي عينيه بريق يشير إلى كراهية عميقة تجاهي بلا سبب واضح. هل كان مطلعًا على ماضيّ، أم أن لديه أسبابًا خفية تجعلني أستحق هذه الكراهية؟ أسئلة كثيرة تلوح في ذهني، لكنني أظل محاصرة في هذه الفيلا الفاخرة قرب الشاطئ، محاطة بجدران تجعلني أشعر بالعزلة التامة.

يُمنع عليّ الخروج منها، وبدلاً من ذلك، أُجبرت على القيام بالأعمال المنزلية من تنظيف وغسل الأواني والملابس، يأتي عصام بالطعام، وطعامه دائمًا فاخر ومبالغ فيه. أتذكر تلك المرة عندما عاد ومعه لحم مشوي، 'ستيك' مغطى برقائق من الذهب الصالح للأكل. كان الإفراط في المال مثيرًا للسخرية، بينما كنت أعيش في كابوس لا أستطيع الهروب منه... فجأة، أجد نفسي أسأله:

- "لماذا تشتري طعامًا فاخراً؟"

- "وهل لك شأن؟ أنا أبغضك... لكنك من المفاتيح للذهاب إلى ذلك المكان".

- "أي مكان؟ أريد معرفته؟"

- "ديـــــــــــها ســـــــــــوق راســـــــــــكِ".

دائمًا ما يرد بهذه ، تعبير عن الازدراء والتهكم في آن واحد، " هل لكِ شأن في هذا " عبارة مغربية تقال لما تصل مرحلة من الملل

تجاه الشخص، إنه حقا يبغضني... لكن قبل يوم من إكتمال شهرين على وفاة أختي، وبصوت جاد أدهشني قال:

- "في يوم اللقاء، سنلتقي بالمصير في ملتقانا"

لقد عادت ذكريات أختي تلاحقني، وكأن الوقت نفسه يعيد لي مشاهد الوداع المؤلم. شهران وأنا أعيش مع عصام، مقيدة في منزل لا أعلم موقعه حتى، كأني غارقة في ضباب كثيف. في يوم غامض، أخرجني عصام من المنزل، وأمرني بارتداء لباس ثقيل ذي قلنسوة، "قبية" رمادية اللون، مما جعلني أخفي عيوني. عندها، من رأني سيفكر أنني فتى، وليس فتاة محاطة بالغم.

سار بي بين الأزقة بخطوات هادئة، كأننا في لعبة غامضة لا أعرف قواعدها. خطواتي كانت غير مسموعة، تنصهر مع أصوات الناس حولنا، حتى بدأني شعور غريب يتسلل إلى أعماقي. كان الجو مفعماً بالحركة، حيث تتنقل الناس بين المحلات والأكشاك، لكنني كنت أعيش في عالم آخر، عالم يحبسني بين جدران من الشكوك والخوف.

بينما كنت أسير بجانبه، شعرت بأنني أُخفي شيئًا عميقًا في صدري، شعورًا يشتعل كلما تمشينا. كانت مشاعري – فضول – تتقافز بين الحذر والرغبة في الهروب، وبين الفضول الذي كان يدفعني إلى معرفة المزيد. كأن هناك شيء في هذا الكرسي، في ذلك المكان، يجعلني أشعر بأنه يتجاوز مجرد كونه نقطة في الأزقة.

أحسست بنبض قلبي يتسارع مع اقترابنا، وكأنني كنت أدرك أنني سأكتشف شيئًا مختلفًا تمامًا. وكأنما كل شيء في ذلك اليوم كان يلتقي لخلق لحظة ذات معنى، لحظة ستغير كل شيء. توقفت، وعصام أيضًا، وأشار إلي أن أكون هادئة. حينها، كان هناك شخص يجلس على الكرسي العام، لا يمكنني وصف شعوري تجاهه، لكنه كان يشع كالكواكب في السماء. لم أستطع إلا أن أُحدق فيه، إذ كانت

ملامحه تعرفني، وتثير في قلبي مشاعر مختلطة من الحيرة والانجذاب. كان يقلب عينيه بين الوجوه المحيطة، وعندما إلتفت لي، شعرت بدفء غير معتاد يملأني. مع إقترابي منه عرفت أنه ليس مجرد عابر ضل طريقه فجلس، إنما هو أمامي ذو العيون الزرقاء الداكنة، والشعر الطويل مائل إلى الأرجواني... إنه كالـــســـــون.

فبدأ بينهما حوار طويل، مشوشًا أفكاري، محيرًا كل ما كنت أظنه بديهيًا. جلست أستمع إليهما بصمت، لكن في رأسي كانت العاصفة تجتاح كل شيء. كيف يمكن أن يكون كالسون ليس هو أنس؟ فمن يكون كالسون إذن؟ ومن هو أنس؟ وهل فعلاً وجودهما مستقل؟ و"فوريو"، ذلك الاسم الغامض الذي ذكره كالسون من قبل... كيف يرتبط كل هذا بالفينيق؟ الفينيق الذي تعرفت عليه في أسطورة عائلتي، هل هو فعلاً مفتاح لما يجري هنا؟ بدا كل شيء ضبابيًا، كالقطع المتفرقة من حلم غريب لم أستطع استيعابه أو تذكره كاملاً. ماذا يقصد عصام حين يتحدث عن "المكان المقصود"؟ كلما حاولت الربط بين الكلمات، شعرت أن المعاني تتبخر أمامي، وتتركني أمام فراغ لا أملك سوى ملئه بظنوني .قاطع تفكيري صوت سعالٍ خفيف، خرج مني دون أن أدرك، فاستدار كالسون نحوي فجأة وحدق فيّ كأنه قد كشف سرًا دفينًا. كانت نظراته حادة، غامضة، كأنه رأى شيئًا خلف ظاهري. ثم جاءت نظرات عصام، نظرات تشي بالاستياء الواضح، وكأنه يلقي علي اللوم بقسوة صامتة، وكأن عينيه تقولان بوضوح: "دائمًا أنتِ السبب وراء كل المشاكل". عندها، شعرت بثقل وجودي، وكأنني غريبة تمامًا هنا، دخيلة في عالمهم. كان إدراكًا مؤلمًا؛ أنني هنا بمحض الصدفة، وربما لولا علاقتي بأسطورة عائلتي، لما كنت هنا من الأساس. بدت فكرة وجودي بلا معنى، وحقيقة أنني قد أكون مجرد أداة في لعبة أكبر لم أستوعب قواعدها بعد، ليقوم كالسون من الكرسي ويقول :

- " أنت لم تجاوبني، ألك علاقة بالفينيق ؟ "

- " ألم أقل لك أن تدع الأسئلة إلى 'المكان المقصود'، وأيضا أنت وهي وضيعان لا فائدة لكما إنما وجدتما هنا بالحظ فقط، فلو لم تربطكم علاقة بأنس، أو من له علاقة بأنس لما ذهبت إليك، ألا تفهم معنى الفرضيات؟ تظن أن مجرد فكرة جامحة، بلا سند أو منطق، تستحق أن تُسمى فرضية؟ كالذي يعتقد أن الجاذبية يمكنها أن تنعدم إن قرر القفز من أعلى مبنى، دون أن تؤذيه فقط لأن هذا يناسب رغبته. إن الفرضية يجب أن تكون مرتكزة على أساس متين، أو تحمل في طياتها تلميحات منطقية يمكن إثباتها أو تفنيدها، أما ما تفعله هنا فهو تخمينات عقيمة، أقرب إلى أوهام متعسفة.، وأسوأ ما في الأمر أنك تبني عليها استنتاجات وتصدقها كما لو أنها حقائق، وتظن أني على صلة بأنس، لمجرد أنك خمنت ذلك، لا، لا... "

فإلتفت إلى كالسون وقال له بإبتسامة سخرية:

- " أليس أنت هو أنس، ذو الشعر الأزرق الداكن"

- " حسنا، حسنا، لا يعنيني... أنت شخص تشبه جانبه المتكبر حقا، لكن... "

انصهر أسلوب كالسون فجأة، وتحوّل صوته إلى نبرة مهيبة تحمل وقع الرهبة، فارتفع إعجابي به كأنما يتسلّق مشاعر لم أدركها من قبل:

- " إن فكرت في إيذاء أنس بأي شكل، أن تضع عليه ظفراً من يدك... إعلم أني سـأقـتـلـك "

- " ستعرف كل شيء في المكان المقصود. كل ما أخفيته، كل تفاصيل القصة التي بنيتها هنا. لا يمكن كشفها دفعة واحدة؛ فالغموض جزء من جمال الرواية، فأنا أتجزأ هنا... أليس كذلك؟ "

خفت حدة الحوار، ليعود كالسون إلى طبيعته المرحة، وكأن الغموض مجرد مسرحية، واستدار قائلاً:

- " إذن... أنا أتطلع إلى قصتك... "

بعد مرور نصف ساعة من أذان المغرب، تكتسي السماء بألوان داكنة تشبه لوحة تمتزج فيها الزرقة العميقة باللون البنفسجي الخافت. النسيم الليلي يبدأ بالهبوب بلطف، حاملاً معه رائحة الأرض الباردة بعد يوم طويل من الحرارة، وكأن الهواء يتنفس الصمت الذي يسبق السكون. الأشجار تتحرك بحفيف خفيف، والضوء الخافت القادم من بقايا الغسق يتلاشى تدريجيًا، تاركًا الشوارع في هدوء يغلفه بريق مصابيح الطريق المتوهجة بخجل، وصلنا أخيرًا إلى "المكان المقصود" كما يصفه، مكان يختفي فيه ضجيج الحياة، خالٍ من منازل الناس، واحة ساكنة تغمرها سكينة غريبة. بدا المشهد أقرب إلى لوحة من زمن غابر، حيث تنبثق من الأرض صخرة عظيمة، يصل ارتفاعها إلى ما يزيد عني ضعفي قامتي، شاهقة كأنها تلامس السماء أو تحكي سرًّا قديمًا غمرته العصور. كانت الصخرة مثقوبة بنقوش غائرة، حفرت فيها يد فنان مجهول زمنًا أبعد من ذاكرتنا، وكأن جزءًا منها كُسر عن عمد، جزء يحمل معنى ضاع وترك فراغًا يثير الفضول. تقترب عيناي ببطء، وكأنها مسحٌ فني يخلّد ذكرى كيانٍ اندثر. شيئًا فشيئًا، ينساب بي التركيز إلى أعماق النقوش، وفي لحظة انبهار، أرى رمزًا عرفته منذ صغري؛ إنه "طفل الفينيق".إذًا، الفينيق هو الممسوح من هذه الصخرة.

في عائلتنا، كان هناك رمزٌ عميقٌ يجسد هويتنا، أسطورةٌ لا تزال تتردد أصداؤها عبر الأجيال، وهي "الفينيق" أو "فينيكسو." كان إسمي العائلي القديم تعبيرًا عن هذا المعنى، إذ كنا نؤمن بأن كل من يولد في عائلتي مُباركٌ بدعوة الفينيق، تلك الطقوس التي تُقام عند ولادة الطفل.

تتضمن هذه التقاليد الغريبة والمروعة قتل أكبر إنسان في عائلتنا، ثم إحراقه حتى يتحول إلى رماد، ليتم بعد ذلك مزج ذلك الرماد مع حليب الأم، وتتشكل منه ما يُعرف بـ "طفل الفينيق." كان يُعتقد أن هذا الطائر العجائبي يولد من رماد أبيه، مُجسِّدًا دورة الحياة والموت، ففي النقوش المحفورة على هذه الصخرة آثار الفينيق ورماده. لكن أحدهم قد أخذ جزءًا من هذا الفينيق... عندما يموت الفينيق، يتحول إلى رماد، ومن هذا الرماد يُخلق طفله من جديد، لتستمر الدورة الأبدية. كنا نردّد ونحن في وضعية "سيزا": "فينيكسو وا شينو كوتو أو كيوهي سورو" في اعتقادٍ أننا نُحيي تلك التقاليد. ومع ذلك، فقد كرهت أنا وأختي هذه العادات القاسية التي تربطنا بماضٍ مُخيف. لذا، قررت بجدٍ السفر إلى المغرب، حيث كان زوج عمتي مغربيًا، مما منحني الفرصة لمعرفة القليل عن ثقافته، وزاد حبي له كلما استمعنا إلى القصص التي تتحدث عن هذا البلد العريق. وكانت تلك الرغبة في الهروب من الماضي قد دفعتني إلى السفر قبل ثمان سنوات، بحثًا عن حياة جديدة، بعيدة عن تلك الأساطير التي تُقيدنا.

نظرت إلى كالسون لأجده غارقًا في تأمل النقوش، وعيناه تتلألآن بشيء من الإدراك. تحدث بتلك اللغة، نفسها اللغة التي يتحدث بها في المستشفى، لا تشبه أي لغة أعرفها، وكأنه يلفظ تعويذة خفية:

- " أجاريباكيلو أميدا.... أجاريباكيلو درام سوني "

فقال عصام بجدية :

- " تجهزو سنذهب الأن إلى 'المكان المقصود' "

فقال كالسون بعد أن مسح لعابه :

- " أظنني عرفت إلى أين سنذهب، سنذهب إلى.. "

إذ بعصام يفاجئ كالسون بحركة سريعة، ليضع يده على فمه وكأنه يخشى أن يوقظ شيئًا نائمًا، وكأن مجرد قول كالسون لذلك قد يُفجر زلزالًا في المكان. بدا لي عصام غاضبًا، ونبرته كانت تحمل ثقل التوتر في الأجواء. قال بصوت عالٍ يحمل نذيرًا من التحذير:

- "لا تقل شيئًا من نفسك! كل كلامك محسوب هنا. لهذا أنتم لستم مفيدين في أي شيء، مجرد إضافيين فقط! هوي... إلمسوا هذا الطائر هنا".

ثم أشار إلى "طفل الفينيق" الذي يقف شاهداً على تلك اللحظة، وكأن حياته تتوقف على ما سيقال. استل عصام شيئًا من حقيبته، قناعًا يشبه تلك الأقنعة التي تُستخدم في البيئات الخطرة، كأنما كان يُعدّ لاحتواء أسرار لا يجب أن تُكشف. كان واضحًا أنه يريد حماية كالسون من معرفة حقيقتي. ثم أضاف، بنبرة أكثر هدوءًا لكنه مليئة بالتوتر:

- " قلوا بصوت هادئ وأنتم تلمسون الطائر:

' الفـــيـــنـــيـــق مـــتـــحـــدٍ مـــمـــاتـــه ' ".

4

لقد صحت فرضياتي، وهذا هو شعار الفينيق. كنا أنا وكالسون، نتحدث بصوت واحد، حيث تداخل صوتي الخاشن بسبب القناع مع صوته الرجولي الذي كان يثير إعجابي. فجأة، حدثت تغيرات غريبة؛ شعرنا بدأ يتلون بألوان زاهية، فتدرج إلى الأحمر ثم البرتقالي وأخيرًا الأصفر، ليعود بعد ذلك إلى لونه الأصلي. كان شعري مربوطًا بوشاح، وكأنه درعٌ يحفظ هويتي، حتى لو انفكت القلنسوة كما حدث، لن يعرف كالسون من أكون.

في تلك اللحظة، شعرت برغبة ملحة، عطش لا يمكنني وصفه، كأنه غريزة تبحث عن إشباع، لكنها كانت غامضة ولا أستطيع تحديد ماهيتها. ربما كان الألم الذي يحتاج قلبي، أو شعورًا آخر لم أستطع فهمه. لكن عندما ألتفت إلى كالسون، رأيته يتألم بشكل أكبر، ممسكًا بشعره كأن الجنون قد بدأ يتسلل إليه. فجأة، رأيته يسقط، وكأنه يتهاوى تحت وطأة تلك التجارب. ما إن سقط حتى غبت عن الوعي.

استيقظت في غابة، غابة ليست كغابات المغرب، بل كانت مملكة من الجمال والعجائب. هناك، كنت أرى حيوانات نادرة؛ قطة تشبه الفهد، وقرد من نوع لم أسمع به من قبل. التفت يميني لأجد كالسون ملقى، وكنت أود إيقاظه، لكن تصفيق عصام فجأني من ورائي. وعندما التفت، وجدته يقول بصوت لطيف، يفيض بالثقة:

- "لقد نجحتم في الاختبار... أشكركم، يا 'هيناتا' ويا 'كالسون'."

استغربت عندما ناداني باسم 'هيناتا'، حيث تلاشت أوصافه القديمة، تلك العاهرة والوضيعة. كدت أبدأ الكلام، لكن استيقاظ كالسون

جعلني أنسى ما كنت أود قوله. نزعت قناعي والغطاء عني، وضمت كالسون إليّ بقوة، وأنا أبكي:

- "لقد كان صعبًا... أن تنسى شخصًا كنت تفكر فيه".

كنت أحتضنه بشدة بينما أرى ابتسامة عصام، فقال كالسون بتعجب:

- "كنت أمتيقنا من مجيئك في الأخير".

أردت أن أتحدث، لكن عصام قاطعني وكأنه يحاول كتمان ضحكه، حيث أضاف:

- "نحن لا نريد رومانسية هنا... فقط اتبعوني، لدي مفاجأة لكِ يا هيناتا".

توجه كالسون بنظرة مستفسرة نحو عصام:

- "هل الرومانسية هي أكلة أم ماذا؟ ولماذا تقول لندى هيناتا؟"

أجبته بوضوح:

- "إنه اسمي القديم، لقد غيرته منذ مجيئي إلى المغرب. والرومانسية هي عندما يكن للأحبة مشاعر حب لبعضهما، وعصام شبهنا بأننا أحباء".

شاهدته يخجل ويدير رأسه محاولًا عدم النظر إليّ... مرت لحظات من الوقت حتى وصلنا إلى منزل خشبي محاط بالعشب، وعندما دخلنا، كانت المفاجأة في انتظاري. رأيت فتاة ذات شعر أسود حريري، شعرٌ عرفته طوال حياتي. كيف؟! التفتت الفتاة لي، وقلبتني تلك اللحظة رأسًا على عقب، بعينيها الزرقاوين الداكنتين، وشعرها الأسود اللامع، وأنفها الصغير، وفمها الذي يبتسم بإشراقة... إنها أختي

- "أوكـــــايـــــري"

قالتها باليابانية، معلنة عن عودتي، وبدأت الدموع تتكون في عيني. كانت دموع فرح، وليست تعاسة، وضمتها إليّ بقوة أكبر مما فعلت مع كالسون، وأقول بسعادة:

- "تـــادايـــمـــا تـــامـــايـــو – نـــي".

لقد عدت ومعي كل الذكريات، الجيدة منها والسيئة، أعيشها كأنها تنبض في عروقي. أريدك أن تعيشي هذه المرة دون ألم، دون قسوة المرض الذي انتزعك مني المرة تلو الأخرى، يا أختي العزيزة. أتعلمين؟ لو أصابك المرض ثانية، لا أدري إن كان لي بقية من الصبر أو القدرة على الاحتمال. أحيانا أفكر أنني كنت سأنهي الأمر منذ أول لحظة، منذ أول وجع رأيته يسكن وجهك.

تخيلت مرات ومرات أنني سأحملك بعيدًا، بعيدًا عن كل هذه المعاناة. لقد حاربت الأيام لتكوني هنا، لأرى وجهك يبتسم من جديد، ولكن... لا أدري. هناك خوف عالق في قلبي، كأنني أقترب من هاوية، كأننا على حافة الفقد من جديد...

مر يوم منذ تلك اللحظة التي لا تُنسى، لأسمع كالسون يتحدث مع عصام:

- "هل الأفعى الصفراء المنقطة بالأسود متوفرة في 'المغرب' كثيرًا؟"

فجأة، رأيت الذعر يرتسم بوضوح على وجه عصام. كان يتنفس بجنون، أنفاسه تتسارع كأنها تنبض بالغضب المكبوت، وتدريجيًا، بدأت ملامحه تتغير، وملامح من الكبرياء والعظمة تحل مكان اللطف والهدوء اللذين أظهرهما منذ لحظات.

شعره بدأ يرتفع، وكأنه يتحدى قوانين الطبيعة، يتراقص بفعل نسمات خفية لا يشعر بها أحد سواه. عيونه تحولت إلى حمرة قانية، كجمرة من نار، تحمل بداخلها شيئًا غريبًا، مزيجًا من القوة والغضب. أحمرٌ دمويٌ لوّن شعره بالكامل، ليزداد منظره هيبةً وإثارة للرهبة، فيقول بغضب :

- "هوي.... أيها العبد، ما الذي تهذي به؟ لا يمكن لها أن تعود، كيف لأفـــعـــى الأوروبـــــوروس أن تـــعـود؟"

5

أنـــــــــــــس

الغابة، بوحشتها العتيقة، استحالت مع غروب الشمس لوحة قاتمة تجثم على الأنفاس. أشجارها الخضراء التي كانت تنبض بالحياة انطفأت ألوانها، واستحالت ظلالًا مخيفة تحاكي عذابًا نابعًا من قبر كافر. المشهد أمامي لم يكن مجرد منظر، بل كيان حي يلتهم بصري وعقلي، فيما صوت خافت ينبعث من داخلي. كان همسًا أول الأمر، لكنه سرعان ما ارتفع كنهرٍ متفجر، يجتاح أفكاري كأنني أخاطب شخصًا مجهولًا... بعيدًا في المسافة، أو ربما قريبًا جدًا، مختبئًا في زوايا روحي، يرقبني بصمت متقن.

عيناي تتشبثان بشيء غريب في الأفق. رمح أسود؟ لا، إنه جذع أسود. ولكن... ألم يكن رمحًا قبل لحظات؟ تساءلت بدهشة مريرة، كيف لهذا التحول أن يحدث؟ كيف يمكن لشكل واحد أن يحمل معنى يتبدل كلما رمقته؟ الجذع الداكن بدا وكأنه يحكي قصة غير قابلة للفهم، كأنما يرويها بلغة لا تنتمي لعالم البشر.

لماذا هو هنا؟ لماذا أنا هنا؟ تساؤلات تتكدس فوق رأسي، تثقل كاهلي كأحجار صلبة، بينما المنطق يتلاشى شيئًا فشيئًا، تاركًا فراغًا يبتلع يقيني. هل يحتوي هذا العالم فعلًا على خوارق تتحدى قوانين الطبيعة؟ وهل أنا الآن مجرد مشاهد في مسرحية عبثية، أم أنني جزء من لغز أكبر؟

الأسئلة لا تجد أجوبة. بل تتراكم، تلد أخرى أكثر قسوة، تتسلل إلى أعماقي كسُمٍّ بطيء، يلتف حولي كالأفعى، يحاصر أحلامي وأهدافي. الغابة تستمر في احتضاني بجوها الكئيب، وكل شيء فيها يبدو وكأنه يتنفس الخوف، يجرني نحو هاوية لا أعرف مداها.

تتصاعد في صدري رغبة ملحة، وكأنها رغبة ملوثة بظلالٍ من الحسد... عيناي لن تكونا كعيني فوريو إن مات هذا الشخص، الشخصية الثانوية التي لا تبدو ذات أهمية للآخرين، لكنها في نظري جزءٌ من حكايتي، دافعي لإكمال الطريق، لمتابعة الخطة. لكن فوريو... لم تكن غيرتي منه مجرد شعور عابر، بل هو حسد... وكراهية! نعم، أعترف بذلك لنفسي لأول مرة، كراهيةٌ دفينة حاولت تغليفها بحب مزيف، لكنني أكره فوريو، أكرهه بشدة، وأحاول عبثًا أن أقنع نفسي بعكس ذلك.

لست من يكتب حكاية تُظهر الفضائل فقط، لا... أنا أسرد كل ما حدث، القبيح والجميل، فقصتي لا تنحصر في الطيبة، بل تتلون بكل المشاعر، من الكراهية إلى الحب، من النقاء إلى الفساد. فهل يظن أحدٌ أنني سأكون ذلك البطل الذي يسير على نهج الفضيلة؟ منذ طفولتي، ومنذ أن كنت في الخامسة من عمري، تملكني هذا الإحساس، فكرة ثابتة تحكم روحي. سأضحي بالآخرين، إستغلالهم، نبذ من حولي والابتعاد عن البشر. لا أحتاج إلى مشاعرهم، لا أحتاج إلى رضاهم، فالحب لم يكن يوماً سبيلي، بل كنت دائمًا شريرًا خُلق شريرًا. ولماذا أكترث؟ قد تقول، يا من تسمع كلماتي، إني أروي حكايتي ببساطة كأنها حكاية شرير، لكن الفرق الوحيد بيني وبين الأشرار الذين اعتدت سماع قصصهم هو أنني أحاول عبثًا أن أحب

الناس... لكني لا أستطيع. ماضيّ هو مرآتي، مرآة تعكس مقتًا متجذرًا في داخلي، شعورًا قاتمًا يتجاوز الخيال. أخذت شهيقًا، ثم بصوتٍ هادئ واثق، قلت لنفسي وكأنني أخاطب الظل الذي يتربص بي، "إذن، هل ترى الآن يا من تطلع على روحي، أي نوع من الأشخاص أنا؟"...

حاولت، حقًا حاولت إيقاف الدماء، لكن الجذع الأسود كان أقوى من محاولاتي. اخترق المعدة والبنكرياس كما لو كانٍ يحمل في طياته لعنةً تستهدف أي كائن يقف في طريقي. "وداعًا، أيتها الشخصية التي كنت أنوي استغلالها"، همست لنفسي بمرارة، فالحياة كانت لها كلمةٌ أخيرة؛ حمتها مني ومن خططي السوداوية.

ثم ظهرت سيلفيا، فسمعتُ وقع خطواتها المتسارعة تقترب، فالتفتُّ لأراها، وقد ارتسمت على وجهها ملامح الفزع والذهول. هرعت إليه، برفيل، واحتضنته بعاطفة بدت غريبة، مخدوشة، لكنها واضحة. كيف لها أن تشعر بهذا الحزن نحوه؟ حاولت إقناع نفسي أن ما أراه هو مجرد فضول، فضول مريض لمعرفة سر هذا الحنان الذي لم أظن أنه قد يعني شيئًا لي.

تسللت مني كلمات جافة قبل أن تنطق هي:

"إنني طبيب، والطّعنة اخترقت معدته، لذا هو ميت".

لم أكن أكذب؛ كنتُ قد تعلمت الطب حين كنت في الثانوية، سبعِ سنواتٍ من العذاب اختزلتها في ثلاث سنوات. لم أسعَ لأكون طبيبا من باب الشغف أو الحب، بل بدافع الفضول المقيت. لم أكن أستطيع حب أي شيء بصدق، حتى الشطرنج كان بالنسبة لي مسألة فضول، ولعبةٌ سحرتني بأسرارها دون أي عاطفة حقيقية.

ثم تذكرت تامايو... تامايو، الوحيدة التي ظننت يومًا أنها قد تحمل العلاج لعقليتي المشوشة، لكن مرضها ووفاتها كانا كالصخرة التي تحطمت عليها كل محاولاتي لفهمها، لم أستطع معرفة ما إذا كنت حقًا أحبها أم أنني كنت أستغل قربها لي، بفضولٍ مشوبٍ بألم. لكن الآن، هنا، مع سيلفيا وبَرفيل، تدفقت كل الذكريات كطيفٍ غامض، كأنها عادت لتبعثرني. سيلفيا، أخذت في البكاء، دموعها تهمر دون توقف، ولم أستطع إلا تذكر تلك الأفعى التي تعض ذيلها، الأفعى التي لم أفهم سرها حتى الآن. أين هي تلك الأفعى الآن؟ أتكون هي الحلقة المفقودة بيني وبين فهم ذاتي؟

حينها، عاد مارك. دفنّا بَرفيل معًا، ومع كل حفنة من التراب كنت أودعه مرة أخرى. لو لم يمت، لكنت قد استغللته في سبيل أهدافي. ولأول مرة، خفق قلبي بخفوت كأنما يستحضر شعورًا دفينًا، شعورًا لم أختبره منذ لحظة ظهوري في جسد كالسون للمرة الأولى. كانت تلك دقات الحزن، ولكنها حملت معها غرابة لا تفسير لها. أأنا حقًا أتحول إلى إنسانٍ عادي؟ لماذا هذا الإحساس، ولماذا في هذا الوقت بالذات؟ أكره حينما لا يتحقق شيءٌ أرغبه، لكن الآن، قلبي يضج بمشاعر متداخلة، بارتباكٍ مرهق، يكاد يفكك أفكاري، يربكني. دائما ما أشعر بالخطيئة، لكنها خطايا سبع، تتوالد في داخلي وتخنقني: الغضب، الجشع، الحسد، الكسل، الشراهة، الغرور، والشهوة... هذه كل ما أملك. ومع ذلك، الآن، أشعر بالحزن، إحساسٌ يعاودني من جديد، شعور بأني غارق في بحر لا نهاية له من التساؤلات.

وبينما أفكر بكالسون، تزداد حيرتي؛ لا أعرف إن كنت أحبه أم أنني أستغله، حتى في وجوده أشعر بالتناقض. أغمضت عيني، راغبًا في نسيان كل شيء، لعل النوم يكون ملاذي، علّ الحكاية تعود إلى مسارها المعتاد، لكني أدرك في أعماقي أن النوم لن يطفئ الحيرة، ولن يعيد الأمور إلى سابق عهدها.. لكن إما أن أبقى غامضا، أو أفصح عن ماضيّ كله...

6

وُلدت في اليابان، بين أمٍّ تُدعى "فيرجينا" وأبٍ يُدعى "عصام". لم أولد كغيري من الأطفال، ففي أعماق عقلي كانت تلوح لي معالم رجولة مبكرة، صامتة، كبركان خامد لا يظهر على السطح. كنت معجزة بحق؛ فأنا في الخامسة من عمري، وذكائي وحده يفوق ذكاء والديّ مجتمعين. أتذكر طفولتي كما لو أنها نُقشت في ذاكرتي بحروف لا تُمحى، لدرجة أتذكر فيها الألم الأول الذي اجتاح جسدي الصغير حين قُطع حبلي السُرّي، ذلك الألم الذي أشعل أول صرخة لي في هذه الحياة.

أتذكر جميع اللحظات التي عشتها منذ عامي الأول في هذا العالم، محفورة في ذاكرتي كأنها وقعت بالأمس. لم أكن كغيري من الأطفال، لم يكن الفضول لديّ مجرد عادة، بل كان نهج حياة.

كنت أعلم بغريزتي أن حليب الأم ضرورة لنموي، ولكنه أثار فضولي، دفعني إلى طرح فرضيات، وتخيلت حينها: ماذا لو شربت حليبًا آخر غير حليب أمي؟ هل سيؤثر عليّ؟ كانت تلك أولى نظرياتي. في شهري السابع، كنت أستطيع المشي، فخرجت بفضولي الحارق نحو الأبقار في المزرعة. رأيتها شامخة وقوية، فاقتربت وشربت من حليبها. لكن لم يكن ذلك القرار صائبًا، إذ ركلتني بقوة كادت تقتلني؛ كان ألم الركلة قاسيًا، كصفعة من واقع بعيد لا يعترف بطفولتي.

عدت من التجربة وقد ترسخ في ذهني درسٌ لم أنسه: حليب الأبقار لم يكن مناسبًا لي. لكن الفضول لم يفارقني، فجربت كل ما كان بوسعي من سوائل بحثًا عن طعم مشابه لحليب أمي. وفي تلك

اللحظات، لاحظت أمرًا غريبًا؛ كان هناك شخص واحد بجانبي يثير فضولي أكثر من أي شيء آخر: خالتي. كان هناك شيء في رائحتها، في حضورها، جعلني أشعر بأنها الأقرب لحضن أمي، فاقتربت منها وارتشفت من حليبها. في تلك اللحظة، شعرت بشيء مألوف، طعمه قريب من ذاك الدفء، كأنه ظل طعم أمي...

بفضل تلك الرشفة، كنت أملك جسداً قوياً في عامي الرابع، دون ضخامة زائدة. شعري الأزرق الداكن، وعيناي زرقاوان تتماشيان معه. في أحد الأيام رأيت أبي يقرأ كتاباً عن الفلسفة، بدا لي ذلك الكتاب كأنه بوابة إلى عوالم مجهولة؛ من هنا بدأت التساؤلات. تساءلت: من أين جئت؟ من أين أتت أمي؟ ومن أنجب من أنجبها؟ كانت سلسلة لا نهاية لها من التساؤلات...

كانت هذه التساؤلات، ذلك الدافع الغريب، تقتحم عقلي بلا استئذان، كأنها أجنحة خفية ترفرف داخل صدري. فكرة "لماذا أنا موجود؟" كانت تستقر في أعماقي كحجر ثقيل، تهز كياني وتوقظ داخلي شعوراً بأنني جزء من سلسلة طويلة من الوجود. لم يكن هذا السؤال مجرد فضول عابر؛ كان استشعاراً لشيء أكبر مني، شيء مجهول جوابه، لكني أراه بوضوح كمنارة تلوح لي في الأفق ولا تنير ذلك الضوء...

هذا التساؤل قادني لطرح أسئلة أخرى لا تنتهي: لماذا يحب الإنسان شخصاً؟ لماذا يشعر بالملل في غياب أحدهم وبالسعادة في حضوره؟ كانت المشاعر تتشكل أمامي كألوان متداخلة، بعضها مشرق، وبعضها قاتم، أرى لوحات للحب والكراهية لأول مرة، لكنني لا أملك تفسيراً حقيقياً لما تفعله بي هذه المشاعر. أليس الحب مجرد إحساس؟ فلماذا يبدو لي كعالم كامل مستقل، عالم يسكنه من أختارهم، حتى وإن لم أفهم تماماً السبب؟

كنت أجد نفسي مستلقياً في زاوية من زوايا الغرفة، متأملاً في فراغ سقفها، وأحادثُ نفسي، كأنني أخوض محادثة بيني وبين عقلي. لكن في كل مرة أطرح سؤالاً، أظل حائراً بين كوني المتحدث أو المستمع. من أنا؟، ومن هذا الذي يجيبني في رأسي؟ كان الأمر كأنني شخصان، أو ربما كنتُ طفلاً يحمل روحاً من زمنٍ آخر... وذات ليلة، بينما كنت أفكر في حلٍ لهذا الغموض، قفزت فكرة مجنونة إلى عقلي: "لو متُّ، هل سينام عقلي إلى الأبد؟ أم أن هناك حياة أخرى بعد هذا العالم؟" تساؤلٍ بحجم الحياة كلها، لكنه كان غريباً بما يكفي ليجعلني أفكر جدياً في اختبار نظريتي. كنت أبحث عن شيء ملموس، تجربة تثبت لي الجواب. ربما كنت أظن أن بإمكاني مواجهة الموت بعقل طفل، لكن الحقيقة أنني كنت قد تجاوزت طفولتي في تلك اللحظة.

صعدت إلى سطح المنزل في تلك الليلة، وحين وضعت قدمي قرب الحافة ونظرت للأسفل، شعرت بخوفٍ غريب، كأنه يقبض على قلبي. للحظة، لم أشعر أنني طفل؛ كنت كائنًا يبحث عن معناه في الكون الشاسع، في العمق الخفي الذي لا يعترف بالعمر. ولكن فجأة، اندفعت يد قوية وأمسكت بي. كان أبي، يصرخ بي، وعيناه تمتلئان بذعرٍ حقيقي لم أره من قبل.

صفعني صفعةً ترددت أصداؤها في أعماقي، لكنني أدركت حينها مغزى تلك الصفعة. كانت تعبيرًا عن الحب والخوف في آنٍ واحد، وعن الحيرة أمام طفل يتجاوز أسئلته حدوده. ربما لو لم يفعل ذلك، لكنت غرقت في أوهام الازدراء والتكبر منذ سنواتي الأولى. قال لي بحدة، وعيناه لا تزالان حمراء من الرعب:

- " ماذا تفعل!؟، هل أنت مجنون؟ "

- " أسف، لقد أردت أن أعرف ماذا سيحصل لو متُ "

إرتسمت على وجهه نظرة ذعر، إحمرت عيناه بكاءً، إذ كان يقول:

- "هل كنت تقرأ كتب فرويد؟، إنها مجرد أشياء ليست لها معنى، فقط فرضيات ليست مبنية على شيء"

كتب فرويد سيغموند كانت في الحقيقة وقوداً لعقلي المتسائل، أحجار بناء لما أحمله من أفكار وأحلام. كانت صفحات تلك الكتب تشبه النوافذ المفتوحة على عوالم لم يعتدها من في سني. لم يكن غريبًا أن أشعر بشعلة داخلية تتوهج، تدفعني لاستكشاف الكون من حولي، كأنني أبحث عن قطعٍ ضائعةٍ من نفسي. لكن عندما قال أبي أن هذه الأفكار ليست مبنيةً على شيء، شعرتُ كأن الأرض تتهاوى تحت قدميّ. كيف يمكن أن تكون هذه الأسئلة العميقة مجرد فرضيات، بلا حقيقة؟ كيف يمكن أن يكون كل ما كنت أفكر فيه، كل هذه المحادثات الداخلية، مجرد وهم؟

لأول مرة، شعرت بغضب شديد. كان غضبًا مكتومًا، كأنه طائر حبيس في قفصٍ صدري. عرفت آنذاك أن هذه هي الخطية الأولى التي تحققت في داخلي. ورغم هذا الضغط الذي كان ينغلي داخلي، حاولت احتواء هذا الشعور، ألجمه كي لا يفلت مني. بدا لي الأمر كصراع داخلي بين رغبتي في التعبير عن غضبي وبين رغبتي في أن أظل الطفل الذي يرضي الجميع، وخاصة والديّ.

كنت أتساءل في داخلي: هل يمكن للغضب أن يكون خطيئة إذا كان يدفعني للبحث عن الحقيقة؟ ماذا لو أن هذا الشعور نفسه هو جزء من الرحلة التي يجب أن أقطعها لأعرف من أنا حقاً؟ بقيت كل هذه التساؤلات كدوامة في عقلي، لكنها خلقت داخلي نوعاً من الحيرة الغامضة. لم يكن أحد من حولي يفهم ما أمر به، ولم أستطع أن أشرح لهم، لأني بالكاد كنت أفهم نفسي.

بدأت أشعر أنني أحمل عبئًا كبيرًا، عبء الفهم. كانت كل لحظة فيها صراع بين محاولة التكيف مع كوني طفلًا، وبين محاولتي لفهم تلك الأسرار التي تراودني. كنت أنظر إلى والدي وأحس بتناقض عجيب، فهو سبب تساؤلاتي وسبب غضبي أيضًا. رأيت في عينيه مزيجًا من الخوف عليَّ والقلق من أن أستمر في هذا الطريق الغريب الذي لا يليق بطفل في الثالثة من عمره، لأنسى في تلك اللحظة كل تلك التساؤلات، وأقول، كأني أتحدث مع نفسي:

- "هل ستعود هذه التساؤلات يومًا؟ ربما لن يحدث ذلك، إلا إذا وجدت شيئًا يثير فضولي بقدر ما أثارته أفكار أرسطو. أتساءل حقًا إن كنت سألتقي يومًا بشيء كهذا".

بمرور الوقت، بدأت أعيش حياة عادية، ألعب مع الأطفال وأضحك معهم، حتى أنني نسيت كل تلك الأفكار الغريبة التي كانت تشغلني. لاحظت أن والدي لم يعد يقرأ كتبه الفلسفية كما كان سابقًا، أو ربما كان يقرأها فقط بعد أن أذهب إلى النوم. كنا نعيش في منزل كبير في اليابان يتكون من ثلاثة طوابق؛ الطابق الأول تسكن فيه خالتي مع زوجها وابنتيهما اللتين لم ألتقِ بهما بعد، بينما كنا نقيم في الطابق الثاني. ما أثار فضولي حقًا هو الطابق الثالث، الذي لم يُذكر أمامي أبدًا، وكأن شيئًا ما فيه لا يجب أن يُكشف.

مرّت الشهور والأيام، حتى جاء يوم رأيت فيه حلمًا غريبًا لا يزال عالقًا في ذهني: طائرالفينيق، الذي لم أكن أعرف وجوده انذاك، ضخم يحلق في الأفق، يتجاوز الجبال، وفي خلفية المشهد تشرق الشمس بألوانها الذهبية. فجأة، جبل ضخم يحجب جزءًا من الشمس، مما يضفي على الصورة إحساسًا أسطوريًا مبهمًا. مشهد الطائر وهو ينشر جناحيه العملاقين، متحديًا الجبال والشمس، كان ساحرًا بطريقة غريبة. استيقظت من الحلم محمّلًا برغبة ملحة في رسمه، وطلبت من أبي أن يشتري لي أدوات الرسم. وعندما أحضرها لي،

بدأت أعمل على تجسيد الحلم بأدق تفاصيله؛ رسمت الجبال والأشجار وكل ما رأيته في ذلك المشهد.

وأثناء الرسم، تذكرت فجأة تلك الأسئلة التي كنت أهرب منها بلا إجابة، وجدت نفسي، دون وعي، أضيف إلى اللوحة رجلاً يسقط من الجبل، ساقطًا تحت الطائر العظيم. لم أكن أدري لماذا رسمته، لكنني أردت الإجابة عن سؤال كان يطاردني: "ماذا سيحدث لو سقط هذا الرجل؟"

في أعماقي، شعرت بأن الرسم يحتوي على مشاعر لم أستطع تفسيرها، الخوف من الفقدان، الغموض الذي يكتنف الرحلة، وحتى خيانة مبطنة. كان سقوط الرجل ورفع يديه للأعلى يعبر عن رغبة متقدة في الحرية، وإحساسٍ بالخذلان، وكأن الطائر خذله وأسقطه في لحظة ضعف، مستغلا ثقته. وعندما انتهيت من الرسم، تنهدت، وأدركت أنني لم أستطع أن أتخلص من أفكاري العميقة بعد.

دخل أبي ورأى الرسم، ابتسم وأشار إلى الطائر قائلا:

- "هذا طائر الفينيق، أليس كذلك؟"

- "من؟ طائر الفينيق؟ أيمكنك أن تحدثني عنه أكثر؟"

نظر إلي بابتسامة سرية وقال،

- "حسنًا، سأريك شيئًا في الطابق الثالث، لكن دون علم أحد..."

ووضع سبابته على فمه قائلا:

- "ششـــ.. شششـــ لا تخبر أحدا."

كان أبي يحملني برفق، وأنا طفل الثالثة من عمري، وزني خفيف بين ذراعيه، حتى سألني بلطف وفضول:

- "من أخبرك بوجود طائر الفينيق؟"

أجبته بتردد:

- "رأيته في حلمي... هل هذا شيء سيء؟"

ابتسم بهدوء، ثم سألني بصوت يختبرني:

- "وهل كان حلمك هذا يحتوي على رجلٍ يسقط؟"

فكرت قليلاً، أدركت أن والدي ربما فهم ما أرسمه، وقد يعتقد أنني عدت أقرأ كتبه، فاخترت أن أكذب، لأول مرة في حياتي، وقلت:

- "نعم، شعرت بالخيانة حينما رأيت الحلم، كأن الطائر أسقط الرجل عمداً من على ظهره".

رغم أنني كذبت، إلا أن تلك العبارة حملت جزءًا من الحقيقة. فقد كان الرسم تجسيداً لفكرتين؛ فكرة عما يحدث بعد الموت، وفكرة أخرى غامضة عن الخيانة. ابتسم والدي بارتياح، وقال لي:

- "نعم، نعم يا أنس، أنت ذكي".

عندما وصلنا إلى الطابق الثالث، كان نظيفًا بشكل مدهش على الرغم من عدم وجود خدم. وهنالك، على الجدار كله، كانت لوحة هائلة لطائر فينيق بسبع ذيول، بلون برتقالي ساطع وأجنحة ضخمة. حين وقعت عيناي على عيني الطائر، اجتاحني شعور بالغيرة لم أعرفه من قبل، شعور بالخطيئة الثانية، الحسد. ماضيّ كان كأس خطايا، لكن حينها لم أكن أعرف ما تعنيه هذه الخطايا، فظل يثير تساؤلاتي " ماهو الغضب؟ " " ماهي الغيرة "

7

كانت عيناه مشرقة كالشمس، مشرقة لدرجة تجعلني أشعر بالدونية، كيف لتلك العينين أن تكونا بهذا الصفاء، كيف لهذا الطائر أن يبدو كرمزٍ للحرية التي حُرمتُ منها؟ شعرت وكأنهما تراقباني بلامبالاة، وكأنني مجرد عائق أمام سر ذلك الشعور الذي لا أملكه، كانت كل أسئلتي محرومة من إجابتها بسبب القيود... مع هذا الشعور تسللت في داخلي بذور الكراهية، لأول مرة نظرت إلى أبي بتلك النظرة الحادة، الرجل الذي بدا لي في تلك اللحظة منغمساً في منع إجاباتي، الرجل الذي حرم أسئلتي من الحرية التي يستحقها كل فكر...

مع الأيام، ازدادت تلك الرغبة في التعبير، وبدأت أرسم كل ما يدور في ذهني؛ رسمت طفلاً يشبهني يقف على قمة جبل، يستعد للسقوط نحو المجهول، رسمت رجلاً ينعكس في بركة ماء وعينه تعكس البركة نفسها كدوامة من الانعكاسات التي لا تنتهي. في إحدى المرات، رسمت نفسي وحيداً في الزاوية، أتحاور مع إنعكاسي، وعلى اللوحة كتبت: "هل أنا المتحدث أم المستمع؟"... عادت تساؤلاتي مرة أخرى، لكنها لم تعد حبيسة، لم يعد لأحدٍ حق التحكم بي أو بكياني، فأنا هو أنا، وأنت هو أنت، تحكم في نفسك فقط، ودعني أكون المتحكم في ذاتي، فمن أنت لتحرمني من حريتي أيها الذليل...

هنا... غرست بذوراً في تربة نفسي، بذور الحرية، وأسقيها بعزم عشر مرات في الساعة. أرض عقلي ونفسي تتطور سريعاً، أسرع من عمر الخامسة الذي بلغتُه، وكأنني أركض نحو حدودٍ جديدة، أبحث عن حريتي بمعناها الكامل. عندها، شعرت أنني أستحق اسماً آخر، اسماً

يعبر عن تلك القوة التي تولد داخلي. اخترت لنفسي اسم "جيودا" - رمز الحرية الجديدة التي وجدتُها.

لكن كانت تلك اللوحة الأخيرة التي رسمتها قبل أن يمنعني ذلك اللعين، أبي، من الرسم. أصبح حضور أبي ظلًا ثقيلاً في حياتي، كأن عينيه تشوهان كل محاولاتي للخروج من قيودي. كانت تلك اللوحة بمثابة تحفة، لوحة اجتمع فيها العقل والفلسفة، مزيج متكامل صنع تعبيرًا متقنًا، صرخة متمردة رسمتُها رغم قيود العمر.

رسمت قفصًا ضخماً، قفصًا كان يجسد أسري، يحبس بداخله طفلًا صغيرًا يشبهني. قفص يتدلى بسلاسل ضخمة من الأعلى، تعلّق به دعامات قوية تحيطه. أسفل القفص، يتجمّع حشد من الناس؛ كانت الوجوه متفرقة، لكن بارزة في تفصيلاتها، وكأنها مزيج من الضوء والظل الذي يكشف عن حقيقتهم. في مقدمة الحشد، وقفت صورة أبي – رسمته بلون أحمر قاتم يكاد يسود، رمزًا لدمويته، لظله الثقيل الذي يمنعني من أن أحلق، ولأفكاره التي تخنقني. بجواره كانت أمي، لم أتمكن من رسمها إلا بلون رمادي، لون يرمز لطفها، لكن في ذات الوقت، لون يعبر عن نوع من اللامبالاة؛ كان رماديها يحمل تعبيراً ضبابياً، نوعاً من الحزن الذي أكبته في أعماقي تجاهها. أما خالتي، فكانت بيضاء، تحيطها هالة من الضوء الأبيض، وكأنها تجسد النقاء. رأيتها بعيني طفلٍ صغير، امرأةً بلا عيوب، بياضٌ نقيّ يكاد ينير تلك الزاوية المعتمة في اللوحة. كانت خالتي رمزاً لما هو طيب ونبيل، مثل شعاع من الأمل في عالم ضبابي. في وسط اللوحة، كان الطفل المسجون يلتهم طائر الفينيق بوحشية، وكأنه ينتقم منه في مشهد يشعرك بمزيج من الدهشة والأسى. رسمت نفسي في هيئة الطفل، أجسد الحسد الذي أحمله للطائر، الرغبة في

ابتلاع تلك الحرية التي يمثلها والتي طالما تمنيت أن أملكها. الطفل يرفع يديه داخل القفص، ويمسك بحبال رُبطت بعنق كل شخص في الأسفل. كان الحشد بأكمله مقيداً بتلك الحبال، وكان الطفل، الذي هو أنا، يتحكم فيهم كما يتحكم الفنان بفرشاته. بدا لي أنني كنت أرمز لرغبة غامضة، رغبةً جامحة في السيطرة المطلقة. فكرةٌ مظلمة، فكرة مشوّهة لا تراود إلا عقولًا تعشق التحكّم، أشباح من الماضي كـ"هتلر"، قادة أرادوا أن يملكوا مصائر البشر بين أيديهم، وأن يسير الجميع وفق ما يمليه صوتهم. عندها، برزت تلك العقلية المتوحشة داخلي، تلك الرغبة التي لا يجرؤ سوى القليلون على الاعتراف بها، تلك السيطرة حتى لو كانت تعني سحقهم نفسياً، دهسهم دون أن تترك أثراً، سأستغل كل كائن لمُبْتغايْ.

شعرت أنني أريد لعينيّ أن تكونا مثل عيني طائر الفينيق، ذلك الطائر الذي لا يُهزم، الذي يُبعث من رماد الدمار ويحلق من جديد، طائر لا يعترف بالفناء، يسير دوماً نحو الأفق متحدياً قوانين الحياة والموت. أردت أن أكون كالفينيق الذي يولد من العدم، الطائر الذي لا تقدر عليه النار، الذي يجسد الحرية في أسمى معانيها، حرية تأتي من العذاب، من الاحتراق والنهوض مجدداً.

صرت أمرّ من أزقّة الشرّ، حيث الظلام يسود والجدران تشهد على أسرارٍ خفيّة، أزقّة مهجورة تمرّ بها الأرواح الجائعة، الأرواح التي تجد في الظلام ملاذاً وأماناً. أزقّة تهمس لي بحقيقة النفس البشرية، بدوافعها الخفية وأحلامها المسروقة. أدركت أنني لا أريد السير في الطرق الواسعة، طرق الخير المعلنة التي يسلكها الجميع بسلام. لا، أنا أبحث عن المسالك الضيّقة، عن الظلال المختبئة، حيث النوايا تتداخل والأقنعة تتلاشى، حيث الحكايات تنسج في صمت، وكل

خطوة تعبر عن شغفٍ خفي. أيمكنك تخيل: " طفل ذو خمس سنوات يفكر في ظلام دامس "

بلغت السادسة أخيراً، حين قابلت ابنة خالتي "تمايو" لأول مرة. تملكتني مشاعر غريبة حين رأيتها، شعرت بنبضات قلبي تتسارع، لكنني أدركت سريعاً أنني لم أكن ذاك الشخص الذي يعرف الحب أو يحيا في ظله. لم أكن شخصاً يتوق إلى أن يُحَب أو يحب؛ لم أكن ذلك الشخص الذي يشعر بالحزن على فراق أحدهم، لذا قررت في تلك اللحظة أن أستغل تمايو كوسيلة لفهم معنى الحب والكراهية، لأحل ألغاز هذه المشاعر البشرية التي بدت لي غامضة وعصية على الفهم. ولكن في أعماق قلبي، كان ثمة شيء يتردد، شيء يحاول إبعادي عن هذا التفكير المسموم، وكأن صوتاً خفياً ينصحني، أو ربما يصرخ ليحذرني، كان شيئاً مؤلماً وغريباً، ولم أتمكن من تحديد مصدره أو كنهه، لكنه كان عميقاً.

مع تمايو، جاءت أختها الصغرى "هيناتا"، والتي كانت تصغرها بعام واحد. كرهت هيناتا منذ اللحظة الأولى؛ كانت تُمثّل لي كل ما هو عكس الحرية والاستقلالية. كنت أراها رمزاً للتبعية والعبودية، كانت تتبع تمايو كظلها أينما ذهبت، تقلدها في كل شيء، حتى في تفاصيل بسيطة مثل قصة الشعر ونوع اللباس وتصرفاتها. كنت أسميها "قردة لأختها"، لأنني كنت غارقاً في كتب "داروين" حينها، وكنت أفهم العالم من منظور التطور والانتخاب الطبيعي، ذكائي أيضا كان ذو حدود... لم يكن هذا اللقب مجرد كلمة عابرة؛ كنت أراه انعكاساً لمشاعري الحقيقية نحوها، كنت أرى فيها تقليدياً لا يعرف ذاته، كائناً يستمر في تكرار ما يراه دون إدراك أو وعي.

ومع مرور الأيام، أخذت علاقتي بتمايو وهيناتا تنضج قليلا، دون أن أكترث للتغيرات التي كانت تحيط بي. انصرفتُ بشكل كبير إلى عالم الكتب، لكن اهتمامي بدأ يتجه نحو الرياضيات؛ أصبح فضولي

يسكن الأرقام والنظريات، وقلت قراءتي للكتب الأدبية والفلسفية شيئاً فشيئاً. بدأتُ أفهم العالم من خلال المعادلات والمنطق، وكأنني أنسحب إلى بعد آخر حيث المشاعر والتجارب الإنسانية لم تعد تلعب دوراً كبيراً.

ثم جاء اليوم الذي بلغت فيه العاشرة. في تلك اللحظة، ظهر رجل غيّر مسار مشاعري ومفاهيمي بشكل عميق؛ كان أشبه بظل يظهر ليقلب موازين الحياة، ليضعني في مواجهة مفاهيم لم أكن أفكر في مواجهتها قط.

قبل عيد ميلادي العاشر بيوم واحد، دخلت المرحاض بنية الاستعداد ليومي المعتاد، لكن شيئًا ما في داخلي كان يقول لي أن اليوم لن يكون كأي يوم. أمام المرآة، نظرت إلى نفسي بتمعن، طفلاً ذا عينين زرقاوين داكنتين، أنف صغير وفم أكبر منه بقليل، أذنان متناسقتان مع وجهي، لكن أكثر ما لفت انتباهي كان شعري الأزرق الداكن الذي طالما شعرت أنه يحمل في طياته نوعًا من الغموض، كأن هناك شيئًا ما غريبًا بداخلي. في وسط صدري، كانت هناك شامة غريبة، ليست مجرد علامة جسدية، بل كانت بالنسبة لي كما لو أنها كانت تمثل شيئًا عميقًا. ربما كانت في نظر البعض مجرد شامة، لكنها كانت بالنسبة لي شعاعًا ضئيلاً من الحرية، كانت تذكرني بشيء في داخلي لا أستطيع تفسيره بعد.

خرجت من المرحاض وأنا أحاول التخلص من تلك الأفكار، لكنني لم أكن مستعدًا لما حدث بعد. أمامي، كان يقف رجل كبير في السن، يلبس قبعة بيضاء نقية، تلك التي كانت تشبه قبعة "مايكل جاكسون" التي لطالما كنت أراها في الصور القديمة. كان يرتدي نظارات شمسية رغم أننا كنا في المنزل، ما جعلني أتعجب أكثر عن سبب حاجته لها. لم أتمكن من رؤية عينيه، لكن تجاعيد وجهه التي

كانت تملأه أخبرتني بأنه ليس شابًا. فجأة، تحدث بصوت ضخم، صوته كان ثقيلًا، كأنه يحمل عبء الزمن كله، فقال:

- "أنت هو أنس إذن؟ أرى فيك ذكاءً لا أراه في عصام. هممم، أو ربما لا أراه في أي رجل دون العشرين عامًا، إذن، أيمكنك أن تحادثني عن تساؤلاتك التي شغلت عقلك، كما يقولون"...

لم أكن طفلًا ساذجًا يسأل "من هذا الشخص؟" فأنا، وإن كنت صغيرًا، كنت دائمًا أراقب من حولي بعينين متيقظتين. كيف له أن يعرف عن تساؤلاتي؟ ربطت ذلك بسرعة بطابقنا الثالث، وفكرت أن هذا الرجل قد يكون يعيش هناك. ربما كان أبي أو أمي أو خالتي هم من يرسلون له الأخبار. بدأت أتساءل: هل هذا الرجل هو جدي أو أخ جدي؟ شخص ذو مكانة عالية، قد يكون هو من أسس هذه العائلة أو من يقف وراء كل شيء.

لكنني، ومن دون أن أظهر أي خوف، حاولت أن أظهر قوة:

- "من أنت؟ أبي؟ أمي؟ هناك لص هنا"!!

ابتسم الرجل بابتسامة غير مألوفة، ابتسامة مليئة بالغرابة والسخرية، وقال:

- "لست كما يقولون، هممم... هل كل أقوالهم كاذبة؟"

لقد وقع في فخ سؤالي. كانت نبرة صوته تدل على أنه يدرك أنه لم يستطع الخروج من المأزق. فكرت للحظة، وأدركت أنه ربما لا يستحق منصبه هذا، ولم يعد لديه القدرة على إخفاء الحقيقة. قال لي بابتسامة أكبر، وكأنها كانت محاولة للسيطرة على الموقف:

- "هههه، أتظن أنني سأقع في فخك؟ أم ماذا؟ أنت هنا قطعة، كل ما تفعله أعرفه، فلا تحاول أن تخفي عني شيئًا".

عينيه كانت تشع بنوع من القسوة، لكنه لم يكن يستطيع إخفاء الحقيقة عني. ابتسم مرة أخرى، لكن هذه المرة كان الابتسام يرافقه شيء من الاستخفاف:

- "أنا أب أمك، أي أنا جدك".

- "هوي أنس، استيقظ، لقد نمت كثيرًا".

8

كان الصوت هو صوت مارك، لكنه كان يحمل شيئًا مختلفًا، وكأن هناك شيئًا آخر يطفو وراء الكلمات. شعرت بشيء غريب يتسلل إليّ مع كل نبرة. وعندما حاولت أن أفتح عيني، لم أتمكن من رؤية الأشياء بوضوح، كان كل شيء ضبابيًا حولي، كما لو أن عقلي يرفض أن يستوعب ما يراه. ومع ذلك، ما إن مسحت عيني من جديد حتى بدأت الصور تتضح تدريجيًا.

أول ما لاحظت كان وجه سيلفيا، واقفة هناك كعادتها، لكن لم يكن هناك الوقت الكافي للتفكير في ملامحها بشكل كامل، لأنني شعرت بوجود شخص آخر بجانبها. كانت هناك فتاتان، إحداهما كان شعرها أسود مثل السواد الذي يملأ أشعة الشمس، عميقًا كأنها تحمل شيئًا من سر غامض في كل خصلة، أما الأخرى فكان شعرها رماديًا، لون غريب ليس مألوفًا لكن كان لها حضور قوي لدرجة أنني شعرت بها أكثر من رؤيتها.

لكن ما أصابني بالدهشة هو الشخص الثالث. كان شعورًا غريبًا، كأنني رأيت ذلك الشخص من قبل في مكان آخر، ولكن عقلي كان يرفض أن يذكره، حتى الفتاتان، كنت متيقنا من رؤيتي لهما لكني لم أكن راغبا في تذكرهما،

رأيت شخصا أخر، أدركت أنني كنت أمام نفسي. كان هناك شعور غريب في قلب كل من مروا أمامي، ولكن لا شيء يشبه رؤية نفسي في شخص آخر. كان رجلًا ذا شعر أزرق داكن، تمامًا مثلي. نفس اللون، نفس الملامح، نفس التفاصيل. وكأنني كنت أرى نفسي في المستقبل أو في مكان آخر، في حياة موازية. شعرت بالارتباك،

وكأنني فقدت السيطرة على الواقع. لكن تلك الفكرة لم تدم طويلًا، إذ سرعان ما أدركت أن هذا الشخص كان هو كالسون.

الفصل الخامس

1

كالسون فالدريك

من المستحيل أن تعرف ندى ما الذي كان يدور في ذهني، حينما اقتربت مني وعانقتني بذلك الدفء. تباً، أنا حقا مجرد حثالة، لقد كنت أفكر في أمر لا يليق، أمر لا أستطيع حتى أن أنطق به. إنها الشهوة، نعم، تلك الرغبة الغامضة التي تستعر فجأة وتفقدني السيطرة. لكن... أليس من الطبيعي أن أشعر بها، ولو قليلاً، مع شخص أحببته من كل قلبي؟ أليس شيئًا مشروعًا، مثلا، لو كنا زوجين، ألن يكون الأمر عاديا، حقا؟ هه، كم أنا غبي !، لكن هل تحبني حقًا؟ هل كانت تلك اللحظة تعبيرا عن مشاعر دفينة، أم أنني أبالغ في تفسير الأمور؟ إن لم تكن تحبني، فلماذا ضمتني بتلك الطريقة؟ لماذا أحسست بأنفاسها الدافئة تذوب كل خوفي وكل تساؤلاتي؟ لماذا، حين اقتربت مني أكثر، شعرت برغبة ملحة في أن أقبلها؟ لماذا تسارعت دقات قلبي، لماذا انتفضت أعماقي، وكأنني أغرق في بحر من الأحاسيس التي لا أستطيع التحكم فيها؟

أليست هذه هي خطيئة الشهوة؟ تلك الرغبة المتقدة التي تجعلنا بشراً، والتي تجعلنا نعيش لحظات حقيقية، مكثفة، مليئة بالشغف والتناقض؟ لكن، لماذا تُسمى "الشهوة"؟ أليست مجرد استجابة فطرية لرغبة عميقة، أليست شيئاً طبيعياً يحدث عندما تحب أحدهم بكل صدق، وحين تكون مشاعركما متبادلة؟

كنا جالسين على العتبة، الهواء يحمل معه رائحة الشاي المنعنع من الداخل، بينما كنا نتحدث ونضحك، أحيانا بصوت منخفض وأحيانا بقهقهة خفيفة ترتدّ صداها على جدران الحيّ. كان عصام يسند ظهره إلى الباب، بينما أرخي قدميّ إلى الأسفل، ننظر إلى الغابة التي يفصلها سور المنزل الخشبي، نتبادل الحديث عن أمور الحياة بين كلمات هادئة وأخرى مليئة بالضحك. فقلت بفضول:

- "هل الأفعى الصفراء المنقطة بالأسود متوفرة بكثرة في المغرب؟"

سألته، محاولاً إضفاء طابع من الهدوء على حواري، رغم توجسي المتزايد. فجأة، قطع حديثي بنبرة حادة، لاذعة، كأنني أطلقت قنبلة في محيطه:

- "هوي... أيها العبد، ما الذي تهذي به؟ لا يمكن لها أن تعود، كيف لأفعى الأوروبوروس أن تعود؟"

شعرت بتلك الكلمات وكأنها ضربتني في عمق وجودي، إنني حقًا عرفت معنى الرعب. لقد عاد بي هذا الشعور إلى اللحظة التي نطق فيها بهذا الحديث لأول مرة؛ الهواء يتصاعد من الأسفل وكأن قوة خفية تجتاح المكان، إنها رياح، رياح غريبة، كيف يمكن لتلك الرياح أن تُخلق هكذا فجأة؟ إنه كأنما يسيطر على الطبيعة نفسها. عقلي لم يستوعب كيف يمكن لشخص عادي أن يفعل هذا... لا، هذا الشخص ليس طبيعياً إطلاقاً. لذا، جمعت شجاعتي، محاولاً إخفاء خوفي أمامه، وقلت بصوت لا يخلو من الارتجاف:

- "لقد رأيتها قبل أن تأتي أنت وندى، كانت هناك، بالقرب من الكرسي، كانت آثار الدماء أيضاً... ملقاة على الأرض".

راقبته وهو يتنهد، لكن هذه المرة بلمحة لطف نادرة تخبئ كبرياءه، تلك الكبرياء التي يخفيها عن العيون. عصام، برغم كبرياءه الظاهر

ويشع منه إحساس بالهيمنة، ولكنه ليس متكبرًا، إنما يملؤه غرور كغشاء على لطفه، فشخصيته الحقيقية هي اللطف، غروره يشبه كبرياء أنس. رأيت في عينيه بريقاً مألوفاً، نفس العمق واللون الذي رأيته في عيني أنس، نفس البرودة التي تخفي خلفها أسراراً لا تُحصى. في تلك اللحظة، أدركت أنني يجب أن أسأله عن علاقته بأنس، فهذا الشخص يعرف الكثير، ربما أكثر مما يرغب في الإفصاح عنه. ثم قال بصوت خافت وكأنه ينفث حكمة دفينة:

- "آسف، لقد طغى علي شعوري قليلاً، ولكن هناك أمورٌ يجب أن أحدثكم عنها الآن... وأيضاً، يا هيناتا، لا تسترقي السمع".

فظهرت ندى وهي تقول:

- " هيه... أنا أيضا أحتاج إلى توضيح، فلا أفقه أي شيء مما تقولونه"

- " لست الوحيد الذي لا تفهم، أنا أجهل كل شيء، وأيضا هل أنس بخير"

- "إنه بخير، لكنكم لا تعرفون من يكون أنس حقًا. لندخل المنزل، ونتحدث عن كل الأسرار التي أعرفها. أفهمتم الآن يا أطفال؟"

كانت كلماته تحمل نوعًا من التوبيخ، وربما بعض الشفقة، وكأننا حقًا في نظره مجرد أطفال لم يصلوا بعد إلى عمق الحقائق التي يحملها. شعرت بشيء من الإهانة، لكنني أدركت في نفس الوقت أنه ربما يقول الحقيقة؛ أنس كان شخصاً غامضًا، ليس من السهل فهمه. كيف يمكنني القول إنني أعرفه؟ نعم، مؤخرا بدأنا نقرب المسافة بيننا، لكن، هل أعرفه حقا؟ هل يفهم أحدنا حقًا من يكون الآخر؟

همست، وكأنني أوجه الحديث لنفسي أكثر من الآخرين:

- "هيهات هيهات، إن الصداقة والحب معقدان كثيراً، كعقدة لا تنفك بسهولة".

التفتُ نحو ندى، لأجدها تحدق بعصام بنظرة غريبة، نظرة لم أرَ مثلها من قبل، وكأنها تشاهد فيه شيئاً أعمق من كونه مجرد رجل. تلك النظرة، تذكرت الآن، كانت مثل نظراتها الحائرة حينما كانت ترى رسمي انذاك، كما لو كانت تحاول سبر غور سرٍ لا يُفصح عنه. شعرت بالغيرة تتسلل إلى نفسي كعاصفة، ابتسمت بسخرية وقلت في نفسي، "هه، أنا أحبها حقاً، لكن حتى الحب لا يمنع الغيرة".

أدرت وجهي بعيداً، محاولاً أن أخفي مشاعري؛ لم أكن أريد أن أبدو ضعيفًا أو أن أُحسد عصام على شيء. وصلنا إلى بهو المنزل، واتخذتُ مكاني على الكرسي، لكن لم أكن وحدي هناك؛ كانت تامايو، لا أعلم كيف تجرأت على سؤال نفسي إن كانت هي ذاتها تلك التي حدثني أنس عنها؟ ولكن، قبل أن أجد جواب ما كنت سأسأله، قطع عصام سلسلة أفكاري، ولم يكن متعمداً على ما يبدو، بل كأن تدفق الحديث قد أخذ منه مجراه الطبيعي. قال بصوت جهوري لكنه محمَّل بمشاعر مدفونة:

- "أولاً، اسمحوا لي أن أقدم نفسي كاملاً. أنا عصام. وأنا صديقكما، يا هيناتا وتامايو. وأعلم أن ما سأقوله صادم، ولكن أنس إبني وكذلك... "

2

عـــام

1967وُلدت، ولدت وما يُدعى بالخطايا السبع وُلدت معي. في قرية "تمسمان"، وهي قرية أمازيغية ريفية تقع في إقليم الدريوش، جهة "الشرق"، كان عام ولادتي هو بداية سلسلة من الأحداث المأساوية التي لن تُمحى من ذاكرتي. كان عامًا ليس كغيره، حيث اختلطت فيه الخطايا والأحزان وواجهت فيه العائلة ما كان أسوأ من مجرد تقلبات الحياة. كان عام 1967 بالنسبة لي عامًا من الهاوية، سنة رمزية للضياع، فقد عشت فيها ما يمكن أن يُعتبر أسوأ سنة في تاريخ أسرتي، إن ما أخبروني به كان مُفجحا بحق خالق الجحيم...

في ذلك العام، كان طمع أبي في المال يعميه ويجعله يتصرف بلا عقل. كان يحلم بجمع الثروة على حساب الآخرين، وفي سبيل تحقيق ذلك، قتل رجلًا ليسرق ماله. كان جريمة بشعة ارتكبها دون أن يدرك العواقب. قتل شخصًا في لحظة من الجشع، وحكم عليه بالسجن المؤبد. يقتل شخصًا ولا يُحكم عليه بالإعدام؟ كان هذا السؤال الذي ظل يراودني طوال حياتي. كيف لعقل بشري أن يرتكب جريمة بهذا الحجم، ولا يُعاقب بما يستحق؟ كنت أتساءل دائمًا: أي عدل طُبق هنا؟

ثم جاء مصير أمي، التي تزوجت من رجل آخر بعد دخول أبي السجن. تزوجت، وأثار هذا الزواج غيرة وحسد أبي في السجن، تلك المشاعر التي لا يمكن التحكم فيها. هذا الزواج الجديد جعل أبي يفقد عقله. لم يستطع تقبل الواقع، فانتهى به الأمر إلى قتل نفسه،

ليترك خلفه سؤالًا ثقيلًا: هل كان حبه لأمي يعني كل شيء في حياته، لدرجة أن فقدانها بهذا الشكل دفعه إلى إنهاء حياته؟ كان حزنه أكثر من مجرد مشاعر غيرة، كان عذابًا داخليًا لم يكن قادرًا على تحمله.

وبينما كنت أعيش في هذا الفراغ، في هذا العالم الذي يبدو وكأنه ينهار حولي، مات أخي في نفس السنة. كان أخي يعيش حياة مليئة بالملذات، يلتهم الطعام بلا هوادة، ويغرق في شرب الكحول حتى لا يبقى في جسده أي شعور بالواقع. كان سمينًا، وعاش في شراهة لا حد لها. مات في تلك اللحظة التي كان يظن فيها أن الحياة ستستمر على نفس المنوال، لكنه كان ضحية الشراهة التي اجتاحت جسده وروحه. في تلك اللحظة، اختفت الحياة التي كانت تنتظرني بعده. مات أخي في غيبوبة من اللذة، وكان ذلك هو السبب في موته، الشراهة التي ابتلعته بالكامل.

ثم جاء الموت الكبير الذي ألمَّ بأمي. كانت والدتي في حالة لا توصف من الحزن، وكانت حياتها لا تطاق بعد فقدان زوجها وابنها. لم تجد ما يسندها، ولا طاقة لها على احتمال هذا العذاب. كانت تائهة، وكأنها لم تجد منفذًا للخروج من دوامة الفقد والخذلان. انتحرت هي الأخرى. رحلت فجأة وتركتني مع أسئلة لا إجابات لها. لماذا؟ لماذا تركتني هكذا؟ هل كان حزنها أكبر من قدرتها على التحمل؟ هل كانت تحب ذلك الشره لهذه الدرجة؟ ففي الأخير إنه إبنها.

أما زوج أمي، فقد فقد عقله بعد انتحارها. استشاط غضبًا بشكل غير معقول، حتى أصبح شخصًا آخر. لم يعد يعرف كيف يسيطر على نفسه. كان يكسر زجاج المنازل، يضرب أي شخص يراه أمامه. دخل هو الآخر إلى السجن، ليصبح هذا العام أكثر مأسوية بالنسبة لي. فقدت كل من حولي، وتدمرت عائلتي قطعة قطعة، وكأنها حكاية

عن موت بطيء. وفي تلك اللحظات العميقة من الضياع، جاء عمي، الذي كان الشخص الوحيد الذي بقي لي، لكنه لم يكن أفضل حالًا من باقي أفراد العائلة. كان شهوانيًا، يحب النساء بشكل مرضي، ويعيش ليرضي شهواته مهما كانت التبعات. كان يسعى فقط لإشباع رغباته، غير مبالٍ بأي شيء آخر. وبسبب ذلك، أمسكته الشرطة بسبب تصرفاته غير العقلانية، ليذهب هو الآخر إلى السجن. تركني في عالم مليء بالعتمة والخذلان.

وفي تلك الفترة العصيبة، تولى سكان القرية تربيتي، ليحملوا عني ما استطاعوا من عبء الحياة، لكن ما لم يكن في الحسبان هو أن "عمي دا حماد" الذي كان له دور كبير في تربيتي، كان كسولًا جدًا. لدرجة أنه تركني مرة دون طعام عندما كنت في سن الثمانية أشهر. في ذلك الوقت، كان كل شيء يعكس تلك الخطايا التي كانت تلاحقني، تلاحقنا جميعًا. لا أجد كلمات كافية لأصف تلك اللحظة التي شعرت فيها أنني تخلّيت عن الحياة قبل أن تبدأ. كان الكسل عنوانًا لحياته، وكان كسله يهدد حياتي. نساني دون طعام، تركني جائعًا. لذلك، أخذوني إلى "الحاج علي موحا"، رب القرية الذي كان من أطلق على عام 1967 إسم "سغ أددوغ ديامسمسام"، والذي يعني "من الطمع إلى الكسل". كان هذا الاسم رمزيًا لي، كأنه يروي قصة حياتي، حيث بدأ كل شيء بطمع أبي في المال، وانتهى إلى الكسل الذي تسبّب في نسياني وهلاكي. وكان ذلك العام، 1967، هو الأسوأ في حياتي. لقد كان عامًا شهد كل أنواع الخطايا: من الطمع الذي دفع أبي للقتل، إلى الشراهة التي قضت على أخي، والحزن الذي تسبب في انتحار أمي، والغضب الذي دفع زوجها إلى السجن، والشهوة التي جعلت من عمي عبئًا على حياتي، وصولًا إلى الكسل الذي نال مني وأبعدني عن حياة طبيعية. وكانت هذه هي سنة الخطايا السبع، السنة التي أطلقت عليها قرية آيت بن حدو اسمًا لا يُنسى، ليبقى هذا العام رمزًا لكل ما مررت به.

3

رباني سكان القرية حتى وصلت إلى سن الثامنة، حيث كانت لحظات الطفولة تمر بسرعة، ورغم بساطة الحياة التي عاشوها، كانت الأيام حافلة بالمغامرات البريئة التي لا تُنسى. في تلك الفترة، انطلقت المسيرة الخضراء، تلك اللحظة التاريخية التي حملت بين طياتها آمال الكثيرين. تبعتهم دون أن أعرف ما ينتظرني، ذهبت معهم إلى الصحراء، لا لشيء إلا لأنني كنتُ جزءًا من حلمٍ جماعي. كنا نسير على أرجلنا أحيانًا، أما في أوقات أخرى، كنا نركب البغال والحمير والأحصنة، تلك الكائنات الوفية التي كانت تحملنا فوق الرمال الحارقة التي لا تنتهي. كانت الأيام تتسلسل واحدة تلو الأخرى، ونحن نواصل المسير في وجه الرياح الحارقة.

لكن حينما وصلت إلى بلدة تُدعى "كلميمة"، كانت المفاجأة. كنتُ وحدي، ضائعًا في قلب الحمادة، تلك الأرض اللامتناهية التي لا تعرف الرحمة. كانت الصحراء تبتلعني، تلتهمني برمالها الحارقة وحصاها القاسي. من حولي، امتدت الجبال كشواهد قبورٍ عملاقة، تقف صامتة، صلبة، غامضة، وكأنها تراقبني بعينٍ لا تبالي بمصيري. كانت الجبال، بمظهرها الخالي من أي حياة، تجسد الوحدة القاتلة التي شعرتُ بها في تلك اللحظة. فوق رأسي، كانت الشمس تتربع في السماء، ساطعة كشعلةٍ أبدية لا تنطفئ، تنشر لهيبها بلا رحمة. كأن حرُّها يحرق الأرض تحت قدمي، كما لو أنها تمزق كل جزء من جسدي في طريقها. حتى الهواء، الذي كنتُ بحاجة إليه بشدة، أصبح ثقيلاً، ملتهبًا، يلهب رئتي كما لو أنه يعاقبني على ضياعي.

الرمال كانت تشع حرًا، وكأنها جمرةً لا تنطفئ أبدًا. الحصى، تلك الحُبيبات الصغيرة التي لم تكن تلتفت إليها، أصبحت الآن أعداءً

تلسعني مع كل خطوة أخطوها، تؤلمني في كل لحظة. في تلك اللحظة، كان كل شيء حولي يبدو وكأن الطبيعة قد تآمرت ضدي، لتحاصرني في هذا الفضاء اللامحدود. في يدي، كان هناك قارورة ماءٍ واحدة، وهي الكنز الثمين الذي أملكه في هذا العالم الذي لا ينتهي. كانت تلك القارورة بمثابة شريان الحياة بيني وبين الهلاك، والأمل الوحيد في تلك الصحراء القاسية التي لا تعرف الرحمة.

وسط كل هذا، بينما كنت أواصل السير في صمت الصحراء القاسي، لاح لي شيءٌ صغير بين الصخور، يلمع في بريقه الخافت كما لو كان شعاعًا من الأمل وسط هذا الفضاء اللامتناهي. اقتربتُ ببطء، مستعينًا بعينيّ اللتين بدأتا تتعبان من حرارة الشمس التي لا تنتهي، لأكتشف أن ذلك الشيء ليس إلا عصفورًا صغيرًا، قد أصابه ما أصابه من قسوة الحياة. كان لون ريشه البرتقالي نابضًا في البداية، لكن جناحيه كانا مطويين بإحساس مفرط بالجفاف، وكأنهما أوراقٌ قد أُنهكت من العطش والحرمان، ملونة باليأس والمرارة. كان جسده مكسورًا، رجله التي بدت هشّة كغصن شجرة يتهاوى تحت ثقل الرياح، وكأنها تحطمت أمام صخرة الحياة التي لا ترحم.

لكن ما لفت انتباهي حقًا، كان شيءٌ غريب، شيءٌ لا يمكن أن يتوقعه أحد في تلك الصحراء القاحلة. في قفاه، كانت تبرز سبعة ذيول صغيرة، تكاد تكون أجنحةً لم تكتمل، تنبت هنا وهناك بترتيب عجيب، كأنها تذكّرني بشيء من عالمٍ آخر. عيناه البرتقاليّتان، اللتان كانتا تتلألآن كالذهب المذاب، تذكرني بفاكهة "تافكّاشت"، وكأنها تمتص الضوء من الأرض مباشرة. كان يحدق بي بنظرة صافية، بلا خوف، ولا رجاء. كانت عيناه تحكيان قصة قديمة، قصة لا يفقهها إلا أولئك الذين عرفوا قسوة الصحراء، كأنهما كانتا تهمسان في أذني: "الخيار لك".

حين نظرتُ إلى هذا الكائن الصغير، الذي بالكاد يقاوم الحياة، شعرتُ أن كل شيء من حولي قد توقف. الجبال التي كانت تئن من الحر، الشموس التي كانت تبعث لهيبها اللامتناهي، الرياح التي كانت تعصف بالصحراء كلها، فجأة صمتت. وكأنها تركتني أواجه هذا الاختيار الصعب، هذا القرار الذي أصبح أكبر من وجودي. كان الجو ثقيلاً، وسكونه كان يشبه غياب الأمل، لكن في تلك اللحظة بالذات، بدأتُ أستشعر ثقل القرار الذي يتوجب علي اتخاذه. رفعتُ قارورتي ببطءٍ، وأحسستُ بثقلها بين يديّ. لم يكن ثقلها في الماء الذي تحتويه، بل في المعنى الذي يحمل بين طياته. كانت قطرة الماء التي أحملها هي أغلى ما أملك في هذا العالم اللامحدود، وكانت العطش في روحي يشدني نحو هذه القطرة وكأنها نافذة أخيرة نحو الحياة.

ولكن، أمام هذا الكائن الضعيف، الذي بالكاد يحتفظ ببقية من الحياة، شعرتُ أن كل أحاسيسي تتجمع في نقطة واحدة. لم أستطع مقاومة ذلك الضعف الذي يعتريني، فتحتُ الغطاء، وسكبتُ الماء ببطء على الأرض، في محاولة لمنح هذا الكائن فرصة لعيش ما تبقى له من حياة. كان يشرب بلهفة، وكأن قطرة ماء واحدة كانت بمثابة عودةٍ من الموت، وعينيه البرتقاليتين تلمعان بحياة جديدة، بينما كنتُ أشعر بجفافٍ في أعماق قلبي، يزيد مع كل قطرة تسقط من قارورتي، وكأن قلبي يذوب مع تلك المياه.

وبعد أن ارتوى، أخذته برفق بين يديّ، كأنني أحتفظ بسرٍ كبير لا يفهمه غيري. حملته بحذر، وحاولت أن أضعه في مكانٍ بعيد عن لهيب الشمس، بين صخورٍ كبيرة توفر له بعض الراحة. وضعته في الظل، حيث يمكنه أن يستعيد قوته، بعيدًا عن قسوة الصحراء. لحظتها شعرتُ أنني، رغم عطشي وضياعي، قد استعدتُ شيئًا ما. شعرتُ بشيء غريب، شعورًا بأنني ما زلت إنسانًا، ما زلت أملك جزءًا من إنسانيتي. شعرتُ بأن روح هذا الطائر قد تركت بصمة في

داخلي، وبريقًا من الأمل يمكنني أن أستند عليه في مواجهة هذا العالم القاسي.

واصلتُ طريقي بعدها، أكثر إرهاقًا، وأكثر عطشًا، لكن بقلبي دفءٌ غريب. كانت العطش في جسدي يزيد، لكن روحي كانت قد ارتوت بشيء مختلف، بشعورٍ من الأمل والإيمان بالحياة. وفيما كنت أتقدم وسط الصحراء، التي أصبحت أكثر قسوةً، بدأت أحس بشيء آخر يتشكل أمام عينيّ. في الأفق البعيد، ظهر منزل صغير، كان يبدو كما لو أنه وُجد وسط تلك الصحراء المتحجرة. شعرتُ أنني أراه، لكنه كان مجرد سراب، مجرد خيال يتشكل في عقلي، لكن مع ذلك، بدأت أركض نحوه، دون تفكير أو إدراك. كانت قدماي تحثّانني على الجري، والجسد يندفع نحو ذلك المكان الذي كان مجرد حلم بعيد. وبينما كنت أركض، كنت أقول لنفسي، بأصواتٍ غير واضحة، وبالأمازيغية:

- "أنا هنا!... أنا هنا"!...!

ماإن وصلت إلى تلك النقطة في الصحراء، حتى رأيت شيئًا لا يمكن تفسيره بسهولة، شيءٌ يتحدى المنطق، كأنه جزءٌ من حلمٍ عابر، أو أسطورة قديمة بعيدة. كانت هناك طفلة، تقف أمامي في صمت، تتأملني بعينين لامعتين، وتحيطني بهالة من الغموض الذي كان يحيط بكل شيء في تلك الأرض المتوحشة. كانت كأنما خرجت من صفحة كتاب قديم، فتاةً تمثل جمالًا آخر، بعيدًا عن كل ما أعرفه. شعرها الأبيض كان يتدفق حول وجهها كالشلال، يلمع تحت الشمس، حتى يبدو وكأن خيوط الضوء نفسها تجتمع في خصلاته، تسرحها الرياح برفق. كان الشعر طويلًا جدًا، ينزلق مثل سيلٍ من الأحلام، يراقص الرياح في رقةٍ لا توصف.

عيناها الرماديتان كانتا تحملان عمقًا غريبًا، وكأنهما مرآة لعالم آخر، يختبئ وراءهما كل التاريخ والأسرار. لم تكن مجرد عيون؛ كانت

أبوابًا لفهم لا يصل إليه إلا أولئك الذين مروا بتجربة الحياة كما لا يفهمها الآخرون. كان وجهها هادئًا، لكنه يحمل تلك الحكمة العتيقة، وكأن الزمن نفسه قد توقف أمامه ليحفظ فيه أسراره. شفتاها، منحنيتان في ابتسامةٍ غامضة، كانت تدلان على سرٍ عميق، سرٍ أكبر من أن يدركه عقلي في تلك اللحظة. كانت الابتسامة تلك كالحلم، لم تكتمل، لم توضح شيءًا، لكنها كانت تشي بالكثير من المعاني المخبأة.

حركاتها، كما لو كانت جزءًا من الرياح نفسها، خفيفة وسريعة، لا تترك وراءها أي أثر، ومع ذلك، كانت تحدث في روحي زوبعةً من المشاعر. كنتُ أقف، عاجزًا عن الحديث، لا أستطيع سوى مراقبتها، أبحث عن الكلمات المناسبة التي قد تصف هذا الحضور الفاتن. لكن الكلمات كلها بدا لي أنها فارغة، عاجزة عن الإمساك بتفاصيلها. كان الصمت يملأ الفضاء بيننا، صمتٌ ثقيلٌ يكشف عن كل شيء دون الحاجة للكلام.

كانت في عينيها بريقٌ حزين، ليس حزناً عاديًا، بل كأنها تحمل في مقلتيها تاريخًا كاملاً من الألم والصراع. حكاية ماضٍ لم يُطوَ بعد، ولكنه ليس ماضيًا ضعيفًا، بل ماضٍ قوي، لا يسمح للضعف أن يتسلل إليه. كانت قوية، ليس بالقوة التي تُرى أو تُسمع، بل بتلك القوة التي لا تأتي من الجسد، بل من الصمود الصامت. كان غموضها جزءًا من قوتها، كانت لغزًا ينتظر أن يُفكَّك على مهل، كأنها جزءٌ من اللامرئي الذي يصعب الإمساك به.

وفي كل نظرةٍ، كنت أغرق أكثر، لا في جمالها فقط، بل في شعورٍ غريبٍ، شعورٌ يخبرني أن هذا اللقاء لن يكون مجرد لقاء عابر، بل سيكون علامة في حياتي. كأنني أعيش لحظة مفصلية، لحظة يغير فيها شيء ما في روحي إلى الأبد. وفجأة، جاء صوتي ضعيفًا، وكأن الكلمات كانت تخرج بصعوبة من فمي، الجفاف يملأ شفتي،

والعطش يضغط على كل جزء في جسدي. قلت بالأمازيغية، ولم أستطع حتى أن أرفع صوتي كما ينبغي:

- " أريد الماء... "

كانت الكلمات تتردد في أذنيّ، وقعتُ على فخذيها بعد أن سقطت هي الأخرى نتيجة نزولها عتبة باب ذلك المنزل الطيني... كنتُ أعي أنني لست وحدي في هذه الصحراء، أن هنالك من يرانى.

لكن قبل أن أتمكن من التساؤل أكثر، قالت لي بصوتٍ هادئ، كان يحمل نبرة تعاطفٍ ، بلغتها العامية التي كانت أكثر من مجرد كلمات بالنسبة لي، كانت كالنغمات التي تلامس أوتار قلبي:

- "هل أنت بخير؟ لقد فقدت وعيك فجأة... أتمنى أن تكون بخير".

"لماذا أستطيع فهمها؟" كان هذا السؤال يتردد في ذهني. لكن ما كان أبعد من هذا السؤال كان تلك البراءة واللطافة التي تسكن روحها، تلك البراءة التي كانت تشع من عينيها وتغمر الكلمات التي تخرج من فمها. لم أتمكن من مقاومة الشعور الذي كان يغمرني، فقلت دون تفكير، وبصوت خافت ومازلتُ أستند على حِجرها:

- "جميلة"...

عندما تلفتُ إليها، رأيت وجهها يكتسي بتلك التعبيرات الطفولية التي تجعل القلب يلين. ثم، ابتسمتْ قليلاً، لكن سرعان ما تغيّر تعبير وجهها إلى شيء من الخجل، وكأنها لم تكن تتوقع تلك الكلمات البسيطة:

- "ماذا تقول؟ من؟ أنا؟ لا يمكن، هل ستتزوجني؟"

لم أستطع أن أقاوم تلك المزحة الطفولية التي خرجت من فمها، حتى وإن كانت تثير العجب. كان فكري مملوءًا ببراءة الأطفال، فقلت،

بكل جدية لا يعرفها سوى طفل في الثامنة، بعد أن إعتدلتُ ووضعتُ ركبتاي على الأرض مع وضع القدمين أسفل جسمي، وحططتُ راحة يدي في فخذايَ:

- "نعم، أريد أن أتزوجك".

أعتقد أن تلك كانت أغرب وأبسط طلبات الزواج التي يمكن أن تحدث بين طفلين. وكان من غير الممكن أن يحدث ذلك في أي سياق آخر سوى في عالم الأطفال، حيث الحياة بسيطة والأماني لا تعرف المستحيلات. ومع ذلك، لم ترفض، بل قبلت. لم يكن في المنزل أحدٌ ليتدخل أو ينبهنا إلى سخافة الموقف، حتى أنني بدأت أصدق أننا قد نكون حقًا متزوجين، ولكن بعد ثلاثة أيام من هذا الوعد البريء، بدأت الأسئلة تتراكم في عقلي، فتجرأت وسألتها:

- "ألا تعيشين مع أحد؟ هل تسمعينني؟ هوي... ريما".

كنت أراقبها في تلك اللحظة، وهي جالسة على الكرسي في البلكونة التي كانت تطلّ على الجبال البعيدة، على ذلك المنزل البسيط الذي يقع تحت ظل جبل "أسدرم"، منزل طيني ذو طابقين وسطح، حيث كانت تجلس، مع قدمها على الأخرى في هدوء. كان المكان يتنفس بسكينة لا تشبه سكينة أي مكان آخر. فأومأت بالإيجاب قائلة:

- "لا، كنت أعيش مع أبي، لكنه مات قبل عامين. منذ وفاته، الطعام يصلني كل يوم... وأيضًا، عندما نصل إلى سن السادسة عشر، أريد أن نتزوج رسميًا. أليس ذلك فكرة رائعة؟ فأنا أحبك بعد كل شيء".

كان هناك شيء غريب في كلماتها، شيء يجعل القلب يقفز في الصدر. ثم، بتفكيرٍ جدّي، سألتها، بعد أن ترحمتُ عليه:

- "إذن، أين توجد البلدة؟ سأذهب غدًا لأعمل، فإني أريد أن أكون قادرًا على تأمين مصروفي بنفسي، لا يمكنني أن أعتمد على خطيبتي في الطعام".

أجابت، بصوتها الحلو كالسكر:

- "نعم، البلدة توجد وراء "أسدرم"..."

في اليوم التالي، توجهت إلى البلدة، محملًا بأفكارٍ كثيرة، لكن شيئًا غريبًا حدث في الطريق. بينما كنت أمشي، شعرت بشيء ثقيل يحلق فوق رأسي، وعندما نظرت إلى السماء، فوجئت بطائرٍ ضخم، كان حجمه مثل البومة، يهبط فجأة ليقف على رأسي. في تلك اللحظة، فقدت توازني، وكأن ثقل الطائر قد سحبني نحو الأسفل. وبينما كنت أحاول استعادة توازني، اكتشفت ما لم أكن أتوقعه: كان هو نفس العصفور الذي رأيته في بداية رحلتي، لكن كيف تحول إلى هذا الحجم الكبير؟!

عدت إلى المنزل، وضعت الطائر في غرفة ريما، وكان ما حدث بعد ذلك أكثر غرابة مما توقعت. بينما كنت أقف أمام المرآة، أرى نفسي لأول مرة بعيون جديدة. لم أكن أحب وصف مظهري، لكن في تلك اللحظة، شعرت بشيء غريب. كنت طفلاً في الثامنة من عمري، شعري كان يصل إلى وجنتيّ، لونه أزرق داكن، يكاد يغمق لدرجة أن الزرقة تكاد تختفي، لكن رغم ذلك، كانت لا تزال تشع بريقًا خاصًا. أما أذنيّ، فكانتا متوسطتين في الحجم، وأنفي كان عادياً، وفمي أيضًا، رغم أنني شعرت وكأنني وسيم في تلك اللحظة، بعد كل شيء... لكن قبل أن أستطيع التفكير أكثر في نفسي، سمعت صرخة مفاجئة من ريما، جعلتني أرتعب وأتراجع:

- "ما هذا... ما هذا الشيء؟"!

التفتُّ لأراها، كانت في أبعد زاوية من السرير، تجلس على حافة الفراش، تكاد تسقط من الخوف وهي ممسكة بالمخدة، عيناها متسعتان من الفزع، وكان وجهها شاحبًا كمن فقد القدرة على التنفس فجأة. شعرتُ بشيء في داخلي يضغط عليّ، أريد أن أهدئها، أريد أن أخبرها أن كل شيء على ما يرام، ولكن الكلمات كأنها تغلفها قسوة الواقع. فقلت، وأنا أقترب منها برفق:

- "لا تخافي... إنه طائر، أعطيته بعض الماء عندما كنت ضائعًا في الصحراء. لكنه كبر فجأة، لم يكن هكذا عندما رأيته لأول مرة".

كان الصوت في فمي عميقًا، مليئًا بالمشاعر التي كنت أحاول كبحها. ريما كانت تجلس، عيناها تتابعان الطائر الكبير بحذر، وكأنها لا تعرف إذا كان سيقفز نحوها في لحظة.

- "إذن هل تريد تربيته؟ لماذا أسأل أصلاً، ماذا نسميه؟"

- "ما رأيك بأنس؟"

قلت ذلك بنبرة شبه ساخرة، لا أدري لماذا، ربما لأنني أردت أن أخفف من رهبة اللحظة. لكن ريما، التي كانت أكثر جدية من ذلك، لم تبدُ متحمسةً للاسم.

- "إنه طائرك، أبعده عني، إنه كبير جدًا! قد يقتلك ويأكلك"!

كانت كلماتها مزيجا بين الخوف وأيضا السعادة، لقد شعرت بشعورها، إذن أنت تكذبين، إنك تحبينه أيتها الحمقاء، فقلت:

- "سأضع كأسًا في فمه:"...

- أيها الأحمق".

4

مرت الأيام سريعًا، كما لو أن الزمن نفسه كان يركض بأسرع مما يجب. وصلنا إلى يومي المنتظر، اليوم الذي كنت أعيش فيه لحظة الانتقال من الطفولة إلى مرحلة أخرى، وصلتُ إلى سن السادسة عشر، وهو العمر الذي كان يبدو في عينيّ في الماضي بعيدًا جدًا، ولكنني كُنت أعي أنه كان يشير إلى بداية شيء جديد. جلستُ في حضرة الشيخ، الذي تولى كل ما يتعلق بالخطوبة وطقوسه، في منزله الطيني القديم، صالونه كان قطعة من الذاكرة، بجدرانه الطينية المزينة بالجير الأبيض ونافذته الصغيرة المطلة على بستان الزيتون. الأرضية مفروشة بحصير يدوي، تعلوه وسائد تقليدية وأرائك طينية مغطاة بأقمشة ناعمة. تتوسطه طاولة نحاسية صغيرة عليها إبريق شاي فضي وكؤوس مزخرفة، فيما يعبق المكان برائحة الشاي والنعناع، ممتزجة بعبق التراب بعد ليلة ممطرة. السقف الخشبي المدعّم بالقصب يعكس سكينة المكان.

الجو حولنا مملوءٌ بالرهبة والاحترام، كما في كل لحظة مهمة في حياتنا. لكن، رغم الوقار الذي يحيط بنا، كان هناك شيء آخر يغلف مشاعري، شيء كان يربطني بتلك اللحظة بشكل أعمق من أي طقس أو فعل تقليدي. كان ذلك الشيء ربما، هي التي كانت هناك، جالسة في الزاوية كما لو أنها كانت تتأمل الجميع، ولكن عيونها، التي تلمع ببريق غامض، كانت تخفي وراء صمتها قصة قديمة لا تُقال. لم أستطع أن أتوقف عن النظر إليها، ربما التي تشبه الزهور النادرة، التي لا تنمو إلا في أماكن معينة، في أوقات معينة، وكأنها كانت تجسد شيئًا لا يمكن تحليله أو تفسيره. كنت أراها هناك، ولا

أستطيع إلا أن أغرق في تلك النظرة التي تحمل في عمقها كل الأحلام والآمال التي لم تكتمل بعد.

أخي مروان، الذي كان يجلس بجانبي، كان جزءًا من هذه اللحظة أيضًا. صديقي الأقرب، ولكن بالنسبة لي كان أكثر من ذلك بكثير. مروان، الذي يكبرني بأربع سنوات فقط، كان الشخص الذي شعرت معه دومًا بالأمان، وكأن بيننا علاقة لا تحتاج إلى كلمات. كان أكثر من أخ لي، كان السند الذي يقف إلى جانبي دون أن يطلب شيئًا في المقابل. هو الذي كان يقدم الدعم لريما قبل أن نتقابل، قلبي ينبض بشيء آخر، بشيء كان يضعها في مكان أكبر من أن تحتله أي شخص آخر.

كنت أراقبها بعيني، تلك النظرة التي لم أستطع تجاهلها، وكأنها تهمس في أذني "كل شيء على ما يرام". في تلك اللحظة، وسط طقوس الزواج التي خضناها، شعرت وكأن الوقت قد توقف، وكأن كل شيء في العالم من حولنا قد تلاشى ليتركنا نحن فقط، نعيش لحظتنا الخاصة. كل شيء كان يبدو بعيدًا عنّي، غير واضح، وكأنني لم أكن في نفس المكان الذي كنت فيه قبل لحظات. لم يكن أحد في ذلك المكان يستطيع أن يفهم ما كان في داخلي، ولم يكن أحد يدرك مدى تعقيد مشاعري التي كانت تتنازع بين الحيرة، والحب، والخجل. كان الجميع في حضرة الطقوس، يتبادلون الألفاظ، يقومون بما هو معتاد، لكن ما كان يهمني فعلاً كان ما لم يُقال، كان ذلك الشيء غير المكتوب الذي كان يعيش بيننا نحن فقط.

وفي تلك اللحظة، عندما تم إعلان ريما شريكتي في الحياة، كان ذلك يعني أكثر من مجرد خطوة رسمية. كان يعني أنني وضعت نفسي في قلب هذا الحلم الذي بدأ يتشكل أمامي، حلم كنت قد نسيت تفاصيله مرارًا وتكرارًا، لكنه عاد ليقف أمامي الآن، في صورة ريما، في تلك اللحظة التي كانت تحمل فيها كل ما لم أكن مستعدًا له.

كانت هذه بداية شيء أكبر من أي تصور، لكن في أعماقي كنت أعلم أن هذه البداية قد تفتح أبوابًا لم نكن مستعدين لها، أبوابًا ستقودنا إلى عوالم لم نكن نعرفها بعد، إلى خفايا أنفسنا التي لم نكن مستعدين لمواجهتها. فهل كنت فعلاً مستعدًا لهذا؟ أم أنني كنت مجرد طفل في عالمٍ أكبر من قدرتي على استيعابه؟ كنت أشعر في تلك اللحظة أنني وقفت على عتبة شيء عظيم، شيء لا يقدره إلا من عاش تلك اللحظات المليئة بالتساؤلات والآمال، في تلك اللحظات حركت ريما شفتيها قائلة دون كلام، تواصل لا يفهمه إلا أنا وهي:

- " كل شيء على ما يرام "

كان هناك شيء أكبر، شيء غير مكتوب، شيء لا يستطيع أحد فهمه سوى من عاشه. كنت أشعر بنبضات قلبي تتسارع، وكأنها تدق في تناغم مع حياتي التي كانت تزداد جمالًا، شيئًا فشيئًا. كنت أعلم أن الحياة ستصبح ممتعة جدًا، وأنني مستعد لها أكثر مما كنت أتوق، هل ريما تشعر بشعوري أيضا؟ طآن هذا تساؤلي الذي عرفت جوابه، فريما هي أكثر شخص مميز في عالمي.

وأنا الآن في نفس غرفة ريما، أُحدق في نفس المرآة التي كنت أراها سابقًا، لكن هذه المرة، كان هناك شيء غريب يحدث. شعرت بشيء غامض في شعري، الذي كان لونه الأزرق الداكن، والذي يصل إلى عنقي. بدأت بعض خُصلاته تتغير تدريجيًا، محوّلةً نفسها إلى اللون البرتقالي، وكأنها كانت تروي لي قصة لم أفهمها بعد. كان التحول تدريجيًا، لكنه واضح. كما لو أن هناك شيئًا غير مرئي كان يحدث داخل شعري، شيئًا لا أستطيع تفسيره. كانت تلك اللحظة بمثابة إشارة، لم أدرك بعد ما هي، لكنها كانت تشعرني بترقب غريب.

ذهبت إلى ريما، التي كانت تجلس قرب النافذة، مبتسمة كمن يحمل سرًا صغيرًا في قلبه. كانت تنظر إلى الخارج. وعندما التفتت إليّ، لاحظت شيئًا غريبًا في عينيها، شيئًا لم أره من قبل. عيناها كانت قد أصبحتا برتقاليتين، تمامًا مثل اللون الذي بدأ يظهر في شعري.

رفعت صوتي، الذي كَبر مع كِبر سني، وأنا أحاول أن أستوعب ما يحدث:

- "هوي... ريما، مابالك؟"

- "ماذا تقصد؟"

بينما كانت هي ترد بسرعة، وكأنها لم تكن تدرك التغيير الذي حدث لها في لحظة ثم نظرت إلى شعرها، وعينيها اتسعتا بدهشة. لم يكن الأمر مجرد تغير بسيط، بل كان تحولًا كاملاً. شعرها تحول بالبرتقالي بالكامل، وكان يبدو وكأنه ينطق بشيء أكبر من مجرد تغيير في اللون. كانت ترتسم على وجهها نظرة لا يمكنني وصفها، خليط من الدهشة والقلق.

وبينما كانت تنظر إلى نفسها في المرآة بعد أن إتجهت لغرفتها، كان الصمت بيننا يتراكم فقلت لها وأنا لا أستطيع أن أخفي التوتر في صوتي:

- "أنا أيضًا بدأت ألاحظ أن بعض الشعرات في شعري تغيرت لهذا اللون... إنه نفس اللون الذي يحمله أنس".

كانت تلك الكلمات بمثابة محاولة لفهم ما يجري، لكن ما من إجابة كانت تلوح في الأفق. ورغم الصدمة التي كانت تبدو عليها، نظرت إليَّ ريما، وأجابَتني بلهجة أكثر هدوءًا، محاولة أن تسيطر على خوفها، لكنها كانت هادئة:

- "لا يهمني، أنت ستحبني مهما كان لون شعري، لذلك هذا لا يهمني".

فقلت، محاولاً البحث عن تفسير، أو ربما مجرد فكرة تريحني:

- "لكن، يجب أن نجد حلاً لهذا".

لكن ريما، بكل هدوئها، نظرت إليَّ كما لو أنها قد استوعبت كل شيء قبل أن يحدث، وقالت، بعد نقرها على رأسي بإصبعها السبابة النحيف:

- "لنترك الأمور تمضي كما تشاء. لندع اللّه يسير الأمور".

كنا منهمكين في تنظيف المنزل وتحريك الأثاث، بعد أن اشترينا أثاثًا جديدًا، وفجأة ظهر أنس، يطير في الهواء ليقف على رأسي، فقلت بمزاح بعد أن خطوتُ نحو غرفتي التي كُنت أنقل أثاثها إلى حجرة ريما الأوسع مساحةً:

- "ما هي حقيقتك يا ترى؟"

إذ فجأة، تلاحقت الأفكار في عقلي بسرعة، وكأن كل شيء أصبح واضحًا أمامي فجأة، كأنني فهمت كل شيء بشكل كامل، دون أن أحتاج لتفسير. كانت الأفكار تتدفق كما لو أنها رسخت في ذهني بشكلٍ لا يقبل الشك. لكن، وسط هذا الهدوء الغريب الذي غمرني، سمعت صرخة مفاجئة قادمة من جهة ريما. ركضت نحوها، وصوتي يهتف:

-"ريما... ريما"!

وصلت إليها بسرعة، ووجدتها فاقدة الوعي، جثة بلا حياة، فهرعت لوضعها على السريرِ بسرعة، ودعوت ربي أن ييسر الأمور ويبعد عنّا البلاء. ظللت جالسًا بجانبها، مرهقًا وقلبي يكاد يتوقف، ساعات

وساعات حتى شعرت بشفتيها على خدي. كانت قد قبلتني. تراجعت قليلاً، لكن صوتها جاء ضعيفًا، خافتًا ولكن واضحًا:

- "هل وصلتك تلك الأفكار؟"

- "أنتِ أيضا؟".

فقلتُ بعد هنيهة ربتت فيها على رأسها:

- " وصلتني أفكار تقول أن: الفينيق هو طائر أسطوري يمثل دورة الحياة الأبدية، خلق نفسه من رماد غابة قديمة تُدعى "الفينيق"، التي تعرضت لحريق هائل. هذا الطائر ليس مجرد مخلوق عادي، بل هو رمز للتجدد المستمر، حيث يخلق نفسه بنفسه بعد كل موت. الفينيق ليس فقط رمزًا للحياة، بل هو أيضًا يمثل القدرة على التحول، التغير، والإبادة.

يتزاوج الفينيق مع أفعى تدعى "الأوروبوروس"، وهي أفعى صفراء مزخرفة باللون الأسود، وتمثل هي الأخرى دورة اللانهاية، حيث تأكل الأفعى ذيلها في عملية متكررة لا نهاية لها. هذه الأفعى، مثل الفينيق، تجسد الطبيعة الخالدة والمستمرة للوجود. لكن على الرغم من تشابه الهدف بين الفينيق والأوروبوروس في سعيهما نحو الاستمرارية، فإن لكل منهما رؤية مختلفة عن الحرية والموت.

الفينيق يوجد في ثلاثة أنواع: الأصغر، الأوسط، والأكبر. أول طائر فينيق، الذي يُعتبر الأكبر، وُلد في العام 2178 قبل الميلاد وعاش حتى السنة الأولى بعد الميلاد. بعد موته، تستهلك زوجته التي تمتلك أيضًا فئات خاصة بها ذيلها، ما يؤدي إلى موتها هي الأخرى. من دم زوجته الكبرى ودمه، يُخلق طائر الفينيق الذي يُسمى "الأوسط"، الذي يمتلك ثمانية ذيول. من بين هذه الذيول، يخرج أفعى الوسطى التي تتشكل من ذيله الثامن، ليبقى له سبعة ذيول.

لكن الفينيق ليس مجرد طائر عادي، بل هو كائن خارق. لديه القدرة على التحول إلى هيئة بشرية، أو أي حيوان آخر، كما يمكنه تكبير أو تصغير جسده. يمتلك القدرة على اختراق قوانين الطبيعة، لدرجة أن بإمكانه الاختفاء بسرعات مذهلة. كما يمكنه أن يخلق العواصف والرياح، وحتى الفيضانات، بمجرد تلويحة من جناحيه، يستطيع أيضا أن يجعلك تشعر بشعور شخص إذا كان يثق فيك، مع تقدم العمر، يزداد قوة هذا الطائر. لذا، فإن الفينيق الأكبر أقوى من الفينيق الأوسط، والأوسط أقوى من الأصغر. هذا الطائر أيضًا قادر على إيقاف الزمن بدخول "عالم المجهول"، عالم يتجاوز الواقع المادي. أحد أهم جوانب الفينيق هو مفهوم الحرية الذي يجسده. بالنسبة له، الحرية ليست مجرد حق، بل هي جوهر وجوده. إذا لم تُحترم رغباته في الحرية، يصبح متكبرًا ومتعاليًا، لدرجة أنه يتحول إلى تجسيد حقيقي للكبرياء. علاوة على ذلك، يكره الفينيق كل أشكال العبودية ويسعى لتحرير الجميع، معتقدًا أن الجميع يجب أن يعيشوا بحرية.

لكن الفينيق، على الرغم من كل قوته، يمكن أن يكون فخًا. هذا هو ما حدث عندما اكتشفت الفينيق في هيئته الهشة لأول مرة. في البداية، ظننت أنه عصفور مسكين، مصاب أو مكسور الرجل، لكنه في الحقيقة كان يختبرني ليجد شخصًا يثق فيه. بالصدفة، كنت أنا هذا الشخص الذي وضع فيه الأوسط ثقة، وحدث ما حدث.

الفينيق الأوسط، الذي يمثل المرحلة الوسطى من دورة الفينيق، يحمل هدفًا آخر. إنه يهدف إلى إبادة عرقه، أي قتل الأفعى "الأوروبوروس" لكي لا يتمكن من التكاثر مجددًا. وهذه الأفعى، التي تتبع هي الأخرى دورة الحياة، تتغذى على ذيلها وتستمر في ذلك حتى تموت. لكن على الرغم من أنها تتابع دورة الموت هذه، فإن للأوروبوروس رؤية مغايرة للحرية: هي ترى أن الحرية هي خيار

شخصي، وليست حرية جماعية. لذلك، هي لا تكره العبيد بقدر ما تكره الذين تحرروا من قيودهم. إذا رأت شخصًا حرًا، فإنها ستسعى لقتله، حتى تمنعه من التمتع بحريته.

في هذه الحالة، اختار الفينيق الأوسط أن يلجأ إلينا للمساعدة في قتل الأوروبوروس. من خلال مساعدتنا في هذا الصراع، منحنا الفينيق حكمته، قوته، وذكاءه لنكون وصيا له. هذا التحدي الذي وضعه أمامنا كان أكثر من مجرد صراع بين مخلوقات خيالية. كان دعوة لفهم أعمق لمعنى الحياة، الموت، والتحرر."

فأتى أنس – الأوسط – طائراً ليجلس على كتفي، فإذ به يحترق بدموية، جناحاه يشعلان بلهيبٍ لا يرحم، قلت وأنا أصيح فيه لكني كُنت قد إستوعبتُ ما سيحصل:

- "أين عويلك على الأقل؟، أنت تموت ولا تصرخ، تصبر وتصبر فقط، حتى لو كنت كائن خارقا فيجب أن تُعطى حقك أيضا."

اللهيب يلتهم جسده المنهك، يذيب الريش وينقض على العظام، فتنحسر ألوانه الزاهية ببطء إلى ظلال قاتمة. في لحظة أخيرة، يتحول إلى كتلة متفحمة من الرماد، يتطاير في الهواء ويختفي في العدم، كما لو لم يكن موجودًا أبدًا ليقول:

- " سنلتقي غالبا، لكني قد أكرهك يا أبي، وأحبك أمـــــــي"

استغربت من كلامه، كلمات حطت على مسامعي بثقل، وكأنها تحمل سرًا أكبر مما أستطيع إدراكه. التفت نحو ريما أبحث عن تفسير، عن إجابة تشاركني فيها هذا العبء. وما إن هممت بفتح فمي للسؤال حتى باغتتني بقولها، وكأنها قرأت أفكاري:

- "ما رأيك؟"

تجمدت للحظة، قبل أن أجيب متلعثمًا:

- "هه... هذا كان سؤالي! لقد مات... أليس كذلك؟ لكن ماذا يقصد بـ سنلتقي غالبًا؟ كيف يمكن ذلك؟ ألم يمت؟ أم أنه سيُبعث مرة أخرى؟ مات؟ مات؟"

شعرت وكأن رأسي سينفجر، كلمات تتدافع داخلي، وكأنها تبحث عن مخرج. أمسكت برأسي وبدأت أردد كلمة 'مات' كالمجنون. لكن حين رفعت نظري أخيرًا، رأيت دموعٍ ريما تنساب على وجنتيها. تلك الدموع التي لم أفهم معناها فورًا. لماذا تبكي؟ هل تبكي على أنس؟ أم أن هناك شيئًا آخر يخالج قلبها؟

ثم فجأة، ودون سابق إنذار، رفعت يدها وصفعتني صفعة لن أنساها أبدًا. شعرت بحرارة يدها تخترق وجهي، لكن أكثر ما أحرقني كان رؤيتها تذرف الدموع، دموعًا غاضبة وأخرى حزينة. رفعت رأسها وقالت، بينما كانت عيناها تلمعان بالدموع، وقد احمرتا من كثرة البكاء:

- "أيها الغبي! لماذا؟ ألم أقل لك أننا سنتعاون في كل شيء؟ لماذا تفقد أعصابك هكذا؟ كل شيء على ما يرام"...

كلماتها كانت كالسهم الذي أصاب قلبي. رأيتها تحاول حبس شهقاتها وهي تمسح دموعها بيدها المرتعشة. منظرها كان أقوى من أي لوم. شعرت بندم عارم ينهشني، فمددت ذراعي نحوها، وأخذتها بين أحضاني. ضممتها برفق، وكأنني أضم طفلة صغيرة تبحث عن الأمان وسط العاصفة. همست بصوت هادئ مطمئن، محاولًا تهدئتها:

- "نعم، كل شيء على ما يرام، "

شعرت بها تهدأ قليلًا، كقطة صغيرة بدأت تستعيد طمأنينتها. ثم رفعت رأسها وقالت بصوت خافت:

- " سأقول لك ما فهمته ايضا"

أومأت لها بهدوء، وابتسامة صغيرة تتسلل إلى وجهي رغم كل شيء.

فقالت :

- عرفت أن هناك عالمًا يُدعى غليما، عالمٌ مليء بالغرائب والأساطير. في هذا العالم توجد مملكتان عظيمتان هما أماداستينا وبريغابلو . بين هاتين المملكتين كانت تمتد غابةٌ شاسعة، غابةٌ ليست كأي غابة عادية، بل كانت أشبه بحديقةٍ خيالية تفوح منها رائحة الأزهار الغريبة، وتتخللها أنهارٌ لامعة وكائنات غامضة. إلا أن هذه الغابة لم تعد موجودة، فقد تعرضت لحريقٍ هائل، حريقٌ قيل إنه لم يكن طبيعيًا، وإنما نتيجة صراعٍ بين قوى لا تُرى، قوى جعلت النيران تأتي على كل شيء. من رماد تلك الغابة، الذي كان ساخنًا ومشتعلًا لأسابيع، خرج كيانٌ غير عادي، يُدعى الفينيق الأكبر .كان حجمه مهولًا، بجناحين يمتدان كالأفق وجسدٍ ضخمٍ يُضاهي الجبال الشاهقة. عندما حلق لأول مرة، اختفت الشمس وراء وهج أجنحته المضيئة، وأصبح مصدرًا للرعب والإجلال معًا. لم يكن الفينيق الأكبر كائنًا عاديًا؛ فقد خُلق بثمانية ذيول ضخمة، لكل ذيل طاقة خاصة، ولكن الذيل الثامن كان مختلفًا تمامًا. كان أشبه بلعنة أو باب لعالمٍ آخر، ومنه خرج مخلوقٌ غريبٌ ومروع يُدعى الأوروبوروس .كانت أفعى عملاقة لا حدود لطولها، قادرة على إلتقام الجبال بمجرد إلتفافها عليها.

هنا يكمن الاختلاف، حيث تؤمن مملكة أماداستينا بالفينيق إيمانًا عميقًا لدرجة العبادة، فهو ليس مجرد رمزٍ لديهم، بل إلهٌ حيٌ يمثل القوة والحياة والتجدد. لكن جذور هذه العبادة تعود إلى قرونٍ بعيدة، عندما ظهر في تاريخهم رجلٌ غريبٌ من عالمنا، رجلٌ لم يكن ينتمي إلى غليما، بل جاء من اليابان واسمه فينيكسو. فينيكسو لم يكن رجلًا عاديًا، بل كان مهووسًا بالفينيق حتى جعله محور حياته وسبب وجوده. غرق هذا الرجل في يأسٍ قاتل نتيجة فقدانه لكل ما يملك، شعورٌ أشبه بالجحيم الداخلي الذي دفعه للبحث عن أي سبيلٍ للخلاص. في خضم هذا اليأس، قادته الأقدار إلى صخرةٍ غريبة تُدعى صخرة المجهول .هذه الصخرة ليست مجرد كتلةٍ من الحجر، بل هي بوابةٌ سحرية تفصل بين عالمنا وعالم غليما. تفعيل هذه الصخرة ممكنٌ بطريقتين: الأولى هي النطق بالعبارة السحرية "الفينيق متحد مماته ."عبارةٌ غامضة مليئة بالمعاني العميقة التي تحمل في طياتها فلسفة الفينيق نفسه، القائم على فكرة الموت والتجدد. أما الطريقة الثانية، فهي أشد ظلامًا، حيث تتطلب أن تكون في حالةٍ من اليأس المطلق، يأسٌ يجعل وجودك نفسه عبئًا ثقيلًا لا يُحتمل. وهكذا، انتقل فينيكسو إلى غليما بعد أن غرق في قنوطٍ لا نهاية له. في هذا العالم الجديد، التقى فينيكسو بـ الأوروبوروس، الأفعى الخالدة التي كانت تمثل النقيض لفكرة التجدد، حيث كانت رمزًا للفناء المستمر والدورة الأبدية. الأفعى أوهمته بأنها تشاركه إيمانه بالفينيق وحبه له، لكنها كانت تخفي نوايا أخرى. معًا، ومن خلال السحر الأسود الذي مارسه فينيكسو، أطلقا لعنةً رهيبة تُعرف بـ لعنة الوشم. هذه اللعنة كانت بداية نهاية البراءة في عالم غليما .فبفضلها، صار الناس يولدون وعلاماتٌ

غريبة محفورةٌ على أجسادهم، هذه العلامات لم تكن مجرد وشومٍ عادية، بل رموزٌ تحدد مكانة الفرد ومصيره منذ ولادته. أولئك الذين يحملون خطين على ظهورهم عُرفوا بـ البيادق. هم الأكثر عدداً، ويُعاملون كأدواتٍ لخدمة الطبقات العليا .أما الأحصنة، فكانت وشومهم تتخذ شكل خطٍ واحد فقط، يرمز إلى القوة والبساطة، مما جعلهم أدنى من غيرهم في المرتبة. الفيلة كانوا يتميزون بوشومٍ دقيقة ورفيعة، تعكس براعتهم وحكمتهم، وغالبًا ما شغلوا مناصب تنفيذية مهمة .أما القلاع، فقد كانت وشومهم عبارةً عن ثلاثة خطوط عريضة وقصيرة، أقوياء ذوي بنية ضخمة. الأكثر تميزًا كانوا الملوك .وشومهم كانت على شكل زهرةٍ سوداء، رمزًا للهيمنة والسلطة، وهي زهرةٌ صامدة رغم الظلام الذي يحيط به. وأخيرًا، كان هناك الوزير، الأندر بين الجميع، يحمل وشمًا برتقاليًا يتغير مع حركة الشمس: يزداد احمرارًا عند الشروق، ويصفر عند الغروب. شكله يشبه طائر الفينيق، وأسفله رمادٌ يتحول تدريجيًا إلى طائرٍ جديد مع مرور الزمن، وكأنه يجسد دورة الحياة والموت المستمرة.

هذا النظام الطبقي الصارم الذي فرضته لعنة الوشم، أصبح أساس حياة مملكة أماداستينا. حكم الملوك والفيلة الطبقات الدنيا من البيادق والأحصنة والقلاع، وأصبحت الحرية مفهومًا غامضًا بل مستحيلًا. لكن هذا لم يكن ما أراده الفينيق الأكبر. كان هدفه الأساسي تحرير الجميع، ومحو الظلم الذي أصابهم. كان يسعى لإعادة أماداستينا إلى حالتها الأولى، حيث لا عبادةً له ولا طغيان. لتحقيق هذا الهدف، كان عليه مواجهة الأوروبوروس، لكن الأفعى لم تكن خصمًا بسيطًا. الأوروبوروس كانت ترى الحرية بشكلٍ مختلف. في نظرها، الحرية الحقيقية هي السيطرة المطلقة، وكانت تسعى لجعل الجميع عبيدًا تحت نظامها الطبقي، معتقدةً أنها بذلك تصبح

الحرة الوحيدة. تحولت الأفعى إلى تجسيدٍ للظلم المقنع بالحرية، وصار عالم غليما مسرحًا لصراعٍ أزلي بين النور والظلام، بين التجدد والفناء. أما فينيكسو، بعد أن أُطلق لعنة الوشم وأسس هذا العالم الطبقي بالتعاون مع الأوروبوروس، عاد إلى اليابان. لكن عودته لم تكن كما بدأ رحلته، فقد نطق العبارة السحرية "الفينيق متحد مماته "هذه المرة. استقر في بلاده، وتزاوج وأنجب نسلًا استمر في التعاون مع الأوروبوروس .صاروا يُعرفون باسم عائلة فينيكسو، وظلوا يشكلون جزءًا من المؤامرة التي تعصف بـ غليما. الآن، وبعد مرور الأجيال، نهض الفينيق الأوسط، وريث الفينيق الأكبر، عازمًا على إكمال إرث والده. لكنه أدرك أنه لا يستطيع إنجاز هذه المهمة بمفرده. لهذا كلفنا بمهمةٍ عظيمة: القضاء على كل من يتعاون مع الأوروبوروس، ثم مواجهة الأفعى نفسها وإنهاء وجودها للأبد. هذه هي الطريقة الوحيدة لإعادة التوازن إلى غليما، وتحقيق حلم الفينيق الأكبر في تحرير الجميع. "

كانت ممددة على السرير، بينما كنت أجلس على الكرسي بجانبها. فجأة، رفعت رأسها بلطف ووضعت رأسها على فخذي. صوتها كان هادئًا لكنه محمّل بالقلق، وقالت:

- "أتدري ماذا حدث في الأخير؟ رأيت أنس... لا أدري، لكنه كان يطير مثل الخفاش، وكأنه يتحدى قوانين الطبيعة. وقف أمامي وقال بصوتٍ مبحوح لكنه حاز: ' آسف، لكن أطفالكما... ستُرسلان أحدهما إلى أماداستينا، والآخر إلى عائلة فينيكسو '. "

بدأت دقات قلبي تشتعل، كنت خائفا لكني أخفيت ذلك، فساد الصمت لثوانٍ، قبل أن تتحرك قليلاً لتلتصق بي أكثر، رأسها لا يزال مستقرًا على بطني، كان صوتها مختلفًا هذه المرة، أقرب إلى الحزن، وكأنها تحاول كبح دموعها، وقالت بصوتٍ مبحوح:

- "لن أفعل ذلك أبدًا".

ثم فجأة تغيّر مزاجها تمامًا. ارتفع صوتها وهي تستقيم قليلاً، والغضب مشتعل في عينيها. فقالت :

- "إنه يريد أن يحرمني من أطفالي! هل تدرك هذا؟ هوي... عصام، أتستوعب ما الذي يقوله؟ يريد أن يأخذهم مني! كيف يمكنه أن يطلب شيئًا كهذا؟"

نظرتُ إليها بصمت للحظة، ثم انفجرت في ضحكة خفيفة، محاولًا كسر التوتر:

- "ههه، أي أطفال؟ ألدينا أطفال أصلًا؟"

تجمدت عيناها للحظة، ثم أمالت رأسها وكأنها تفكر بعمق، مما دفعني إلى التوقف عن المزاح فجأة. تغيرت نبرة صوتي إلى الجدية، وأخذتُ أتحدث ببطء ووضوح:

- "لكن، إذا افترضنا أنه قد حدث ذلك، إذا أرسلناهم حقًا إلى هناك... يجب أن نفهم الآلية أولًا. نحن بحاجة إلى إيجاد صخرة المجهول .إن تمكنّا من العثور عليها، يمكننا استخدامها للانتقال بين العوالم. أليست هذه فكرة مذهلة؟"

حدقت بي وهي تحاول استيعاب ما أقول، ثم أضفت، بصوت أكثر هدوءًا وكأنني أشرح خطة سرية:

- "فكرّي في الأمر. إذا امتلكنا هذه القدرة، لن نكون فقط قادرين على إخفاء وجودنا، بل سنكون قادرين على التلاعب بالعوالم ذاتها. يمكننا أن نستخدم قدرات أنس للهروب، للتنقل بحرية، وربما لإعادة الأمور إلى نصابها".

5

في النهاية، وبعد عشر سنوات من القرار الذي اتخذناه معًا، القرار الذي ارتكز على عقلانية قاسية وواقعية لا تخلو من ألم، كانت السنوات مهلة للتفكير، وقتا لا ننجب فيه أطفال كي نُفكر بعقلانية، حتى أنجبت ريما طفلين توأمين، هدية مزدوجة من القدر، طفلين يحملان فرحةً غير موصوفة، وعبئًا من نوع آخر على قلوبنا المثقلة بالقرارات.

كان الأول، أنس، صورة طبق الأصل مني. شعره الأزرق الداكن مثل شتاء السماء قبل الفجر، وعيناه الزرقاوتان الداكنتان، عميقتان كالمحيط، تعكس أحلامًا دفينة. خداه الممتلئان ووجهه البريء، أشعل في داخلي عاطفة لم أشعر بها من قبل، كأن حب العالم اختزل في هذا الطفل. أما الثاني، فقد مختلفًا تمامًا، طفلٌ يحمل في ملامحه سحرًا غريبًا. شعره الأبيض الناصع كثلج الجبال، وعيناه الرماديتان تتوهجان ببريق خفي، يشبهان ضوء القمر المنعكس على سطح ماء ساكن. كان جميلاً حد الرهبة، وكأن وجهه لوحة فنية أبدعها خيالٌ غير إنساني.

ريما كانت تحمله بين ذراعيها، وشعرها البرتقالي الطويل يتدلى ويلامس وجهه الصغير. ضحك الطفل ببراءة، تلك الضحكة التي شقت صدري نصفين؛ نصفًا يريد الاحتفاظ بهما هنا، وآخر يسير بثقل نحو القرار الذي كنا قد رسمناه منذ سنوات. لم تكن ريما تبتسم، فرأيت في عينيها ما يفوق الألم. نظرتها كانت سدًا هشًا أمام طوفان من الدموع، فأدركت أن علينا مواجهة اللحظة معًا. اقتربت منها، وضعت جبهتي على جبهتها، حرارتنا امتزجت، والعرق

الذي بدأ يتصبب من جبيني وجبينها كان يرمز لكل تلك القرارات الصعبة التي اتخذناها.

همست لها بصوت متهدج:

- "انسِ الأطفال للحظة... ركزي معي، عيناكِ يجب أن تريا عيني فقط، ولا شيء غير ذلك".

قطرة عرق ثقيلة تدلت من جبهتها، ثم سقطت على الأرض بيننا. كانت تلك القطرة، بالنسبة لي، حَكَمًا صامتًا على مصيرنا. تابعت بصوت مثقل بالمسؤولية:

- "لقد قررنا. سنرسلهم. وجدنا صخرة المجهول، ريما... ستذهبين مع كالسون. نعم، سنسميه كالسون. وأنا سأبقى مع أنس. عندما يناماان، سنتقابل دون أن يعرفا. كالسون سيُربى في الكنيسة، ستشاهدينه من بعيد، دون أن يشعر بك. وبعد ثمانية وعشرين عامًا في المغرب، ستعادل ثلاثة وعشرين عامًا في أماداستينا... ستنتظرين هذه المدة. وعندما يحين الوقت، ستتحولين إلى ذئب، وستدفعينه إلى الجرف. أما أنس، فسأجعل رئيس عائلة فينيكسو يرسل شخصًا للقضاء عليه. ثم، سنبدل أرواحهما... وحينها، سنقتل كل شخص له صلة بالأوروبوروس. وعندما ننتهي من كل شيء، سنعيش ما تبقى لنا مع أطفالنا... معًا".

رفعت رأسها، نظرت إليّ بعينيها اللتين لمعتا بتصميم مفاجئ. ثم دفعتني بخفة برأسها، ابتسامتها عادت مجددًا لتتوج وجهها، وقالت بنبرة مليئة بالحياة:

- "نعم، سنفعل ذلك. لكن قبل أن نبدأ، دعنا نستأجر رسامًا يرسم لنا لوحة نحن الأربعة"!

كنا قد انتقلنا من كلميمة إلى الرباط بعد عامين من زواجنا. بدا الانتقال وكأنه خطوة نحو حياة جديدة، لكنه كان في الحقيقة بداية لتلك الخطة المرهقة التي كنا نحملها كعبءٍ لا يُخفّ. استدعينا الرسام، وحضر إلى بيتنا الصغير. كان الجو هادئًا، لكنه مشحون بما لا يُقال.

وقفنا أمامه وكأننا نؤدي مشهدًا مسرحيًا مكتوبًا لنا. كنت أحمل أنس بين ذراعي، طفلًا يبلغ شهرًا بالكاد، بينما جلست ريما في كرسي خشبي، تحمل كالسون بين يديها برفق الأمومة الذي يسحق أي قلب. حاولت أن أبتسم. ابتسامة بالكاد استقرت على وجهي، لم تكن تعكس شيئًا سوى ثقل ما أخفيه. ريما، بوجهها الهادئ، كانت تبدو وكأنها سلمت بقرارنا، لكنها لم تخدعني. عرفت أنها تحارب هي الأخرى، فقط بشكل مختلف، بجدار صمتها الذي بُني من دموع لم تُذرف بعد.

حين أنهى الرسام عمله، حملت اللوحة بين يدي. نظرت إليها طويلاً. التفاصيل كانت مدهشة؛ أنس بين يديّ، بخديه الممتلئين وملامحه الصغيرة التي تحمل شبهي، وكالسون في حضن ريما، تلك الصورة التي رسمها الفنان كأنها عالم مثالي، عالم تمنيت لو أستطيع الاحتفاظ به. لكن اللوحة كانت نافذة إلى واقع آخر، إلى حياة كنت أتمناها ولكن أعرف أنني لن أحياها.

داخلي، كان هناك صراع لا يهدأ. أردت أن أكون أبًا عاديًا، أن أعيش ككل الأسر، أن أمنح أطفالي الحب الذي يستحقونه، أن أراهم يكبرون أمامي دون أن أكون مجرد ظل في حياتهم. أردت أن أبقى مع ريما، أن نكبر معًا، أن نحتفل بكل لحظة، بكل كلمة جديدة ينطقونها. لكن ذلك الحلم كان مستحيلاً. كان علينا أن نلتزم بالخطة، بالخيار الذي اخترناه، الخيار الذي سلبني حتى حق التردد.

همست لنفسي وأنا أضع اللوحة في مكانها، وكأنني أخاطب الزمان : "ثمانية وعشرون سنة... فقط ثمانية وعشرون سنة، وبعدها سنلتقي مجددًا. سنلتقي كأسرة واحدة".

قمنا بذلك بالفعل. الخطة التي وضعناها ونفذناها بعناية لم تترك لي سوى السير في طريق مليء بالوجع والخداع. والآن، أعيش بين عائلة فينيكسو، متقمصًا دور زوج لفتاة تُدعى "فيرجينا"، وقد أوهمت الجميع، بما فيهم ابني، بأنها أمه. لكن الحقيقة كانت شيئًا آخر. لم أكن أطيقها ولا أطيق أباها، عائلة غارقة في الفساد والقذارة. الأب وابنته يمتهنان كل ما هو لا شرعي دون خجل أو وازع.

تظاهرت بأنني مهتم بكتب الفلسفة التي كانوا يعشقونها، رغم أنني كنت أكرهها هي الأخرى. كمّية الإلحاد التي تسري في هذه الأسرة لا تُعقل. ظننت أن العيش بين كافرين سيكون أمرًا صعبًا على روحي، لكن الحقيقة كانت أكثر قسوة: كان مجرد التفكير في العيش وسط عائلة كافرة وأنا مسلم هو ما يستنزفني حقًا.

رأيت أنس يكبر في هذه البيئة، متأثرًا بهذه الأفكار الفاسدة. لكنني كنت واثقًا من أنه سيعود إلى فطرته، سيجد طريقه إلى الإيمان من تلقاء نفسه. وبينما كنت أراقب تلك العائلة، اكتشفت فتاة تُدعى "تامايو"، كانت هي الكبرى بين إخوتها، وقد قررت الأسرة أن تكون الزعيمة التالية. رأيت في عينيها ألمًا لا يوصف، ضحية أخرى لفساد عائلة فينيكسو. أدركت أن مصيرها سيكون عذابًا نفسيًا لا ينتهي إذا بقيت معهم. فأقنعتهم بأنها مريضة، وأخذتها إلى أماداستينا، إلى نفس المنزل الذي تعيش فيه ريما. هناك، بدأنا أنا وريما في تربيتها كابنتنا، منحناها حياة بديلة عن تلك التي كانت تنتظرها.

السنوات مرت سريعًا، لكن ما زال هاجس الفقد والخوف يطاردني. أكثر ما أرعبني كان ذلك اليوم حين حاول أنس الانتحار وهو لم

يتجاوز الرابعة من عمره. تأثر بتلك الأفكار الإلحادية التي كانت تحيط به من كل جانب. شعرت بالعجز والخوف، وقررت حينها أن أضع حداً لهذا التظاهر الزائف بقراءة تلك الكتب، أدركت أنني يجب أن أكون أقوى وأكثر وضوحًا.

ومع مرور السنوات، وجدت نفسي أخطط لخداع جديد. بعد عشر سنوات من ذلك الحادث المروع، تظاهرت بأنني انتحرت. أردت أن أعلمه درسًا عن حقيقة الموت، أن أفهمه أنه ليس نهاية العبث، بل بداية لما بعده. كان الهدف أن يدرك وهو في الرابعة عشرة من عمره أن الموت يقود إلى برزخ وقيامة. لكن ما أدهشني حينها كان رد فعله. هدوءه كان مريبًا، نظراته التي تحمل أبعادًا تتجاوز سنواته، عقلية كبيرة متجسدة في طفل صغير.

كان أنس يفاجئني دائمًا. في نصف عام فقط، أصبح محترفًا في الرسم، عبقريًا في كل ما يتعلق بالفهم والاستيعاب. أما كالسون، فقد أظهر صورة مختلفة تمامًا، إذ أصبح متنمرًا بسبب تربيته السيئة. كنت أنا وريما نناقش هذا كثيرًا، وفي أحد الأيام، قالت لي وهي تضحك:

- "ههه أظن أن أنس ورث ذكائي، بينما كالسون غبي مثلك".

ابتسمت وقلت ممازحًا:

- "إنهما سيعقلان مع مرور الوقت، لكن الذكي بالتأكيد أخذ ذكاءه مني، وليس منك".

نظرت إليّ بعيون متقدة وقالت بتحدٍّ:

- "ماذا تقول؟ أنا منبع الذكاء، أيها الأحمق".

كنت أنوي أن أجادلها، لكنني لم أستطع منع نفسي من الضحك. قلت لها بعد لحظة:

- "لقد تزوجنا، نعم، لكننا لا نزال أطفالًا مثل أول يوم التقينا فيه".

ردت بابتسامة واسعة:

- "ههه، سنبقى هكذا دائمًا".

قبل أن يحل العام الثامن والعشرون، وجدنا الأوروبوروس. كانت لا تزال تتبع أثر رماد الفينيق، مصممة على تحقيق هدفها: أن تقتل نفسها ويمتزج دمها برماده، ليُخلق الأصغر، ذلك الكائن الغريب المقدر له أن يحمل إرثها. لم نستطع إيقافها؛ سبقتنا بخطوة، عثرت على الرماد، وأكملت طقوسها. امتزج الدم بالرماد، ووُلد الأصغر، مخلوق ذو ثمانية ذيول. وما إن خرج من ذيله الثامن حتى ظهرت الأوروبوروس مجدداً، لكننا هذه المرة كنا مستعدين. لم نمنحها فرصة للفرار، قتلناها فور ولادتها الجديدة.

كانت تلك الولادة مدهشة في غرابتها: دودة صغيرة بلون أصفر مزخرف بدوائر سوداء، تشبه النقوش التي تراها في الكوابيس. ومع ذلك، لم تكن نهاية القصة. من بين الرماد والموت، نشأ طائر صغير. كان يحمل شيئًا ذكرتني بأنس، هدوءه، صمته الذي يكاد يصرخ بمعانٍ أعمق. لم يكن يزقزق، بالكاد كان يأكل أو يشرب مما نقدمه له. بقي معنا أنا وريما لستة أشهر، ثم اختفى فجأة، كما لو أن وجوده بيننا كان مؤقتًا، رسالة يجب أن نقرأها ونكمل طريقنا.

بعد رحلة استمرت سبعة وثلاثين عامًا من التضحيات والمخططات، أكملنا هدفنا. لكن الزمن كان سخياً معنا بطريقة غريبة؛ لم يمسنا الكبر. رغم أنني تجاوزت الخمسين، ورغم كل ما مررنا به، ظل شكلنا ثابتًا، وكأننا محكومون بشباب أبدي. ريما كانت أكثر جمالًا من أي

وقت مضى، جمالها يزداد عمقًا مع الأيام، جمال لا يمكن وصفه بالكلمات.

ومع نمو أنس وكالسون، كان الفرح يتسلل إلى حياتنا رغم الثقل الذي نحمله. ريما كانت تسألني بحماسة طفولية كلما اجتمعنا عن تفاصيل تخصهما. مرة، ترى شاربهما الذي بدأ ينمو فتبدأ حديثًا طويلاً عن شارب أنس أو كالسون، فتضحك كأن العالم لم يحملها مسؤولياته يوماً.

وحين وصل العام المنتظر، بلغ أنس الثامنة والعشرين، وكالسون الثالثة والعشرين. كان الوقت قد حان لتنفيذ الجزء الأخير من الخطة. وظفت أشخاصاً لوضع هيناتا، أخت تامايو، في طريق أنس. كان هدفنا أن تصدمه بسيارة، ليس لقتله؛ أردنا أن يفقد ذاكرته فقط. أما ريما، فقد أخذت على عاتقها التعامل مع كالسون. تحولت إلى ذئب في أماداستينا، وأوقعت به في الجرف.

كانت المرحلة الأخيرة أصعب ما قمنا به تبديل أرواحهما. بقدرة غامضة منحها لنا الفينيق، قمنا بهذا التبديل. حينما غيرتُ أرواحهما لم أعد أستطيع إبصار ما يحدث في أماداستينا... وبعد مدة إتجهت أنا وهيناتا بغية إلتقائنا بكالسون لأول مرة... لكنه كان يأخذ هيئة أنس، كُنت أبكي دون أن أدرف دموعاً، أرَى شبلي لأول مرة في حياتي، وأنا الذي منعته عن حياة هنيئة...

والآن، وبعد كل تلك السنوات، أجلس على كرسيي في هذا المنزل الخشبي الدافئ، حيث كل شيء ينبض بدفء غريب رغم البرد الذي يتسلل من الخارج. الجدران المصنوعة من ألواح خشبية داكنة اللون تحمل آثار الزمن، تشققات دقيقة هنا وهناك كأنها خريطة لذكريات منسية. السقف منخفض قليلاً، تُعلق منه مصابيح زيتية تمنح المكان

توهجًا خافتًا، يضفي جوًا هادئًا لكنه مشحون بشيء لا يمكن تفسيره.

كان إبني أمامي جالسًا هو الآخر، لا يفصلنا إلا ذراع و قربه هيناتا وتامايو بجانبي. الأرضية الخشبية تئن بصوت خفيف مع كل خطوة، في انسجام مع طقطقة النار في الموقد القريب. قصصت عليهم حكايتي، أفصحت عن كل أسرار حملتها. رأيت في أعينهم مزيجًا من الدهشة والغضب والشفقة.

في الخارج، كان الشتاء ينشر برودته، والمطر يهطل بهدوء على الأرض المتجمدة، بينما تغرب الشمس خلف الغيوم الداكنة. النافذة الوحيدة، ذات الزجاج المغبش من البرد، تطل على عالم غارق في شتاء بارد. قطرات المطر تنساب ببطء على الزجاج، بينما ظلال الأشجار بالخارج تتحرك بخفة تحت تأثير الرياح. الجو كان مشحونًا برهبة اللحظة، كما لو أن الكون نفسه يحبس أنفاسه معنا.

وفجأة، دق الباب. نهضٍ كالسون وفتح الباب، ليجد أمامه ريما. كانت تقف هناك، ترتدي حجابًا يغطي جزءًا من شعرها، تحمل سلة خشبية مملوءة بالخضروات والفواكه. عيناها اللامعتان، ورائحة المطر التي التصقت بها، جعلتها تبدو وكأنها قادمة من عالم آخر. لم تكن تعرف أن اليوم هو يوم اللقاء المنتظر، اليوم الذي ستنكشف فيه كل الأوراق، وتُقال فيه كل الحقائق.

الفصل الأخير

1

كالسون فالدريك

دق الباب مع هطول المطر الغزير، صوت الطرق كان كأنه ينسجم مع سيمفونية الطبيعة الغاضبة. النافذة تغطيها طبقة من الوحل، الذي تراكم مع الرياح الشديدة الذي يرمي بكريات من الطين في زجاجها. كانت الغرفة مظلمة مع القليل من وهج الموقد، مليئة برائحة المطر التي تتسلل من كل زاوية. أخذت نفسي بعد أن كادت ندى تقوم لتفتح الباب، فجلستْ بهدوء وهي تراقبني بحذر. تقدمتُ نحو الباب بخطوات مترددة، أفتحه ببطء، ومع كل حركة أقوم بها أدعو أن يكون ما أفكر به هو الصحيح.

ما إن فتحت الباب حتى رأيت فتاة حسناء تقف أمامي، مشهدها جعل كل شيء حولي يتلاشى، كأن المطر توقف للحظة والوقت تجمد في مكانه. عندما رأيتها، شعرت أن جمال ندى، الذي لطالما أحببته، تلاشى في مقارنة خاطفة. جمال هذه المرأة يتجاوز الخيال، جمال لا يوصف بالكلمات، جمال يدفعك للبكاء بلا إرادة. فتاة في ثلاثينياتها، ترتدي وشاحاً يغطي نصف رأسها، تاركاً نصف شعرها البرتقالي يتدفق كالنار المشتعلة. عيناها برتقاليتان لامعتان، بريقهما أشبه بشعاع شمس يخترق الضباب، فريد من نوعه، لا يمكن مقاومته.

تسمرت مكاني وأنا أتفحص ملامح وجهها التي بدت مألوفة بشكل غريب، رأيت في ملامحها انعكاساً من نفسي، هيأتي القديمة. نفس

الأنف الصغير، نفس بنية الوجه التي كنت أراها في المراة كلما إستيقظت آنذاك. كانت ترتدي معطفاً زيتياً، يخفي خصلات شعرها التي تنساب على ظهرها كجدول ماء. كنت مشدوهاً، إذ بالكلمات تخرج مني بلا وعي:

- "إن كنتِ أمي، فيا لسعادتي. إن جمالك وحده يكفي لقطع أصابعي. نعم، أحببت منظر ندى الأنثوي، لكنك أسمى من ذلك"...

ما إن نطقت بهذه الكلمات حتى رأيتها تنفجر بالبكاء. دموعها لم تكن مجرد دموع، كانت سيلاً جارفاً. سقطت على الأرض بوضعية القرفصاء، تحاول مسح دموعها بيديها المرتعشتين، لكنها لم تستطع، كأنها تحاول منع نهر من الجريان بيدين فارغتين. كان المشهد مؤثراً للغاية، حتى أنني شعرت بثقل دموعها على قلبي.

بينما كنت أراقبها بذهول، تحرك عصام من مكانه. خطواته كانت بطيئة ولكنها مليئة بالفرح. كان وجهه مشرقاً بطريقة غريبة، فرحته وحدها تستطيع هدم أي شكوك داخلي. شعرت بالغضب في البداية، ظننت أنه فرح لأنها تبكي، لكن سرعان ما اتضح لي أن الأمر أكبر من ذلك. تقدم عصام حتى وصل إليها، انحنى ليعانقها، وعندما فعل، شعرت أن هناك شيئاً يتغير في الغرفة. فجأة، أمسك بيدي، وجرني معه ليضعني بجانبها، حتى وجدت نفسي محاطاً بذراعيه. كان يحتضنني أنا وهي معاً. في تلك اللحظة، كل شيء أصبح واضحاً. لقد فهمت القصة بأكملها. أنس هو أخي، وعصام هو أبي، أما ريما، فهي أمي. لقد فهمت ما قاله عصام في حكايته لكنها كانت حقيقة يصعب استيعابها. فما لم أفهمه في البداية، هو لماذا كنا جميعاً مشتتين؟ لماذا كل شخص منا في مكان بعيد؟ ألم يكن هناك حل آخر؟

حاولت تهدئة نفسي، فنشأ في أعماقي صراع داخلي بين الغضب والرغبة في التسامح. لم يكن بيدهم حيلة، أدركت أنهم مثلنا، عالقون في دوامة العجز. قررت في تلك اللحظة أن أكون شخصاً جديداً. لقد وعدت نفسي بأن أسامح، بأن أكون باراً بوالديّ، وأن أبدأ فصلاً جديداً معهم. ابتعد أبي وأمي قليلاً بعد عناق طويل، وكان كل منهما يحاول التقاط أنفاسه، صوت الشهيق والزفير يملأ المكان. الدموع لا تزال تنساب كطوفان. نظرا إليّ بعيون مليئة بالندم، وقالا في نفس الوقت، وكأن قلوبهما متحدة:

- "نحن آسفان... كنا نهتم بالخطة... كنا نهتم بالخطة ونسينا أبناءنا".

2

كانا يبكيان، يدرفان دموعًا كأنهما يفرغان سنوات من الندم المكبوت. وقفت أمامهما مشوشًا، تائهًا بين مشاعري المتضاربة. ماذا يجب أن أفعل؟ هل أضمهما؟ أم أبتعد عنهما وأتركهما يواجهان دموعهما وحدهما؟ رأسي كان مزدحمًا بأسئلة بلا إجابات، وسلبية أفكاري كانت تخنقني مجددًا. لكن فجأة، كأن روحي تحررت من قيودها، وجدت نفسي أندفع نحوهما. حضنتهما بقوة دون أن أشعر، وكأنني أبحث عن معنى جديد لكل ما فقدته طوال تلك السنوات.

في تلك اللحظة، فهمت شيئًا بسيطًا لكنه عظيم: هذا هو مفهوم العائلة. الدفء، القرب، والانتماء الذي حُرمت منه لسنوات، كان أمامي الآن يتجلى بكل وضوح. فمسحت أمي دموعها بسرعة، ونهضت من جلوسها بحماس، واقفة عند العتبة التي تفصل المنزل عن العالم الخارجي. تحركت خطوة إلى الداخل، إلى قلب المنزل، ثم قالت بصوت مليء بالنشاط، نشاط لم أفهم من أين ينبع، لكنني عرفت لاحقًا أنه كان جزءًا منها، من طبيعتها الحقيقية فهو ما ورثته منها في الأخير:

- " إذن الآن... بعد كل هذه الجلبة هنا، لنقم باحتفالٍ نجتمع فيه كلنا ونأكل طعام تامايو اللذيذ وحلوياتي الرائعة"!

تحركت بخفة نحو ندى التي كانت تجلس في الكرسي. خطواتها كانت واثقة وسريعة، كأنها تنتمي لهذا المكان منذ الأزل، حتى توقفت على بعد قدم منها وقالت بابتسامة ماكرة:

- "إذن أنت من أسر قلب كالسون... لنحتفل بحفل زواجكما"!

نظرت إليّ، ثم عادت بنظرتها إلى ندى، وكأنها تحاول فك شيفرة ما بيننا. وقبل أن أنبس بكلمة، قالت بنبرة ساخرة لكن مليئة بالدفء:

- "هوي... أنتما لستما مسلمين، أليس كذلك؟"

شعرت بالدهشة، لم أفهم سؤالها على الفور، فقلت بإستغراب:

- "مسلمين؟ لم أفهم قصدك".

ندى ردت بهدوء:

- "لا، لستُ مسلمة".

أمي نظرت إليّ بنظرة غريبة، فيها شيء من الحزن والجدية في آن واحد. وضعت سبابتها على جبيني برفق، وكأنها تريد أن تخترق أفكاري، ثم قالت:

- "كالسون... أنت تكره اسمك، صحيح؟"

أومأت دون تفكير:

- "نعم، جل الكره".

ضحكت ضحكة خفيفة، وقالت وهي ترفع رأسها قليلاً كأنها تسترجع ذكرى بعيدة:

- "اختار لك عصام اسم كالسون لتندمج مع سكان أماداستينا، أما الآن فسنسميك اسمًا عربيًا آخر".

قبل أن أجيب، سمعت صوت الباب يُغلق بهدوء. كان عصام قد أنهى مراقبته للباب وعاد لينضم إلينا. تقدم بخطواته الثابتة، ثم قال بصوته الذي يحمل مزيجًا من الحزم واللطف:

- "معكِ حق، لنفكر اليوم ونسميك غدًا. أما عن الإسلام، فيجب أن تُسلم. لأن هذا الكون صنعه اللّه، واللّه هو من خلقنا وخلق كل المخلوقات. وأنا أتبرأ منك إذا لم تُسلم. اختر الآن: إما أن تؤمن باللّه وتدخل الجنة، أو تكفر ويكون سبيلك إلى جهنم".

تسارعت نبضات قلبي، وكأنني عالق بين الحقيقة والخوف. جلسنا جميعًا قرب الموقد، بينما عصام وأمي تحدثا بإسهاب عن الإسلام، عن الإيمان الذي يحرك حياتهما، عن القرآن، وعن النبي محمد، وعن الآخرة، الجنة والنار. كانت كلماتهم حاسمة، لكنها لم تحمل قسوة. بل شعرت بنوع من الإصرار الممزوج بالحب.

مع مرور الوقت، ومع كل كلمة أسمعها، بدأ شيء داخلي يتغير. شعرت وكأنني أكتشف خريطة كنت أبحث عنها منذ زمن طويل. بعد أن فهمت أركان هذا الإيمان، وأدركت وجود اللّه الذي خلق الكون وكل ما فيه، شعرت بشيء من الراحة يملأ صدري.

وقفت بهدوء، نظرت إليهما، ثم قلت بصوت ثابت:

- "أشهد أن لا إله إلا اللّه، وأشهد أن محمدًا رسول اللّه".

لحظتها، كانت الغرفة كلها تبدو وكأنها تحمل أنفاسًا جديدة. المطر في الخارج كان لا يزال يهطل بغزارة، لكن صوته تحول إلى لحن هادئ، وكأن الطبيعة نفسها تحتفل معي بهذا التحول العظيم.

كنت أنوي النظر إلى ندى لأرى كيف استقبلت كلماتي، لكن يداً لطيفة غطّت يدي فجأة. ملمسها كان ناعماً لكنه حمل قوة خفية جعلتني أشعر بثقل غريب. التفتّ بسرعة لأجدها يد أمي. دهشت من فعلها وسألتها باستغراب:

- "لماذا غطيت عيني؟ هل هناك مشكلة؟"

لم تجبني على الفور، بل تمشّت بخطوات هادئة باتجاه أريكة قديمة قرب الباب. كانت أريكة بلون بني داكن، تتخللها خيوط دقيقة تروي قصصاً عن الزمن الذي مرّ عليها. جلست أمي هناك فوضعت رجلاً على رجل، وتركت عينيها تراقب المطر الذي ما زال يهطل بغزارة، قبل أن تلتفت إلي وتقول بصوت مزيج بين الحنان والجدية:

- "كالسون... بُني... إذا نظرت إلى فتاة لست متزوجاً بها، فإن ذلك يعتبر محرّماً. لكن إن كنت تحب هيناتا، يمكننا أن نطلبها للزواج لتصبح حلالاً لك".

أصابني كلامها بموجة من الدفء والاضطراب. أجل، أنا أحب ندى، وكنت مستعداً للقبول على الفور. لكن شيئاً في داخلي أثار تساؤلاً جديداً. قلت مستفسراً:

- "لكن ندى ليست مسلمة، كيف يمكنني الزواج بها وأنا مسلم وهي لا؟"

ابتسمت أمي بخفة وضحكت ضحكة صغيرة قبل أن تقول بصوت منخفض:

- "ههه... نحن نتحدث عن هيناتا وهي أمامنا الآن"!

لم أفهم علي الفور، لكن قبل أن أستوعب المعنى، فأردفت قائلة وصوتها علي قليلا :

- "يمكنك الزواج بها حتى لو لم تكن مسلمة، وأصلاً... سنرغمها على الإسلام الآن".

شعرت بأن الأمور تتسارع، وبأن أمي كانت تخطط لكل شيء دون أن تترك لي مجالاً للتفكير. رفعت نظري إلى السقف الخشبي الداكن

الذي تزينه مصابيح صغيرة شاحبة، ثم قلت بصوت متردد، لكنه محمل بشيء من الأمل:

- "إذن يا ندى، أنا أطلب يدك للزواج".

لم أكن قد انتهيت من عبارتي حتى قاطعني صوت أبي، الذي كان يجلس على كرسي بجانب المدفأة:

- "ليس هكذا، أيها الأحمق. تامايو... هل تقبلين بزواج أختك من ابني؟"

تامايو، التي كانت تجلس على سجادة قريبة من الموقد، رفعت رأسها بهدوء. تلك الفتاة الهادئة التي تشبه أنس في كثير من خصاله، كانت تنظر إلى الجميع بنظرة تفحصية، وكأنها تحاول وزن الأمور بدقة. رغم هدوئها، شعرت بأنها تحمل الكثير من الأفكار. بعد لحظة صمت، قالت:

- "سأقبل، لكن يجب على هيناتا أن تُسلم أولاً".

قبل أن أتمكن من الرد، لاحظت أمي تدخل المطبخ، فتدخلت ندى بلهجتها الحادة:

- "إن كنتِ مسلمة يا تامايو، فلماذا لا ترتدين حجاباً؟"

تامايو، التي بدا عليها الاندهاش من السؤال، أجابت بسرعة:

- "نعم، أنت أختي، لكن أنس وكالسون إخوتي أيضاً. لقد رباني عمي عصام، وقالها بنفسه في حكايته".

ثم أكملت كلامها وهي تحرك يدها وكأنها وصلت إلى استنتاج يقيني:

- "أنتما مناسبان لبعضكما. أنتما غبيان، ولذلك ستنسجمان مع بعضكما".

ندى نظرت إلي بعينين لامعتين، ثم التفتت نحو أمي وأبي وقالت بصوت عالٍ وحاسم:

- "إذن سأصبح مسلمة وأتزوج بكالسون... أشهد أن لا إله إلا اللّه وأشهد أن محمداً رسول اللّه".

ارتسمت الدهشة على وجوه الجميع للحظة، إلا أنني كنت الأكثر خجلا ودهشة، فبدأت أشعر بحر وجهي. إذ بأبي يقول بصوت لطيف ومليء بالرضا:

- "يجب أن نقوم بعقد الزواج الشرعي. رغم أن إسلامك كان دافعه الحب، إلا أنني واثق أنه مع مرور الوقت ستفهمين حقيقة الإيمان، وستعيشين مع زوجك حياة رغيدة لا ينقصها شيء".

بينما كان الحديث يجري، سمعت صوت خطوات أمي القادمة من المطبخ. كانت تحمل صينيتين بلون رمادي لامع. دخلت الغرفة وضربت الصواني ببعضها لتصدر صوتاً حاداً وصاخباً، ثم تبعتها بزغاريد مميزة ملأت المكان، وكأنها تُعلن بداية احتفال. قالت بعد أن هدأت قليلاً:

- "إذن عندما نلتقي بأنس، سنقيم حفل زفافكما... هيناتا، ما رأيك بحجابٍ رائع سيليق بك؟"

3

قمنا بالحفلة في تلك الليلة المبهجة، حيث امتلأ المكان برائحة الكعك المغربي الذي أعدّته أمي بمهارة، وعبق الأتاي الدافئ الذي لم يغب عن الطاولة. الشباكية المقرمشة، بلمعان العسل الذي غمرها، كانت رمزاً للفرح الذي اجتمعنا عليه جميعاً. المنزل الخشبي الصغير بدا وكأنه ينبض بالحياة، زغاريد أمي تملأ الأجواء، وضحكاتنا ترتفع بين فينة وأخرى، متناغمة مع صوت المدفأة التي تصدح بطقطقات الحطب المشتعل.

استيقظت من نومي الثقيل وأنا أسمع صوت العصافير بالخارج، ذلك الصوت الذي امتزج مع حفيف الأشجار خلف النافذة الصغيرة، التي كان زجاجها لا يزال يحمل آثار المطر الخفيف من الليلة الماضية. أشعة الشمس كانت تدخل بخجل عبر الستائر نصف المفتوحة، تغمر الغرفة بنور ذهبي دافئ.

كانت الساعة قد تجاوزت الزوال، ولم أكن وحدي في هذه الفوضى الصباحية. ندى، زوجتي الآن، كانت غارقة في نوم عميق بجانبي. لم أستطع إلا أن أبتسم حين رأيتها بتلك الحالة العفوية التي كانت جديدة عليّ. شعرها الطويل كان مبعثرًا في كل اتجاه، خصلاته تغطي جزءًا من وجهها، بينما يسيل لعابها بخفة من فمها المفتوح. ملابسها الفضفاضة بدت وكأنها تعكس المعركة التي خاضتها مع النوم، والسرير... يا للسرير، كان مسرحًا للفوضى؛ الوسائد متناثرة هنا وهناك، والبطانية ملقاة في أحد الزوايا كأنها استسلمت للمعركة. لم أتمالك نفسي من الضحك بخفة. اقتربت منها حتى لامس فمي أذنها، ثم، بصوت مرتفع، قلت:

- "ندى الحمقاء، استيقظي، لقد فاتتنا صلاة الفجر"!

شهقت بقوة، وكأن صرختي كانت صفعة على أحلامها. رفعت رأسها بسرعة كبيرة، واصطدم برأسي، مما جعلنا نطلق صرختين متزامنتين. أمسكت برأسي وضحكت على المشهد، بينما هي نظرت لي بعينين نصف مفتوحتين، تعكسان استيقاظًا مشوشًا.

جريت نحو أبي، الذي كان يجلس بهدوء في غرفة المعيشة، لأستفسر:

أبي، نسيت صلاة الفجر، ماذا أفعل؟"

فأجاب بصوت هادئ ولطيف، إنه تجسيد اللطف في نهاية المطاف:

- "صلها الآن، ولكن لا تكرر فعلتك. لقد حاولت إيقاظك، لكنك كنت غارقًا في نومك كالغائب عن العالم".

هززت رأسي بأسف:

- "سأفعل ذلك فوراً".

بعد أن صليت وجلست معه للحظات في حوار طويل عن أنس، عدت إلى ندى، ووجدتها تقف أمام المرآة في زاوية الغرفة، ترتدي حجاباً بنفسجياً فضفاضاً يغطي شعرها ويمنحها هالة من الجمال البسيط. اقتربت منها وطبعت قبلة على جبينها، لترتسم على وجهها علامات خجل شديد وهي تقول:

- "ليس الآن، أيها الأحمق"!...

كنا نجلس قرب المدفأة، أنا وندى وأبي. المدفأة أضاءت الغرفة بنورها البرتقالي، وظلالها تراقصت على الجدران الخشبية، بينما أمي كانت في المطبخ، في تلك الغرفة الصغيرة التي تفوح منها روائح الطبخ اللذيذة. تامايو، أخت ندى، كانت جالسة على الأرض في

الزاوية، منشغلة بجهاز صغير لم أفهم ماهيته. لم أستطع مقاومة فضولي، فسألتها:

- "ما ذلك الشيء الذي تستعملينه... ذلك المستطيل؟"

قبل أن تجيب، شعرت بصفعة خفيفة على مؤخرة رأسي، كانت من ندى التي نهضت لتجلب الماء، وقالت:

- "إنه هاتف، نستطيع فعل جميع الأمور من خلاله".

لكن الإجابة لم تُقنعني، فرفعت حاجبي باستغراب، ليُكمل أبي الحديث بصوته الهادئ:

- "الهاتف هو أداة للتواصل. يمكنك الاتصال بأي شخص، مهما كانت المسافات بينكما، معرفة الوقت أيضا..."

عادت ندى وجلست بجانبي لتضيف:

- "ليس ذلك فقط، يمكننا بيع وشراء الأشياء، مشاهدة مقاطع فيديو، بل وحتى اللعب عبره.

نظرت إلى الجهاز بدهشة، وأعدت السؤال بصوت منخفض وكأنني أخشى أن يستهزئ أحد بجهلي:

- "أحقاً يفعل كل هذا؟"

لكن تفكيري سرعان ما انتقل إلى أمر آخر، أكثر أهمية، فالتفت إلى أبي وسألته:

- "أبي، لماذا لم تعد تتحدث عن الأوروبوروس؟ هل هناك سبب لذلك؟"

نظر أبي إلى ألسنة اللهب الراقصة في المدفأة، وأجاب بعد لحظة صمت عميقة، لكنه كان فرحاً:

- "لقد قتلتها، كما أوصاني الأوسط. كانت تلك مهمتي. والآن، أريد أن أجد أنس، وأعيد لم شمل عائلتنا. نعيش بسلام، نبني حياتنا، وتبنون أنتم أسركم. لكن..."

توقف لبرهة، ثم تابع بصوت مفعم بالجدية:

- " إذا هددت تلك الأفعى سلامنا، فسأكون مستعدًا للقضاء عليها مجددًا".

فقلت، بينما صوت احتراق الحطب يتراقص في أذني:

- "إذن كل ذلك الغرور الذي أظهرته من قبل لم يكن شخصيتك الحقيقية؟"

ابتسم وهو يحك رأسه بأصابع تنغرس في خصلات شعره الطويلة، ثم قال بنبرة تجمع بين التأمل في المدفأة والتبرير:

- "نعم... نسبياً. الغرور الذي رأيته يطغى عندما يختارك الفينيق. يعطيك قوته وحكمته، لكنه يتركك في مواجهة رماده. تشعر وكأنك يجب أن تكون الأسمى بين البشر. أن تكره كل من يذل نفسه أو يخضع لمن أهانه. في البداية، تركت ذلك الغرور يسيطر علي عن قصد. أردت أن أختبر قوتك الحقيقية، أن أعرف هل لديك شخصية تواجه أم أنك ستنصاع بسهولة. أما أنا، فأستطيع التحكم في هذه القوة، وكذلك... والدتك".

قاطعته ندى، التي كانت تتابع بتركيز حذر، وقالت بحدة تخفي وراءها شعوراً عميقاً بالتحدي:

- "إذن، ماذا كان سبب كبريائك علي؟ هل كنت تريد معرفة قوة شخصيتي أيضاً؟"

ضحك بخفة، ثم حرك يده بسرعة ليضرب رأسها بإصبعه الأوسط ضرباً خفيفاً قبل أن يعود لمكانه، وقال بسخرية:

- "لا، لا. أنت أول من تكبرت عليه، ربما لأن التحكم في ذلك الشعور كان صعباً وقتها. كنت لا أزال أتعلم كيف أضبط نفسي. ولهذا، لم أستطع منع نفسي من إهانتك، خصوصاً عندما رأيتك تستسلمين لتامايو وتجعلين نفسك أشبه بعبد لها".

شعرت ندى بمزيج من الغضب والارتباك، وخفضت صوتها وهي تقول:

- "إذن... أنت أيضاً من تحكم في أحلامي؟"

أجابها ببرود وهو يشيح بنظره عنها:

- "ربما".

تدخلت أنا في الحديث، محاولاً توجيه الحوار لمسار أكثر عملية، فقلت:

- "حسناً، متى سنذهب إلى أنس؟"

قبل أن يجيب، نادته أمي من الغرفة المجاورة، تطلب منه المساعدة في حمل شيء ما. استدار باتجاهها، وقال قبل أن يبتعد:

- "غداً. لن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً مع قدرات الفينيق".

تذكرت حينها أن أنس كان يطغى عليه كبرياؤه أيضًا .لوهلة، فكرت في سؤال أبي عن ذلك، لكني تراجعت. بدا منهكًا من رحلته الطويلة، وشيء ما في داخلي أخبرني أن هذا الخبر قد يكون ثقيلًا

عليه. جلست في مكاني، أستمع لصوت احتراق الحطب الذي كان يُحدث إيقاعًا غريبًا، وكأن المكان نفسه يتنفس.

دخلت أمي تحمل طبقًا مغطيًا، تفوح منه رائحة غريبة لكن ممتعة. كان يُدعى الطاجين، وهو أكلة مغربية فهمتها من قدرات فوريو. وضعت الطبق في منتصف الطاولة، وكشفت الغطاء، لتتسرب روائح التوابل التي لم أكن أعرفها من قبل.

اجتمعنا حول الطاولة. جلستُ بين أبي وندى. كان أبي يرتدي ثوبًا طويلاً يُدعى "جلبابًا". كان لونه قريبًا من لون البشرة البيضاء، لكنني لست متأكدًا من الفارق، فقط بدا فاتحًا جدًا. كان يرتدي معه شيئًا على رأسه يسمونه "قبّ"، كان يرقص به كالأحمق ليُضحكنا، فنزعه قبل أن يجلس في الطاولة. ندى بدورها كانت ترتدي لباسًا يُدعى "قبية". كان سماوي اللون مع زخارف بيضاء دقيقة، وغطاء رأسها أبيض أيضًا. بدت جميلة جدًا، لم أكن أدقق كثيرًا في تفاصيل جسدها، إلا أنني لاحظت للحظة أن تكوينها متناسق، ثديان بحجم متوسط، وجه هادئ بابتسامة خفيفة تكاد تكون دائمة. أما أمي، فكانت ترتدي قبية زهرية اللون، تجلس أمامي. بدت منشغلة بتقديم الطعام وإضافة المزيد من قطع الخبز على الطاولة. بجانبها، كانت تامايو، التي تختلف عنا جميعًا في مظهرها. كانت ترتدي لباسًا سميكًا ذا لون بني غامق، يشبه ما كنا نرتديه في أماداستينا، كان القميص مزودًا بأزرار معدنية تمتد في خط مستقيم، كأنه درع صغير. أكلنا وسط أجواء مرحة. أصوات الضحك كانت تتداخل مع صوت الملاعق وهي تضرب أطراف الطاجين. في لحظة معينة، لاحظت شيئًا لم أكن أتوقعه: تامايو ابتسمت. لم أرها تبتسم من قبل، ظننتها دائمًا هادئة أو غارقة في أفكارها...

استفاقت الغرفة على نور الصباح الباكر، وكان الجو هادئًا، لكن دفء السرير والشعور بالراحة جعلا من فكرة الاستيقاظ أشبه بحلم بعيد.

كانت ندى نائمة بجانبي في تلك اللحظة، كعادتها، شعرها المتناثر يغطي الوسادة بشكل عشوائي، ووجهها يحمل ملامح من السلام التام. التزمت بالصمت قليلاً، وأنا أراقبها من تحت غطاء اللحاف، ثم قررت أن الوقت قد حان لكي أوقظها.

اقتربت منها بحذر، حتى لامس فمي أذنها، ثم أطلقت صرخة مفاجئة:

- "استيقظي، يجب أن تُصلين"!

ارتجف السرير قليلاً من صوتي، فاستفاقت ندى بتثاؤب خفيف، ثم قالت بصوت مختنق:

- "ماذا...؟ كالسون، ماذا تفعل في سريري؟ "

حدقت بها بنظرة مذهولة، وكأن الكلمات التي نطقتها لا يمكن أن تكون قد خرجت من فمها. ثم رفعت يدي في حركة سريعة، وأشرت بأصبعي الأوسط نحو رأسها، لأقول بدهشة:

- "أيتها الحمقاء... إنني زوجك من الأمس فصاعدًا، ألا تفهمين؟"

إذ بها تتحرك ببطء، وكأنها تتلمس طريقها في عالم جديد. كل خطوة كانت تأخذها في السرير، حيث كان جسدها يتحرك بشكل غريب، ذراعها الأولى، ثم الأخرى، ثم ركبتها، وكأنها تتمشى راكعة. ومع كل حركة مفاجئة، فقدت توازني لأقع على السرير، وإذا بها فوقي، ذراعاها ممدودتان على جانبي، كل ذراع قرب من جهة، وكان رأسها يقترب من رأسي بطريقة غير متوقعة.

ثم، في لحظة من التفاعل السريع، قبلتني في فمي دون أن أستوعب ما يحدث. كأنما الزمن توقف فجأة. الناس في مثل هذا الوقت يجب أن يُصلوا، وأنا هنا، في سريري، في تلك اللحظة الغريبة، تتصرف كما

لو كان هذا هو التصرف الطبيعي. شعرت بدمائي تتدفق إلى وجهي، وأخذت خطوة إلى الوراء وأنا أضع ذراعي في فمي، ثم قلت بخجل:

- "ماذا تفعلين؟ هوي... ندى"!

لكنها لم تلتفت إلي، بل أعطتني مؤخرة رأسها وهي تبتسم ابتسامة مليئة بالثقة:

- "أنت من بدأ ذلك في الأمس، من حقي أن أفعلها أيضًا".

كان حديثها واضحًا، ولكنني لم أستطع هضم الفكرة بعد، فقلت رافعا صوتي قليلا:

- "إلتفتي إلي وواجهيني"!

لم تجبني فورًا، وكأنها تستمتع بذلك التوتر الذي أضافته على الموقف. لكنني لم أتمكن من التحمل أكثر، فالتفت إلى كتفها وأمسكت بها، ثم رأيتها تشتعل خجلًا. كانت وجهها قد تحول إلى اللون الأحمر كما لو أنها طماطم ناضجة. كان الموقف شديد الغرابة والحرج.

وأطلقت ضحكة مكتومة، ثم نهضت بسرعة لأذهب وأصلي. وعندما وصلت قرب الباب، توقفت على حين غرة، وسمعتها تقول بصوت خافت:

- "كانت لي رغبة، وأردت تطبيقها".

أطلقت ضحكة غير قادرة على التوقف:

- "ههه... هههههه... هكذا إذن".

إذ بها تضربني بالوسادة، ضربات متتالية، لكنني تجنبتها وأكملت طريقي إلى خارج الغرفة.. نرغب في الذهاب إلى أنس. أمي كانت

ترغب في المجيء أيضًا، ولكن هناك أمور يجب أن تكتملها في البلدة، لذلك قررنا الذهاب بدونها، فهي تستطيع الذهاب وحدها. لكني كنت أعلم أن هذا لم يكن السبب الحقيقي وراء تأجيلها. فحقيقة الأمر هي أنها لم تكن مستعدة بعد لمواجهة ابنها الذي تركته دون أن تقول له شيئًا.

رغم أنني أعرف أنس قليلاً، إلا أنني لم أكن متأكدًا من كيفية تصرفه حيال هذا الوضع. كانت المشاعر متشابكة والأمور غير واضحة. فحن وهذا المنزل يوجد في أماداستينا بعد أن استخدمنا "صخرة المجهول" لنقلنا إلى هنا في البداية، نحن في دائرة مكونة منّي، ندى، تامايو، وأبي. لكن ما فاجأني حقًا هو قرار تامايو المفاجئ بالذهاب معنا، وهذا جعلني أشك في نواياها. كان واضحًا أنها كانت تحمل مشاعر غير عادية تجاه أنس، ويبدو أنني لم أكن الوحيد الذي لاحظ ذلك.

وفي تلك اللحظة، ما أثار دهشتي هو أنني لاحظت تغيرًا غريبًا في شكل أبي. كان شعره أزرقًا داكنًا، عليه بقع برتقالية اللون، وعندها، تحول فجأة إلى شعر أحمر قانٍ، فإذ بي أشعر وكأنني سأقضي على نفسي من شدة الغثيان. لم أستطع التحكم في جسدي، ففقدت الوعي وسقطت أرضًا.إ إنه نفس الشعور حينما إنتقلنا إلى هنا بفعل الصخرة.

عندما استعدت وعيي، وجدت نفسي في مكان غريب تمامًا. الأشجار تحاوطني وكانت هناك فتاة أمامي. شعرها كان قرمزي اللون، وعينيها حمراوين كالدم، مما أستغرب من وجودها وحدها. حاولت أن ألتفت يميني ويساري، لكن لم أجد أيًا من ندى، تامايو، أو أبي. كان المكان خاليًا من أي ملامح مألوفة، فقلت بلهجة أماداستينية، وأنا أراقب درعها المضيء:

- " هل رأيت أحدا هنا، فتاتين ورجل "

فقالت بهدوء، هدوء عرفت أن وراءه ماضيا متعفنا :

- " إنهم هناك "

استفسرت عن المكان، وحين أشارت، رأيته هناك بعد خمس عشرة خطوة. نعم، إنه أنا، ولكن... لا. من أخذ جسدي هو أنس، نائم بالقرب من شخص لم أستطع أن أفهم كيف وُلد هكذا، أو كيف وصل إلى هذا الحال. كان يبدو عليه البلوغ، لكنه لا يزال في الخامسة أو السادسة عشرة من عمره. ما أدهشني كان عمره الحقيقي، لكن ما فاجأني أكثر كانت عينيه. تلك العينين المدهشتين، واحدة بلون بنفسجي، والأخرى زرقاء، كأنهما توأمان لا يشبهان بعضهما في شيء. كنتُ أمام أنس، صاحب الشعر الأبيض الذي يصل إلى كتفيه، وكأن كما لو أنه مرآة لي، نسخة طبق الأصل من نفسي آنذاك.

ما إن استيقظ، حتى رأيت في عينيه إحمرارًا غريبًا، وكأنما كان يبكي، أو ربما كان يواجه كابوسًا مرعبًا. أسئلة لا منطق لها راودتني، وبدأت أطرحها على نفسي في عجالة، مدهوشًا من كل ما يحدث حولي. ما الذي يجري هنا؟ ولماذا هذا الشعور الغريب يتسلل إلى عقلي؟ لكنني طردت هذه التساؤلات فقلت بابتسامة واسعة.

- "لقد أتيت يا صديقي".

4

أنـــــــس

أستيقظ من منامي وأرى أمامي كالسون يبتسم لي بابتسامة كبيرة، مزيج من الترحيب والانتصار، كما لو أنه كان ينتظرني لوقت طويل. قال بصوته النشيط:

- "لقد أتيت يا صديقي".

شعرت بثقل كلماته وهي تتسرب إلى أذني، نظرت إليه بتردد. إن كان هذا البشري هنا، فلا بد أن هناك سببًا أعمق مما يبدو على السطح. هذا العالم لا يترك أشياء للصدفة.

وجهت نظري إلى الشخص الذي كان بجانبه، وشيء ما بدا مألوفًا لي فيه. عرفت أنني أعرفه، لكنني قررت عزل تلك المعرفة عن عقلي. شعور غريب تسلل إلى داخلي، كما لو أنني أملك مفتاحًا لإغلاق أبواب الذاكرة عند الحاجة. إنه شيء لا يمتلكه غيري. قدرتي على مسح جزء من عقلي كانت كالسلاح الذي أستخدمه ضد نفسي، أو ربما لإنقاذ نفسي.

رفعت رأسي قليلًا، مستعينًا بجسدي الجديد الذي لا يزال غريبًا عليّ، فوقفت على أطراق رجلي، جسدي الذي بدا أقصر من جسدي القديم. هذا الطول الإضافي جعلني أشعر بأنني أراقب المشهد من فوق، هناك، على بُعد خطوات قليلة، رأيت فتاتين تقفان بجوار بعضهما البعض.

الأولى لفتت انتباهي فورًا؛ شعرها رمادي كلون الرماد المتناثر بعد الحريق، وعيناها لمعتا ببرودة غريبة، كأنهما قطعتا زجاج مطحون. في البداية، خططت لأن أفعل الشيء ذاته الذي فعلته مع الشخص الآخر: أن أمحو معرفتي بها. لكن ذكراها تسللت إلى ذهني كما لو كانت تخترق حواجز الذاكرة التي صنعتها.

في لحظة صاعقة ...تذكرت كل شيء، هي من صدمتني بالسيارة. تلك الفتاة، هذا الوجه البارد الذي أطلق سلسلة أحداث غير متوقعة في حياتي. ومع ذلك، لم تكن وحدها. الثانية كانت مختلفة تمامًا. رأيتها، وهي تقف هناك، خصلات شعرها الأسود الناعم تتراقص مع كل نسمة هواء، كأنها لوحة طبيعية تنبض بالحياة. عيناها السوداوان، كسماء خالية من النجوم، مليئة بالغموض والجاذبية. طولها المماثل تقريبًا لطولي أضفى عليها أناقة وتناغمًا يذكرني بتناسق الطبيعة، لكنه ألقى عليّ سؤالاً قاسيًا آنذاك: "هل أحبها؟"

لكني حدثتُ نفسي:

- "أحبها؟! أنا، بكل كبريائي وعزتي، كيف يمكن لفتاة واحدة أن تهز كيانًا بنيته بسنوات؟ أأنا ضعيف لهذا الحد؟ أيمكن أن تكون تامايو تلك العقبة التي تمنعني من تحقيق ما أريده؟ لا، مستحيل. لن تستطيع إيقافي، لن تمنعني من نيل حريتي، "

فقُلت بعد أن هدأت أفكاري لوهلة لكنها كانت سكون يسبق عاصفة تلوح في أعماق أفكاري:

- "أيها الكاتب، أنت، القدر، أتحسب أنك تعرف هدفي؟ لا، لا يمكنك حتى الاقتراب من فهم ما تعنيه الحرية لي. إنها ليست مجرد كلمة، إنها جوهر حكايتي، أساس وجودي وولادتي من جديد. لن تعرفها الآن، سأتركها لغزًا، مفاجأة تنتظر وقتها المناسب، لتكون فرحة أو مأساة، حسب ما تراه العيون."

{ يظن أنس أنه قد يستطيع مجابهة القدر نفسه، فكلما ذُكر "الكاتب" فيما تقوله الشخصيات المقصود به هو القدر، فهنا يتحدى أنس الكاتب بصفته القدر، ويشبه القدر بالكاتب للحياة... لكن أيمكن فعلا أن يهزم شيئا عظيماً كالقدر؟ أو أنه مُجرد بيدقٍ يحركه الكاتب بإرادته }

فجأةً، ذلك التحكم الذي أملكه في مسح الذكريات عديمة الفائدة اختفى. ذكريات دفنتها في عمق عقلي بدأت تتدفق كالسيل. ومع كل ذكرى، كانت صورة تتجلى لي.

أبي... عصام .رأيته بوضوح: شعر طويل داكن كشعري، يتخلله بُقع برتقالية كاللهب، عيناه تحملان لون البرتقال ذاته. لا أعرف كيف أصفهما، لكنهما بدتا وكأنهما صُنعتا بعناية فائقة. كان وجوده صدمة، كأنه شبح من ماضٍ لا أتذكره بالكامل.

ثم جاءت الصورة الأخرى التي أرهبتني... في شقتي، هناك على البلكونة، كان يقف فوريو .لونه الذهبي كان يشع كالشمس، يذل إضاءة شقتي بكل كبرياء. حجم فوريو كان أصغر مما أعرفه عنه، أشبه بصقر متأهب للانقضاض على فريسته. كُنتُ أقول لنفسي بإضطراب بعدما عرفتُ الحقيقة:

- "كيف؟ كيف لفوريو أن يظهر هنا، في المغرب؟"

{ لو عدتَ إلى البداية {5} ستجد جملة تقول "فتراه أمامك، لكنك تتجاهله" وآنذاك كان يروي أنس ما حصل له، فما قصد بـ"تتجاهله" بمعنى أنه قد نساه حينها لكنه تذكره الأن {مهم} }

في تلك اللحظة، شعرت أنني عالق بين أزمنة وأماكن متداخلة. لم أظن أبداً أن أبي مات أو شيئا من هذا القبيل، فكرة انتحاره كانت سخيفة، لكن لم أتوقع أن أراه هنا...

الصباح كان هادئًا، رغم كل الفوضى بداخلي. الشمس قد ارتفعت قليلاً، مضاءة بمسحة باردة من الشتاء. الأشجار حولي كانت تحيطني كدائرة حراسة، والطبيعة بدت كأنها تراقبني بصمت. كنا في وسط الغابة، المكان الذي هربنا إليه لقتل الفيل، والناس هنا كانوا ينظرون إليّ كأنهم ينتظرون مني شيئًا.

خطواتي قادتني نحو بركة ماء قريبة. لم ألقِ التحية على أحد، تجاهلتهم جميعًا. تحدثتُ لنفسي وأنا أغسل وجهي:

- "ما الفائدة؟ لا شيء يمكن أن يغير ما بداخلي. لم الشمل؟"

لم يكن هذا أمرًا يعنيني. لم أملك يومًا صديقًا، أو عائلة، أو حتى حبيبة. كنت دائمًا وحدي، أعيش فقط من أجل تحقيق مفهوم الحرية الخاص بي. لكن الحرية، كما تعرفها، أيها القدر، ليست كما أراها أنا.

عدتُ من أفكاري، ألقيتُ عليهم التحية ببرود، لكن عصام لم يحتمل طريقتي، فاندفع بغضبٍ قاطعًا تحيتي حتى كاد أن يرفع يده ليضربني. تدخل كالسون سريعًا وأمسك بيده قبل أن تصل إلي، وقال بحزم، محاولًا السيطرة على الوضع:

- "أبي! أجننتَ؟! هذه أول مرة تقابل ابنك بعد كل هذه السنين، وهذه هي ردة فعلك؟"!

لكن عصام لم يهدأ، بل استدار نحو كالسون وصاح بغضب لا يزال مشتعلاً في صوته:

- "عن أي ردة فعل تتحدث؟ إنه لم يلقِ علينا التحية كما يجب! وأنت تستمر بالدفاع عنه"!

تنهد كالسون، محاولًا تهدئة نفسه، لكنه لم يخفِ ضيقه من الموقف. نظر نحوي وسأل بنبرة مزيج من العتاب والاستغراب:

- "أنس، لماذا أنت بهذه البرودة؟"

ترددتُ للحظة، محاولًا ألا أسمح لعنادي أن يتغلب عليّ، ثم أجبتُ بصوتٍ هادئ، لكنه لم يخلُ من الجفاء:

- "وهل طلبتُ منكم المجيء؟ أرسلتُ لكم دعوة؟ رسالة في واتساب تقول إنني أحتاجكم؟"

شعرتُ بالجو من حولي يتوتر أكثر، وأردت أن أتوقف هنا، لكن موجة من الغرور اجتاحتني فجأة. لم أستطع كبح نفسي، فرفعتُ بصري نحوهم ونظرتُ إليهم نظرة تحدٍّ جعلت ملامحهم ترتبك بين الخوف والدهشة. حرارة غريبة اشتعلت في عينيّ، وخرجت الكلمات من فمي وكأنها طعنات:

- "أيها الوضيعون... مقززون... أنتم قذارة عفنة، مجرد عبيدٍ للحياة، لا تعرفون للحرية طعمًا. لماذا تستمرون في ملاحقتي؟! أتظنون أنكم ستُنهون حياتكم وبجانبكم أشخاص يساندونكم؟"

سكتُّ للحظة، ثم رفعت إصبعي السبابة ببطء، مشيرًا نحوهم، وكررت كلمة "لا" بصوت منخفض يرتفع تدريجيا، لأقلول:

- "لا... لن يحدث ذلك. أنتم بيادق بلا أهداف، مجرد عالقين في دوامة تدعونها حياة. وأنت يا عصام، تدّعي أنك تريد لَمّ شمل العائلة؟ لماذا تأخرتَ كل هذه السنين إذن؟ أهدافكم ليست إلا أكاذيب، وهمٌ تتشبثون به لأنكم تخافون مواجهة الحقيقة: أنكم لا شيء".

كان عصام يعصر قبضته بقوة كلما تعمقتُ في الكلام، وكأنه يحاول أن يقمع غضبه الذي كان يتصاعد مع كل كلمة أنطقها. لكن فجأة، ومن دون إنذار، أطلق قبضته نحوي كصاعقة. للحظة ظننت أنها ستصل، لكنها توقفت عندما تحرك كالسون بشكل خاطف، ليُطلق قبضته نحو وجهي بقوة. شعرتُ بألم حادٍ اخترق أنفي، وسرعان ما بدأت الدماء تسيل على شفتي وذقني. حدق فيَّ كالسون بنظرة غضبٍ، وصاح بصوت عميق محمّر الوجه:

- "إنه والدك أيها الأحمق! هل فقدتَ عقلك؟"!

كان الألم في أنفي قد ألهبني، لكن بدلاً من الصراخ أو الانفعال، انفجرتُ في ضحكة هستيرية حادة، كأنها جاءت من أعماق قلبٍ ممزق:

- "هههههههههه... والد؟ مابالكم أيها القوم؟ ليس لي أبٌ في هذه الحياة، أيها اللعين! أنتم تستمرون في إزعاجي، وتستفزون شخصًا قادرٌ على إنهاء حياتكم لو أراد، لكنه فقط يتمالك نفسه... إلى متى ستستمرون في هذه المهزلة؟"

ردّ عصام بسخرية، وكأن كلماتي لم تؤثر فيه بقدر ما أثارت استهزاءه:

- "حتى لو كنت تملك القوة، لن تفعل شيئًا. أنا الذي ربيتك، أنا الذي صنعتك بيدي. متى ستنضج يا أنس؟"

هذه الكلمات أطفأت ما تبقى من تماسك داخلي. من دون تفكير، رفعتُ ساقي بسرعة مذهلة وضربتُ بها عنق عصام. سقط على الأرض في غياب تام عن الوعي، كأن جسده أصبح قطعة فارغة لا حياة فيها. عندها ارتفع صوت ندى عاليًا، بصرخة مدوية... وكانت تامايو تقف خلفها، وعيونها احمرّت من شدة الحزن والغضب. دمعة

واحدة انزلقت على خدها، لكنها كانت كافية لتجعل صوتها يرتجف وهي تقول:

- "كفى! يكفي هذا! أرجوك"!

أما كالسون، فقد كان على أهبة الاستعداد، تقدّم خطوةً للأمام وجمع قبضتيه ليحمي رأسه، وكأنّه يعرف أن مواجهتي قادمة لا محالة. نظرتُ إليه بهدوءٍ غريب، كأن تلك اللحظة قد أطفأت كل مشاعري، وقلت بنبرة باردة قاسية:

- "أحقًا تظن أنك تستطيع هزيمتي؟ أنا الذي قضيت ليالي وأيامًا أتدرب دون توقف. والآن، شخصية ثانوية مثلك تعتقد أنها قادرة على إخضاعي؟ يا للسخرية".

قبل أن ينطق بكلمة، دفعتُ رأسه براحة يدي بقوةٍ هائلة، فأجبرته على السقوط أرضًا كما لو أن كل قوته قد تبعثرت فجأة. لم أحتج حتى أن أتهيأ للقتال؛ كان الأمر أشبه بلمسة قاضية.

في تلك اللحظة، وقبل أن أرفع قدمي لإنهاء الأمر بضربة أخيرة، وقف مارك بيننا، واضعًا يده على صدري ليوقفني. قال بلهجة حازمةٍ:

- "لا أفهم ما تقولون، لكن لا وقت لهذا الآن. أتباع الفيل يقتربون، إنهم على بُعد ميلين. أنا من الأحصنة، وأستطيع سماع الأصوات من بعيد".

كانت كلمات مارك غريبة وغير متوقعة. لكن بدل أن أظهر دهشتي، احتفظتُ ببرودي المعتاد، فأشرتُ إليهم دون اكتراث وقلت:

"هوي مارك... سأترك هؤلاء الأربعة في عهدتك، رغم أن ذو البقع البرتقالية تجاوز الخمسين، والأصغر بينهم بالكاد أكمل الثالثة والعشرين".

توقفتُ للحظة، ثم أضفت بصوت خافت بالكاد يسمعه:

- "عندما يفيق ذو الشعر الأزرق الداكن – كالسون – أخبره أنني كرهته وما زلت أكرهه. وقل له أيضًا إنني كنت أستغله فقط... لكن إياك أن يسمعك أحد منهم".

بدت ملامح الاستغراب على وجه مارك وهو يرد:

- "لماذا؟ لماذا أقولها له أنا؟ إن كنت تبغضه لهذه الدرجة، فلماذا لا تخبره بنفسك؟ أم أنك لا تريد مواجهته بعد كل ما حدث؟"

استدرت إليه ببطء، وبدل أن أجيبه مباشرة، وجهتُ نظري نحو تامايو، التي كانت تراقبني بعينيها المليئتين بالدموع. ثم قلت بهدوء:
"لا... ليس الأمر كذلك".

رفع حاجبيه قليلًا وقال:

- "إذن، لماذا؟"

تنفست بعمق وكأنني أستجمع الكلمات، ثم نطقت بنبرة هادئة:

- "لأنني سأكتشف هذا العالم، أبحث عن شيء ما... شيء فقدته منذ شهور، لكنني لا أزال أؤمن أنني سأجده".

ثم، وبعد تنهيدة ثقيلة، أنهيت كلامي بنبرة أقرب إلى الهمس:

- "أنا راحل من هنا"...

6

القدر

وفي زمانٍ آخر، ومكانٍ يتوارى خلف ضباب الغموض، حيث الليل يقتطع سكونه أنين البوم وصرير الحشرات، وقف منزل خشبي مهجور كأنه شاهد على أسرار الزمن. جذوع الأشجار العالية تحيط به كحراس صامتين، وأوراقها بالكاد تتحرك تحت أنفاس الريح الخافتة. فجأة، شق السكون صوت ضربة قاسية، تردد صداها عبر العراء كطبل حرب، تتبعها صرخة تخترق الظلام، تخرج من عمق ذلك الكوخ المتهالك. داخل الكوخ، ارتفع صوت خشن وغاضب:

- "لديك علاقة بأنس... لكنك ترفض إخباري"!

الباب الخشبي الصدئ يُفتح بعنف، مصدراً صريراً كصرخة مبحوحة من قلب الجحيم. خرج رجل متعب، منهك كأنه هارب من أهوال لا تنتهي. ملابسه ممزقة، تحمل آثار أيام طويلة من التشرد. شعره الطويل يغطي نصف وجهه، ولحيته الكثيفة تضيف إلى مظهره الوحشي. في يده فأس صدئ، لكنه لا يزال قاتلاً ببرود معدنه، يحمله على كتفه كما يحمل المحارب سلاحه الأخير.. كان لون شعره أزرقاً داكناً.